المظاهر الحضاريّة في الشِّعر العباسيّ
في القرن الخامس الهجريّ

إعداد

عبد الله محمود أحمد إبراهيم

المشرف

الأستاذ الدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي

قدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربيّة وآدابها.

أيّار، ٢٠١١م

نوقشت هذه الأطروحة (المظاهر الحضاريّة في الشعر العباسيّ في القرن الخامس الهجريّ)،

وأجيزت بتاريخ ١٩ / ٤ / ٢٠١١م.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيـــــع
* الدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي (مشرفًا) أستاذ الأدب العباسيّ والفاطميّ والمملوكيّ	....
* الدكتور صلاح محمد جرّار (عضوًا) أستاذ الأدب الأندلسيّ والمغربيّ	....
* الدكتور ياسين عايش خليل (عضوًا) أستاذ الأدب العباسيّ	....
* الدكتور عدنان محمود عبيدات (عضوًا) أستاذ الأدب العباسيّ (جامعة العلوم والتكنولوجيا)	....

الجامعة الأردنيـــــة
كلية الدراسات العليا

التاريــــخ: / /

نموذج رقم (١٦)
اقرار والتزام بالمعايير الأخلاقية والأمانة العلمية وقوانين الجامعة الأردنية وأنظمتها وتعليماتها لطلبة الدكتوراه

أنا الطالب: عبدالله محمود أحمد إبراهيم الرقم الجامعي: (٩٠٣٠٣٦٩)
تخصص: اللغة العربية الكليـــــة: الدراسات العليا

عنوان الاطروحة: "المظاهر الحضارية في الشعر العباسي في القرن الخامس الهجري"

اعلن بأنني قد التزمت بقوانين الجامعة الأردنية وأنظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية المفعول المتعلقة باعداد اطروحات الدكتوراه عندما قمت شخصيا" باعداد اطروحتي وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية وكافة المعايير الأخلاقية المتعارف عليها في كتابة الأطروحات العلمية. كما أنني أعلن بأن اطروحتي هذه غير منقولة أو مستلة من أطاريح أو كتب أو أبحاث أو أي منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أي وسيلة اعلامية، وتأسيسا" على ما تقدم فانني أتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير ذلك بما فيه حق مجلس العمداء في الجامعة الأردنية بالغاء قرار منحي الدرجة العلمية التي حصلت عليها وسحب شهادة التخرج مني بعد صدورها دون أن يكون لي أي حق في التظلم أو الاعتراض أو الطعن بأي صورة كانت في القرار الصادر عن مجلس العمداء بهذا الصدد.

توقيع الطالب: .... التاريخ: ٢ / ٦ / ٢٠١١م

الجامعة الأردنية

نمـــوذج تفـــويض

أنا الطالب عبدالله محمود أحمد إبراهيم ، أفـوض الجامعـة الأردنيـة بتزويد نسخ من أطروحتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبها.

التوقيع:

التاريخ: ٢/٦/٢٠١١م

الإهـــــــداء

"رب أوزعني أن أشكر نعمتَك التي أنعمتَ علي وعلى والدي وأن أعمـلَ صالحــًا ترضـاه وأدخلني برحمتِك في عبادِك الصالحين".

إلى أبي الذي رجعت نفسه المطمئنّة إلى ربها راضيةً مرضية.

وإلى أمي التي بلغت عندي الكِبر، ولستُ أرغب إلا في رضاها.

وإلى ساعدي الأيمن، وحد سيفي الذي لن يتثلّم، أخي الذي أشد به أزري، ويقوى به عـودي، وإلى زوجه وبنيه.

وإليك – خاصةً - رفيقةِ درب الحياة بحلوها ومرها، وسيدةِ الحور العين، إن شاء ا ، التي مـا فتئت تعطي وتضحي، وكانت لي نِعم السكن، وما زالت تحيطني بالمودة والرحمة.

وإلى أبنائي، فرحي الذي لا ينتهي، الذين هم شموع يضيئها جمـر عينـي: إسـراء، وأسـيل، وفاطمة، وهديل، وملاك، ومحمود، وأحمد، وعمر، ومحمد، وحمزة.

وإلى طالبي العلم، ومحبي اللغة العربية في كلّ زمان ومكان.

إليهم جميعا أهدي ثمرةَ هذا الجهد.

الباحث

الشكر والتقدير

ماذا أقول؟ وهل يسعفني القول فأشكر أستاذي الدكتور عبـدالجليل عبدالمهـدي شـكرا يستأهله ويستحقه؟ وهو الذي رغّبني في دراسة اللغة العربية مذ كنت طالبـًا فـي المرحلـة الجامعية الأولى. ماذا أقول، ولسان حالي عاجز عن وصف ما أحمل له في قلبي مـن مـشاعر الحب والتقدير والعرفان بالجميل؟ كيف لا يكون ذاك حالي وهو – فضلاً عما تقـدم- أسـتاذي المشرف على هذه الرسالة، الذي ظل يحفّزني على إنجازها، ويدعوني إلى إتمامها، ويأخذ بيدي مشجعا ساعة كان اليأس يتملّكني؟ ماذا أقول فيه وله وهو الذي لم يبخل علي بوقته وجهده، وفتح لي أبواب قلبه قبل أبواب بيته؛ معلّما ومرحبا ومعطيا من غير من ولا أذًى؟ ماذا أقـول، وهـل يفيهِ القولُ حقه؟

أما الأساتذة الكرام، الذين أشكرهم شكرا خالصا على تفضلهم بالموافقة على مناقشتي في هذه الرسالة، فأؤكد لهم أنني أحتفظ لهم في قلبي بمكانة خاصة؛ إذ هم علماء أجلاء كثيـرا مـا اقتبست من نورهم نورا أهتدي به، واغترفت من بحر علمهم ما نفعنـي وينفعنـي فـي الـدنيا والآخرة.

وثمة شكر آخر لا يفوتني ذكره، أقدمه إلى الآنسة وفاء العبد اللات، مديرة المناهج فـي وزارة التربية والتعليم، التي كان لها كبير الأثر؛ المادي والمعنوي في إتمام هذه الرسالة.

والشكر أيضا إلى أخوي: الدكتور ماجد حرب، والدكتور عيسى المصري، اللذين أقـول فيهما بحقّ إنهما أخوان لي لم تلدهما أمي؛ إذ كانا نِعم الصديقان الصدوقان قولاً وفعلاً.

والشكر موصول إلى زملائي كافة، الذين أسهموا على نحو مباشر أو غير مباشر فـي إنجاز هذه الرسالة، وفي استوائها على سوقها، وأخص منهم بالذكر توأم الروح عمر دعـسان، ورفاق الدرب: عطا ا الحجايا، وأسامة جرادات، ومحمود الزهيري، وخالد فراج، وإيـاد أبـو رحمة، ونضال الموسى، وناصر عيد، وخالد الجدوع، وآخرين لهم في القلـب منزلـة، وفـي الذاكرة حضور.

فهرس المحتويات

المظاهر الحضارية في الشعر العباسي
في القرن الخامس الهجري

إعداد
عبد ا محمود أحمد إبراهيم

المشرف
الأستاذ الدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي

ملخّص

تتناول هذه الدراسة المظاهر الحضارية في الشّعر العباسي في القرن الخامس الهجري، وهي دراسة تسعى إلى تبين الواقع الحضاري في هذا القرن، متّخذة شعر تلك المرحلة مرجعا أساسا لها.

وقد اتّبعت هذه الدراسة المنهج الاستقرائي التحليلي، المتمثّل في تتبع الشواهد الشعرية في مظانّها، ثم دراستها، وتحليلها، وتعرف المظاهر الحضارية التي كانت ماثلة في القرن الخامس الهجري؛ لذا جاءت في تمهيد تحدث عن الحضارة في إطاريها: العام والخاص، ثم فصل أول تناول مظاهر الحضارة العِمرانية في شعر القرن الخامس الهجري، تلاه فصل ثانٍ اختص بمظاهر الحضارة الطبيعية في شعر ذلك القرن، ثم فصل ثالث تحدث عن زينة المرأة الحضارية في شعر القرن نفسه، ففصل رابع تناول المظاهر الاجتماعية الحضارية في شعر القرن المذكور.

وقد خلُصت الدراسة إلى أن شعر القرن الخامس الهجري عكس مظاهر حضارية عدة، وأن شعراء هذا القرن أجادوا في تصوير واقعهم الحضاري، وأحسنوا وصفه أيما إحسان، مما يدلّ دلالة واضحة على تفاعلهم مع هذا الواقع وامتزاجهم به.

وقد ظهرت تلك الإجادة وذاك الإحسان على نحوٍ واضح وجلي في تصويرهم مظاهر الحضارة العِمرانية، وتجلّياتها في: المدن، والقصور والدور، والقِباب، والقلاع والحصون، والحمامات، والبرك والنواعير والنوافير والفوارات، والخيم والجسور والمنارات، ومظاهر

الحضارة الطبيعية، وتجلّياتها في: الرياض، والورود والريـاحين، والربيـع، وزينـة المـرأة الحضارية، وتجلّياتها في: الملابس والأزياء، والشعر، والحلي، والخِضاب والعطـر والتطيـب، والمظاهر الاجتماعية الحضارية، وتجلّياتها في: العادات والتقاليـد، وتمثّلـت فـي: الاحتفـال بالأعياد، والاحتفال بالمناسبات، وتبادل الهدايا (التهادي)، والأطعمة والأشربة، ومظـاهر اللهـو والتسلية، وتمثّلت في: مجالس الخمر، والغناء وآلاته، والشغف بالغِلمان، والرياضـيات الذهنيـة والجسدية.

المقدمة

الحمد   حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الخلق وخاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد

فقد حبا ا   أمة الإسلام في العصر العباسي عزا وسؤددا كبيرين، ونالت هذه الأمة آنذاك من التحضر المادي والمعنوي ما كان له الأثر البين في تأثر الشعر العربي بما عاشه شعراء ذلك العصر، وما شاهدوه من تحضر مجتمعهم؛ فقاموا يصورونه، ويبدعون في إخراجه في أشعارهم؛ وبذا سجلت محابرهم مآثر أمتهم الحضارية بما فيها من أناقة وتقلّب في النعيم، وتفنّن في المعاش والأثاث والرياش.

ولقد كنت في أثناء قراءتي الأدب العربي في عصوره المختلفة أدقق النظر في شعر القرن الخامس الهجري خاصة، وأقرأ بنهم ما كتبه الدارسون عنه، فاستهوتني تلك النقلة الحضارية التي حظي بها الشعر في ذلك الزمن، ولفت نظري ما تضمنه من تصوير حضاري لمجتمعه في شتى مجالاته. وكان إيماني أن الأدب – شأنه شأن سائر العلوم والفنون- هو طريقة لنقل المعرفة في متعة ترافقها، ورضى فني يصاحبها، فلم أجد أجمل من اختياري مسمى يتزامن مع تلك النقلة وإعجابي بها؛ فاخترت أن توسم دراستي هذه بـ "المظاهر الحضارية في الشعر العباسي في القرن الخامس الهجري ".

ولم تكن تلك التسمية من إبداع فكري وحده، بل إن الفضل يعود، بعد توفيق ا ، إلى ثلّةٍ مباركة من أساتذة الأدب العربي، الذين استأنست برؤاهم، وأفدت من أفكارهم، وأخص منهم بالذكر أستاذي الدكتور عبدالجليل عبدالمهدي، فجزاهم ا   عني خيرا.

ولما كانت هذه الدراسة قد وسمت بـ "مظاهر الحضارة في الشعر العباسي في القرن الخامس الهجري"، فإنها تسعى إلى تَبين الواقع الحضاري في ذلك القرن، متّخذة شعر تلك المرحلة مرجعا أساسا لها، ومصدرا مهما تستجلي منه جوانب التقدم والرقّي، وتتعرف من خلاله مقدرة الشعر على مواكبة الحضارة في عصره، وتصوير إنجازاتها، والكشف عن جمالياتها وروعتها.

وبما أن هذه الدراسة لا تحدد نفسها ببيئة جغرافية معينة، وإنما تتّخذ من دول مشرق العالم الإسلامي وإماراته المستقلّة عن دولة الخلافة العباسية حدودا لها، إضافة إلى دولة الخلافة الفاطمية، فإن مِساحة هذه الدولة تُعد كبيرة؛ إذ تشمل العراق، وبلاد فارس، وبلاد الشام، والجزيرة العربية، ومصر، ما يعني كثرة الشعراء من جهة، وغزارة إنتاجهم الشعري من جهة أخرى. فضلاً عن أن عددا غير قليل من هؤلاء الشعراء – في حدود ما أعلم- لم يجمع شعرهم

في دواوين، أو يحقق، من مثل: أبي يعلى بن الهبارية، وأبي الفرج الموقفي، وطلحةَ النعمـاني، وأبي الفضل يحيى الحصكفي، وأبي الحسن أحمد بن الدويدة، وابن النحاس الحلبي، وهذا تطلـب بحثـًا طويلاً في كتب التراجم، واستقراء ما تحويه مصادر التراث العربي الخاصة بهذه الحِقبة؛ بغية العثور على قصائد هؤلاء الشعراء ومقطوعاتهم. وهذا كلّه فرض على هـذه الدراسـة أن تبذل جهدا مضاعفـًا لرصد المظاهر الحضارية في شعر القرن الخامس الهجري.

وعلى الرغم من تنوع الدراسات الأدبية التي تناولت الشعر العباسي، فإن شـعر القـرن الخامس الهجري لم يحظَ بما حظي به شعر القرون السابقة؛ فالدراسات الأدبية حوله أقلّ من تلك المتعلقة بما سبقه. فضلاً عن أن الدراسات التي تعرضت للمظاهر الحضارية في شـعر القـرن الخامس الهجري، أو حاولت أن تتّخذ من الشعر شاهدا على حضارة ذاك القرن، تناولت جانبـا يسيرا من تلك المظاهر، وهذا ما شجعني على المضي في مشروع دراستي هذه، التي أفادت من مصادر تراثية أدبية وتاريخية عدة. وأشير هنا إلى دراستين أفدت منهما في منهجيـة دراسـتي ومفرداتها، هما: الدراسة الموسومة بـ "مظاهر الحضارة في الشعر العباسي حتى نهاية القـرن الثالث الهجري" للباحث عمر عيد المومني، وهي أطروحة جامعية نـال بهـا الباحـث درجـة الدكتوراه من جامعة اليرموك، بإشراف الدكتور عبدالقادر الرباعي. أما الدراسة الثانيـة، فهـي أطروحة أشرف عليها الدكتور عبدالجليل حسن عبدالمهدي، وكانت بعنوان " المظاهر الحضارية في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري"، للباحث سيف محمد المحروقي، وقد نال بها درجة الدكتوراه من الجامعة الأردنية. فضلاً عن دراسة ثالثة للباحثة فريال العلي، تناولت فيها معـالم الحضارة الأندلسية/ عصر بني أمية (١٣٨ – ٤٢١ ه) ، وهي أطروحة جامعية أشرف عليهـا الأستاذان: ناصرالدين الأسد، وصلاح محمد جرار، ونالت بها الباحثة درجـة الـدكتوراه مـن الجامعة الأردنية.

أما الصعوبات التي واجهتني في أثناء إعدادي هذه الدراسة، فأبرزها العدد الكبيـر مـن الشعراء الذين تختلف مواطنهم وبيئاتهم، وتتمايز أغراضهم وأساليبهم، ويتباين شـعرهم. وقـد اضطر الباحث، تبعا لهذا التمايز والتباين، إلى أن يبذل جهدا أكبر. على أنه لا بد من الإشـارة إلى أن ذلك كله قد حفّزني على مواصلة البحث عن النماذج الشعرية التـي تعنـى بالجوانـب الحضارية عبر مستوياتها المختلفة، في قرن أحسبه من العصور الذهبية للشعر العربي.

ولما كنت ضمنت دراستي غير قليل من أسماء الشعراء المغمورين، فقد استدعى منـي ذلك البحث طويلاً في كتب التراجم والأدب؛ بغية العثور على تـراجمهم. علمـا بـأنني كنـت أحيانـًا لا أقف على ترجمة لبعضهم، من مثل: أبي المواهيب عبد المحسن بن صـدقة، وأبـي

القاسم بن كثير، وأبي شجاع فاتك، وأبي محمد الحسن جِكّينا، وابن عبد الودود، والمرصع أبي المكارم.

ومن الصعوبات أيضا أنني كنت أعثر على نصوص شعرية مبتورة عن سياقها الذي قيلت فيه، فلا يتسنّى لي – حينئذٍ - معرفة مضمون النص الشعري، أو فكرته الرئيسة، وهذا أكثر ما يكون في المقطوعات.

وقد تنوعت مصادر هذه الدراسة ومراجعها؛ أما مصادرها، فكانت دواوين الشعراء العباسيين في القرن الخامس الهجري. فضلاً عن المصادر الأدبية التي تضم شِعرا لم يرد في الدواوين، وتنفرد بشعر الشعراء الذين فُقدت دواوينهم أو كانوا مغمورين، ومن أبرز هذه المصادر خريدة القصر وجريدة أهل العصر للعِماد الأصفهاني، بأقسامه الثلاثة، ودمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي. وينضاف إلى ذلك كله مصادر أخرى أفادت منها هذه الدراسة، مثل: كتب التراجم، والمعاجم اللغوية، والمصادر التاريخية.

وأما مراجع هذه الدراسة، فقد أفدت منها في تعرف النواحي: السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، والحضارية للعصر العباسي عامة، والقرن الخامس الهجري خاصة، وكان من أهمها: سلسلة كتب تاريخ الأدب العربي، والفن ومذاهبه في الشعر العربي، وعصر الدول والإمارات لشوقي ضيف، والحياة الأدبية في الشام لعبدالجليل عبدالمهدي. فضلاً عن الكتب التي تناولت الحديث عن مفهوم الحضارة ومقوماتها.

ولما كانت طبيعة هذه الدراسة تفرض أن أُحدد القرن الخامس الهجري إطارا زمنيا لها، وأن أُحدد الشام ومصر والجزيرة العربية والعراق بأمصارها المعروفة آنذاك وبلاد فارس إطارا مكانيا، وبيئة أطوف في نواحيها؛ لاستجلاء الشعر ودراسته، لما كان ذلك فإنه تجدر الإشارة في هذا السياق، إلى أن هذه الدراسة لم تحصر نفسها في شعراء القرن الخامس الهجري حسب، بدءا من سنة ٤٠٠هـ ، وانتهاء بسنة ٤٩٩هـ؛ إذ تجاوزت ذلك الزمن إلى بداية القرن السادس الهجري. ولعلّ مسوغ ذلك أن هؤلاء الشعراء – رغم أنهم من رجال القرن السادس الهجري- عاشوا مدة في القرن الخامس الهجري، أو أن شعرهم، الذي استشهدت به الدراسة، لم يحو من القرائن التاريخية أو الاجتماعية ما يساعد على تحديد السنة التي قيل فيها.

وحاولت هذه الدراسة الإفادة من المنهج الاستقرائي التحليلي؛ ابتغاء الكشف عن انعكاسات المجتمع في النصوص الشعرية، وتحليل أبعاد هذه النصوص ومضامينها الحضارية، وتبين مواقف الشعراء من المظاهر الحضارية، ومقدرتهم على إبرازها بطرقهم الخاصة. وبذا، فإن الباحث لم يفرد للدراسة الفنية فصلاً مستقلاً؛ إذ إن طبيعة هذه الدراسة ومحورها الذي تقوم

عليه لا يتطلب منها ذلك؛ فغايتها البحث عن المظاهر الحضارية كما يجلّيها شعر القرن الخامس الهجري، بالنظر إلى أن الشعر يمثل مصدرا رئيسا لدراسة مناحي الحياة جميعها في عصره.

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية، فقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول، وخاتمة. أما التمهيد، فيعد مدخلاً للدراسة؛ إذ تعرض الباحث فيه إلى بيان مفهوم الحضارة في إطارها العام، فتحدث عن مفهوم الحضارة، ومفاهيم أخرى تشترك معها وهي المدنية والثقافة. كما تناول فيه الحضارة العربية الإسلامية في إطارها الخاص.

وأما الفصل الأول، فتحدث فيه الباحث عن مظاهر الحضارة العمرانية في شعر القرن الخامس الهجري، وتجلياتها في وصف: المدن، والقصور والدور، والقِباب، والقلاع والحصون، والحمامات، والبرك والنواعير والنوافير والفوارات، والخيام والجسور والمنارات وغيرها.

ودار الحديث في الفصل الثاني حول مظاهر الحضارة الطبيعية في شعر القرن الخامس الهجري، وتجلياتها في وصف: الرياض، والورود والرياحين، والربيع.

وكانت زينة المرأة الحضارية في شعر القرن الخامس الهجري محورا للحديث في الفصل الثالث من هذه الدراسة، وتجلت تلك الزينة الحضارية في الملابس والأزياء، والشعر؛ تصفيفه، وتزيينه، وتطييبه، والحلي، والخِضاب والعطر والتطيب.

وتناول الفصل الرابع العاداتِ والتقاليد الاجتماعية الحضارية في شعر القرن الخامس الهجري، وتجلى ذلك في محورين، أولهما: العادات والتقاليد، التي ظهرت في: الاحتفال بالأعياد، والاحتفال بالمناسبات، وتبادل الهدايا (التهادي)، والأطعمة والأشربة. أما المحور الثاني، فكان مظاهر اللهو والتسلية، وظهر في: مجالس الخمر، والشغف بالغلمان، والغناء وآلاته، والرياضات الذهنية والجسدية.

وإن كان ثمة ما يقال، فإن الوفاء يحتّم علي أن أشكر أستاذي الدكتور عبدالجليل عبد المهدي على الذي لقيته من رعايته؛ فقد أبى أن يملّ حيث كان الملل يقترب مني، وكانت توجيهاته لي وتصويباته لما أكتب سببا رئيسا في إنجاز هذه الدراسة.

كما أزجي خالص شكري، وأقدم جلّ تقديري إلى الأساتذة الأجلاء، الذين تفضلوا بمناقشة هذه الرسالة، وهم: الأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار، والأستاذ الدكتور ياسين عايش خليل، والدكتور عدنان محمود.

وبعد، فهذا ما استطعت تحقيقه في هذه الدراسة المتواضعة، والله هو الذي يسدد الخُطى ويهدي إلى السبيل.

التمهيد

أولاً: الحضارة في إطارها العام

إن الحديث عن الحضارة على نحو عام يتطلّب بدايةً تعرفَ معنى كلمة (حضارة)، وتبين مفهومها، والمصطلحات الدالّة عليها.

١- معنى الكلمة

تلفظ الحضارة لغة بكسر الحاء وفتحها، وهي مشتقة من الفعل حضر، وحضر لغة ضد غاب، ومنه الحضارة والحضر والحاضرة؛ فالحضارةُ عكس البداوة، والحضر خلاف البدو، والحاضرة عكس البادية، وتعني المدن والقرى والريف. وسميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار؛ أي سكن وإقامة. ومن هنا، فالحضارة لغة تعني الإقامة في الحضر. وجاء في القاموس المحيط أن الحضارة الإقامة في الحضر، يقول الشاعر:

فمن تكن الحضارةُ أعجبتْه ... فأي رجال باديةٍ ترانا[١]

وجاء أيضا في الحديث الشريف قوله - صلّى الله عليه وسلّم -: "لا يبيع حاضر لبادٍ"[٢]. ويرى الخليل بن أحمد أن الحضر سمي حضرا لأنّهم "حضروا الأمصار والديار"[٣]. وهذا يتوافق مع ما ذكره ابن فارس في معجمه من أن الحاء والضاد والراء إيراد الشيء وروده ومشاهدته[٤].

---

(١) انظر مادة (حضر) في: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم،(ت٧١١هـ)، لسان العرب، م٤، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨م، والزبيدي، أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني، (١٢٠٥هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، (تحقيق عبد الكريم العزباوي، مراجعة أحمد فراج)، ج١١، مطبعة دار حكومة الكويت، دار الجيل، ١٩٧٢م، والفيروز أبادي، مجد الدين أبو الطاهر محمد بن يعقوب، (ت ٨٢٣هـ)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٨م.

(٢) انظر: ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الكناني، (ت٨٥٢ هـ)، فتح الباري، كتاب البيوع، ٣٧٠/٤-٣٧٥.

(٣) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (ت١٧٠هـ)، كتاب العين، (تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، (د. ط)، ج٣، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١م، ص ١٠٢.

(٤) انظر: ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا القزويني، (ت ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، (تحقيق عبد السلام هارون)، ط٢، ج٢، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨١م، ص ٧٥.

ثم أخذت لفظة الحضارة بعدا آخر، فلم تعد تعني الإقامة بمقدار ما هي نمط معيشة لـه تأثيره في الناس. نجد ذلك لدى المتنبي وهو يوازن بين الجمال الحـضري والجمـال البـدوي، فيقول[١]:

حـسن الحـضارة مجلـوب بتطريـة وفي البـداوة حـسن غيـر مجلـوب

وكان العرب يميزون بين البداوة والحضارة بألفاظ، منها: أهل الوبر [٢]، وأهل المدر[٣]، وأهل الحدر[٤]، وأهل الحجر[٥].

٢- مفهومها

استعمل الفلاسفة العرب لفظة مديني بمعنى اجتماعي أخذًا عن اليونانيين، الذين كانـت المدينة عندهم مظهر الاجتماع المنتظم والمتحضر[٦]. وعلى هذا، فالحضارة تعنـي الاسـتقرار الذي ينشأ عن زراعة الأرض، وبذا يتوافر لأبناء المجتمع مجال التطـور فـي بنـاء المـدن، وتحصيل المعارف، ووضع الأنظمة التي توفر لهم حياة الرفاهية والإبداع.

وفي هذا السياق، يرى ابن خلدون أن الحضارة طور طبيعي أو جيل من أجيال طبيعيـة في حياة المجتمعات المختلفة، وهكذا البداوة، ولكن البداوة أقدم والبدو أصل للحضر، والحضارة غاية للبداوة، وغاية العمران هي الحضارة والترف، وأنّه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخـذ في الهرم. وبذا، يكون ابن خلدون قد سبق علماء الغرب في ما يتعلّق بنظرية انحلال الحـضارة وزوالها[٧].

---

[١] العكبري، أبو البقاء، شرح المتنبي، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وآخرون، (د. ط)، ج١، دار المعـرفة، بيروت، (د. ت)، ص ١٦٨.

[٢] يقصد بالوبر الصوف الذي يصنع منه البدوي خيامه وملابسه. ومن هنا، فأهل الوبر هـم أهـل الباديـة أو البوادي. لسان العرب، مادة (وبر).

[٣] يقصد بالمدر قطع الطين المتماسك، وهو ما يبنى به في القرى أو المدن. ومن هنا، فأهل المدر هـم أهـل القرى والمدن، ولذلك وصف العرب مصر بالمدرة السوداء؛ كناية عن أنها تتكون من قـرى ومـدن. لـسان العرب، مادة (مدر).

[٤] يقصد بالحدر الأرض المنحدرة التي لا يبنى عليها. ومن هنا، فأهل الحدر هم أهل البادية أو البوادي. لـسان العرب، مادة (حدر).

[٥] يقصد بهم أهل المدن، وكانت توجد في الجزيرة العربية مدن عدة باسم الحجر. لسان العرب، مادة (حجر).

[٦] زريق، قسطنطين، (١٩٨١م)، في معركة الحضارة، (ط٤)، بيروت، دار العلم للملايين، ص ٢٧.

[٧] صابر، محيي الدين، (١٩٦٢م)، التغير الحضاري وتنمية المجتمع، سرس الليان، مركز تنمية المجتمع، ص ٣٨، ٤١، ١٢٠- ١٢٨، ١٥١، ١٧٢، ٣٧١- ٣٧٤؛ وزريق، في معركة الحضارة، ص ٢٨- ٣٠، ٣٦- ٣٧؛ ولمـزيد من التفاصيل والآراء والمناقشات انظر: مؤنس، حسين، (١٩٧٨م)، عالم المعرفة، الحضارة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة. ص١٥٤-١٥٧؛ الشامي، عبد العال، (١٩٨٨م)، جغرافية العمران عند ابـن خلـدون، الكويت، ص٧٣؛ النشار، مصطفى، (٢٠٠٤م)، فلسفة التاريخ، القاهرة، ص ٦٦- ٧٠.

وعلى ذلك، فابن خلدون يرى الحضارة عامل ضعف في الأمم، وهي مرحلـة النهايـة، ويتوصل إلى رؤيته هذه من خلال نظرته التاريخية إلى الأمم ومعاشها، وليس من خلال تأمـل فلسفي في الحضارة ومكوناتها؛ فهي عنده الحالة التي تصل إليها الأمة من خلال تطـور نمـط معيشتها؛ بمعنى أن الحضارة ترتبط بالتطور والرقي.

وبذا، فالمجتمع لا يتّخذ سِمة الحضارة، ولا ينخرط في سلك المجتمعات المتحـضرة إلا إذا حقّق بعض الشروط الأساسية؛ أولها أن يكون قد أصاب حدا أدنى من السيطرة على طبيعـة محيطه، وعلى طبيعته البشرية، والاستقرار من أهم شروط الحضارة؛ ولذا هدف ابن خلدون في حصر هذه الصفة بالمجتمعات المستقرة، واعتبار الحضارة مناقضة للبداوة المتنقلة.

ومن خلال النظر في ما تقدم، فإنه يمكن القول إنه لا يوجد مجتمع غير متحضر، وإنّما تتفاوت هذه المجتمعات في مستوى التحضر؛ فالبدو ليسوا خلوا من الحضارة؛ إذ إن لهم نظمهـم الدينية والسياسية والاجتماعية، كما أن لديهم أعرافـًا وتقاليد وقيما خُلقية، فضلاً عـن أن لهـم شِعرا وأمثالاً وقصصا وحِكما فيها تأمل وتخيل يدلان على قدرة عقلية، وكانت لهم أيضا خبرات عن النجوم والرياح والمطر بنيت على الملاحظة والاستقراء[١].

مما سبق، يمكن تعريف الحضارة بأنها مجموعـة المظـاهر الـسياسية والاجتماعيـة والاقتصادية والفكرية لأمة من الأمم يتناقلها أبناؤها جيلاً بعد جيل.

٣- الحضارة والمدنية والثقافة

ترتبط هذه المصطلحات في ما بينها بشبكة من العلاقات الدلالية التي تجعل أمر الفصل بينها صعبا. ولما كانت طبيعة هذه الدراسة لا تتطلب الخوض في تحديد هذه المفاهيم على نحـو مفصل، فإنها ستستعرض خلاصة ما توصل إليه عدد من الباحثين، الذين أكـدوا تـداخل هـذه المفاهيم في ما بينها، وبينوا أن العلاقة بينها أشبه بعلاقة الجزء بالكلّ؛ حيث تصب جميعها فـي معانٍ مشتركة، وتقترب كثيرا من بعضها حتى تكاد تكون من المترادفات. ومن هؤلاء البـاحثين العرب قسطنطين زريق؛ إذ يقول: " وفي العربية الحديثة كلمة مرادفة للحضارة هـي المدنيـة، وهي مولّدة لم ترد في المعاجم، والأرجح أنها مستمدة من الكلمة الإفرنجيـة (Civilization). وقد استعمل الفلاسفة العرب لفظة (مدني) بمعنًى اجتماعي أخذًا عن اليونان، الذين كانت المدينة عندهم مظهر الاجتماع المتحضر، ... ومهما يكن من أمر، فالواضح أن المعنى الأصلي الـذي

---

[١] انظر: اليوزبكي، توفيق سلطان، (١٩٨٨م)، دراسات في النظم العربية والإسـلامية، ط٣، العـراق، وزارة التعليم العالي، جامعة الموصل، ص١٩.

تنطوي عليه لفظتا الحضارة والمدنية إنّما هو سكنى الحواضر والمدن، وما ينشأ عن هذه السكنى أو يصحبها من فنون الحياة ومظاهرها، وواضح أن الاستعمال العربي الحديث لا يميز بين هاتين اللفظتين، ولا يخص إحداهما دون الأخرى، بل يطلقهما مترادفتين من غير تمييز أو تخصيص[١].

وقد سار المعجم الوسيط في تعريفه للمدنية على النهج السابق نفسه؛ إذ جعلها مرادفة للحضارة من غير تمييز بينهما، فقال إن المدنية هي " الحضارة واتساع العمران"[٢]. وكذا يعرف خريسات وزميلاه المدنية جاعلين إياها مرادفة للحضارة؛ إذ يقولون إنها "رغم حداثة عهدها بالدلالة على الحضارة، فهي تحتوي في مدلولها القديم على عامل مشترك مع كلمة الحضارة، وهو البقاء والإقامة والبناء، بالإضافة إلى المعنى الذي حدد لها في صيغة التمدن بمعنى التخلّق بأخلاق المدن"[٣].

وبذا، يميل كثير من الباحثين إلى استعمال كلمة (مدنية) مرادفة لكلمة (الحضارة)؛ فهي أيضا تشير في اللغة إلى ارتباط مكاني. غير أن كلمة "الحضارة" قد ترتبط بمعانٍ تقويمية عند بعض الباحثين أكثر مما ترتبط كلمة المدنية، فحين يقول ابن خلدون إن الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره، ومؤدية لفساده، فإنّه يعطي حكما تقويميا على الحضارة، يعني بذلك أنه حين يتم للمجتمع كلّ ما يتطلّع إليه من تحضر، وما يصاحب ذلك من رفاهية واسترخاء، فإن ذلك يكون مؤذنًا في رأيه بختام حلقة حضارية في تاريخه. وهكذا يستعمل ابن خلدون كلمة الحضارة للدلالة على صفة معينة من حياة المدنية.

وهناك من يرى أن استعمال لفظة المدنية مرادفة للفظة الحضارة لا يعدو أن يكون ضربا من التساهل في دلالات الألفاظ؛ لأن الحضارة – بمعناها الدقيق ومفهومها العلمي- أعم وأشمل من المدنية؛ فالحضارة تشتمل على النشاط الاجتماعي من جوانبه الروحية والمادية جميعها، أما المدنية فهي مجرد النشاط المادي للمجتمع، وبذا تكون المدنية جانبا من جوانب الحضارة وفرعا من فروعها[٤].

---

[١] زريق، في معركة الحضارة، ص٣١- ٣٢، وانظر: ماجد، عبدالمنعم، (١٩٦٣م)، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ص١٠. المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون، ط٢، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ص٨٥٩.

[٢] المعجم الوسيط، ص٨٥٩. خريسات، محمد، وهزايمة، عصام، ومحافظة، محمد، (١٩٩٩م)، تاريخ الحضارة الإنسانية، الأردن، دار الكندي، ص٢٢.

[٣] خريسات، وآخرون، (١٩٩٩م)، تاريخ الحضارة الإنسانية، ص٢٢.

[٤] الشريف، أحمد إبراهيم، (١٩٨١م)، دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ص١٣-١٤.

ومثلما يفعل الباحثون العرب في كثير من الأحيان، فيستعملون كلمتي "الحضارة" و "المدنية" مترادفتين، فإن كثيرا من الباحثين الغربيين يميلون – كما ذُكر سابقًا - إلى استعمال كلمتي: Civilization, Culture بمعنًى واحد، وهذا ما يؤكده قسطنطين زريق؛ إذ يقول: "إننا لا نجد لهاتين الكلمتين في اللغات الغربية الحديثة تحديدات مستقرة، ولا نلقى تمييزا واضحا بينها مقبولاً بوجه عام "[(١)].

وإذا كانت كلمتا الحضارة والمدنية تحتفظان بدلالة ارتباط مكاني ما بين الإنسان وبيئته من حيث أصلهما اللغوي العام الذي أثر في استعمالهما الاصطلاحي، فإن مادة ثَقَفَ ترتبط بالتقويم والتكيف النوعي الخاص؛ فالتمدن والتحضر ارتباط بالمكان ينشئ أحوالاً خاصة، والتثقف تطور في الذات ينشئ أحوالاً خاصة[(٢)].

إذن، الثقافة بمفهومها تعني ذلك الكلّ المركّب الذي يحتوي على المعرفة، والمعتقدات، والفن، والأخلاق، والقانون، والعرف، والعادات، وكلّ ما حصل عليه الإنسان من القدرات بوصفه عضوا في المجتمع[(٣)].

فلفظة الثقافة مشتقة من ثَقَفَ فلان؛ أي صار حاذقًا فطِنًا، وعلى ذلك فهي تعني العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها؛ أي أنّها تدلّ على زيادة الصقل والارتقاء، أو أنها تعني الجوانب العقلية والوجدانية بالدرجة الأولى، أو مجموع المعلومات والمعارف والممارسات والقيم الخاصة بشعب ما، التي يعيش بمقتضاها، وهي التي تميزه عن غيره من الشعوب؛ لأنّها تعبير صادق عن شخصيته وطريقته الخاصة في الحياة[(٤)].

وعلاوة على ذلك، فلفظة الثقافة ليست مرادفة للفظة الحضارة في العربية [(٥)]؛ لأنها تمثل جانبا من جوانب الحضارة وفرعا من فروعها. ولعلّ هذه؛ أي الثقافة، هي أهم جوانب

---

(١) زريق، في معركة الحضارة، ص٣٥.

(٢) الشرقاوي، عفت، (١٩٨٥م) ، في فلسفة الحضارة الإسلامية، ط٤، بيروت، دار النهضة العربية، ص١٦.

(٣) انظر: اليوزبكي، دراسات في النظم العربية الإسلامية، ص٢١.

(٤) مؤنس، الحضارة، ص٣٩٤-٣٩٩؛ وعبد الكريم، عثمان، (١٩٨٢م)، معالم الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص٩.

(٥) من المهم الإشارة هنا إلى أن هناك من يسوي بين الثقافة والحضارة ويجعلهما مفهوما واحدا، ومن أشهر هؤلاء تايلور Taylor. وهناك من يفرق بينهما إما على أساس أن الثقافة تشير إلى ما هو عقلي، في حين تشير الحضارة إلى ما هو مادي، أو بالعكس على أساس أن الثقافة تعني المظاهر المادية للحضارة، من مثل: التقنية والصناعة، وأن الحضارة تعني المظاهر الأدبية الفلسفية والعقلية. ولتفصيل ذلك، وحيث إنّه لا يتّسع المجال في هذه الدراسة لذكر آرائهم، انظر: اشفيستر، ألبيرت، (١٩٩٧م)، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (د. ط)، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر، ص٣٧؛ ومؤنس، الحضارة، ص٣٧٠؛ والسيد، عزمي طه وآخرون، (١٩٩٥م)، الثقافة الإسلامية، (د. ط)، مصر، دار المناهج، ص٥٨؛ ونور، محمد عبد المنعم، (د. ت)، الحضارة والتحضر، ط٢، القاهرة، دار المعرفة، ص٢٤؛ والملقي، هيام، (د. ت)، ثقافتنا في مواجهة الانفتاح الحضاري، (د. ط)، الرياض، دار الشواف، ص٣٣؛ وإبراهيم، بكر يس، (١٩٨٧م)، الحضارة الإسلامية العائدة، ط١، القاهرة، مكتبة الآداب، ص٣٠.

الحضارة؛ لأنّها الجانب المعبر عن خصوصيتها والدالّ على هويتها؛ ومن ثَم يمكن من خلالهـا تمييز الحضارات بعضها من بعض من جهة، والتمييز بين الأقطار التي تتشكّل منها الحـضارة الواحدة من جهة ثانية.

غير أنّنا كثيرا ما نستعمل كلمة الثقافة للدلالة على الكثير من المعاني التي تعبـر عنهـا كلمة الحضارة؛ لأن مفهوم كلمة الثقافة في العربية واللغات الأوروبيـة أضـحى يـشمل القـيم الإنسانية والأخلاقية والروحية والاجتماعية كلّها، التي تساعد الإنسان على أن يرقـى ويتطـور ويكتمل.

وهكذا، يلحظ أن الحضارة تتخطّى مفهوم الثقافة لتشمل مظاهر التقدم المادي كلّها، مثـل وسائل النقل الآلي، والتقنية الصناعية، والمهارة الفنية في مختلف ميولها واتّجاهاتها. فالحضارة بمفهومها العام ليست متمثلة في المنشآت العالية، والعمائر السامقة حسب، إنّما هي ثمرة كلّ جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته ... هي مجموع المنجزات والخبـرات الإنـسانية مـن معنوية ومادية لأمة من الأمم منذ فجر تاريخها حتى الزمن الحاضر، هي كلّ المعـاني والقـيم الروحية والأخلاقية والاجتماعية، وكلّ ما أبدعته عبقرية الأمة في ميادين الفكر والفن. إنها كلمة تطلق على التقدم والرقي الإنسانيين في مختلـف الميـادين العلميـة والإبداعيـة والاجتماعيـة والاقتصادية والعمرانية، ما ييسر السبيل إلى حياة إنسانية أفضل[١].

ومهما يكن من أمر، فإننا نلحظ ارتباطـًا وثيقـًا بين الحضارة والمدنية والثقافة، سـواء أكان ذلك من حيث التطابق في المعنى، أم الالتقاء حول معانٍ مـشتركة، فالتفرقـة بـين هـذه المصطلحات إذن ما هي إلا تفرقة اعتبارية.

نخلص من كلّ ما تقدم إلى أن الحضارة هي ثمرة كلّ جهد يقوم به الإنـسان لتحـسين ظروف حياته، سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقـصود، وسواء كانت الثمرة مادية أو معنوية. ويرتبط هذا المفهوم للحضارة أشد الارتباط بالتـاريخ؛ لأن التاريخ هو الزمن، والثمرات الحضارية أيـا كان مستواها تحتاج إلى زمن لكي تطلع وتظهـر؛ أي أنّها جزء من التاريخ أو نِتاج جانبي للتاريخ[٢].

فالحضارة كلّ مظهر من مظاهر الإنتاج البشري، وغالبـا ما يحددها سـلوك الإنـسان وطريقة معيشته وتفاعله مع بيئته. وتختلف كلّ حضارة في مظاهرها عن الحضارات الأخـرى،

---

[١] عبادي، أحمد، مختار، (١٩٧٨م)، محاضرات في الحضارة الإسلامية، بيروت، مكتبـة كريديـة، ص ٥. وانظر: عماد الدين، خليل، مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية، كوالالمبور، الجامعة الإسلامية العالميـة، ص٢٨٧.

[٢] مؤنس، الحضارة، ص١٥.

فلكلّ حضارة سواء أكانت قديمة أم حديثة مظاهر مميزة، فالحضارة تشمل كلّ ما يتعلّق بـالنظم الاجتماعية والسياسية والفكرية والفنية؛ فهي تضم نواحي الحياة جميعها من مظاهر البداوة إلـى حياة القرية والمدينة، وتطور هذه الحياة ونموها وازدهارها.

ثانيـا: الحضارة العربية الإسلامية في إطارها الخاص

تأثرت الحضارة العربية على نحو واضح بسابقتيها: البيزنطيـة والفارسـية، وأفـادت منهما، شأنها في ذلك شأن غيرها من سابقاتها؛ إذ إن اليونانيين اقتبسوا أكثر عوامل تقدمهم مـن المصريين والفينيقيين، وزادوا فيها، ووسعوها على مقتضى مؤثرات الطبيعة؛ فـصار تقدمـها معروفـًا بهم؛ فأخذ عنهم الرومان هذا التقدم، وعدلوا فيه. وكذلك الفرس، فإن تقدمهم قام علـى أنقاض حضارة الأشوريين والبابليين والكلدانيين قبلهم، كما أخذوا عن اليونانيين.

ثم جاء العرب فتفاعلوا مع الشعوب المتحضرة من روم وفرس وغيرهم، واقتبسوا عنهم معالم التطور وأساليب التمدن؛ فبانت ثقافتهم وظهر تقدمهم؛ فأنتجوا حضارة لائقـة فـي فنـون العمران والعلم والأدب والشعر والفلسفة وغيرها[1]. وقد تعرض ابن خلدون إلى هذه الحقيقـة عند قوله: "... وأهل الدولة أبدا يقلّدون في طور الحضارة وأحوالهـا الدولـة الـسابقة قـبلهم، فأحوالهم يشاهدون، ومنهم في الغالب يأخذون، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفـتح، وملكـوا فارس والروم ..."[2].

وفي قول ابن خلدون تأكيد صريح أن الحضارة العربية نشطت على نحو واضح بعـد الفتوحات، ما يدلّ على أنّها نتيجة تفاعل مشترك بين الفاتحين من جهة، وسـكان الـبلاد التـي فُتحت من جهة أخرى. وبذا، تكون الحضارة العربية الإسلامية قد بنيت بفضل أفراد وجماعـات مختلفين في أنسابهم القومية، منهم العرب الفاتحون، ومنهم الآراميون والفرس، ومـنهم الهنـود والإغريق والروم، ومنهم البربر والفِرنجة والترك، وغيرهم كثيرون. وكلّ هؤلاء أسهموا فـي رفع مداميكها؛ لتصبح في ما بعد حضارة عالمية[3].

من هنا، يمكن القول: إن للحضارة العربية الإسلامية مفهومـا، كمـا هـي حـال كـلّ حضارة أخرى، وهو قدرة الإنسان العربي على أن يحيي الدين والفـن والتقاليـد الاجتماعيـة

---

(1) زيدان، جرجي،(د. ت)، تاريخ التمدن الإسلامي، ج١، بيروت، دار مكتبة الحيـاة، ص٢١-٢٣، وانظـر: خريسات وآخرون، تاريخ الحضارة الإنسانية، ص١٦٥. انظر: لوبون، جوستاف، (١٩٥٦م)، حضارة العرب، ط٣، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ص١٨٠.

(2) ابن خلدون، ولي الدين عبدالرحمن بن محمد الخضرمي، (٨٢٨هـ)، المقدمة، (د. ط)، دار الجيل، بيروت، (د. ت)، ص١٣٦. حتّي، فيليب، (١٩٧٤م)، تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، ص٦٨١.

(3) حتّي، فيليب، (١٩٧٤م)، تاريخ العرب، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، ص٦٨١.

الموروثة من حضارات سابقة؛ ليأخذ منها ما يناسب طباعه وحاجاته، فتصبح نامية ومزدهـرة وكأنها منبثقة عنه. وهكذا، كانت نتيجة تفاعل العرب الفكري مع غيرهم أن توقـدت الأذهـان، وشُحذت العقول؛ فنشأ جو لصالح العلم بصفة خاصة، وكان للعلاقات التجارية التي أقامها العرب مع الشعوب المجاورة أو النائية واختلاطهم بهم صداها في تقدم النشاطات الاجتماعية والعمرانية وازدهارها بصفة عامة؛ إذ اطلع العرب على كنوز الحضارات الأخرى وآثارها، ثم مزجوا بينها لينتجوا حضارة كبرى في العلم والأدب والعمران. وبذا، استطاعت الحضارة العربية الإسـلامية الناشئة أن تُبدع – حسب رأي المستشرق جوستاف لوبون – حضارة جديدة، كان لها دور بارز في تاريخ البشرية، مستعينة على ذلك بما استعارته من الفرس واليونان والرومان[١].

[١] انظر: جوستاف، حضارة العرب، ص١٨٠.

الفصل الأول

مظاهر الحضارة العمرانية في شعر القرن الخامس الهجري، وتجلّياتها في وصف:

أ- المدن

ب- القصور، والدور

ج- القِباب

د- القلاع، والحصون

هـ- الحمامات

و- البرك، والنواعير، والنّوافير، والفوارات

ز- الخيام، والجسور، والمنارات، وغيرها

يظهر أن التطور الحضاري للمجتمع العربي الإسلامي في القرن الخامس قد تأثر بالحضارات المشرقية السابقة، ولا سيما الفارسية والهندية، وما حملته من آثار حضارة يونانية، ويظهر هذا جليـا في النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والعمرانية.

أما في ما يتعلّق بالعمران، فقد ارتأى الباحث أن يفرد له فصلاً مستقلاً في هذه الدراسة، يتوقف فيه عند وصف شعر القرن الخامس الهجري للمدن، والقصور والدور، والقِباب، والقلاع والحصون، والحمامات، والبرك والنواعير والنوافير والفوارات، والخيم والجسور والمنارات؛ مستجليا ما تضمنه هذا الشعر من مظاهر حضارية عمرانية يختص بها ذلك القرن.

ولقد برزت مظاهر الحضارة العمرانية في القرن الخامس كامتداد لتلك التي شهدها القرن الرابع، وتمثلت في بناء المدن، وتعمير المساجد والقباب، وتشييد القصور والبيوت، والتفنّن في البرك والنواعير والجسور والقناطر، ثم الحمامات والقلاع والحصون. ولعلّ هذه الدراسة تسهم في الصفحات اللاحقة في إبراز تلك المظاهر في شعر القرن الخامس الهجري.

أ- المدن

تتوقف الدراسة في ما يأتي عند صور حضارية للمدن في شعر القرن الخامس الهجري. ولما كانت النماذج الشعرية المناسبة للاستشهاد بها في هذا السياق مقتصرة على بعض المدن، فإن ذلك لا يعود إلى اقتصار المظاهر الحضارية عليها وحدها، إنما يرجع إلى أن هذه المدن كانت مقرا لأصحاب السلطان، ما جعلها تختص بالعناية، كما كانت مستقرا للشعراء الذين أجادوا في وصف زينتها ورياضها ومجالس لهوها في أثناء مدحهم أصحاب السلطان، أو في أثناء تذكّرهم لها وحنينهم إليها.

وقد تمثلت مظاهر الحضارة في تلك المدن في جوانب عدة، مثل: القصور، ومجالس الخمر، والرياض، والترف واللهو والمجون. أما في ما يتعلق بالقصور، وهي مظهر حضاري عمراني لافت، فيبدو جليا في قول ظافر الحداد[١] في الظاهرية[٢][٣]:

أكُثْبـان رمـل الظاهريـةِ هـل إلـى ... عـشِياتِكِ المستَحـسناتِ سـبيلُ؟

---

[١] ظافر بن القاسم بن منصور الجذامي أبو نصر الحداد، شاعر مشهور، من أهل الإسكندرية، كـان حـدادا. توفي بمصر سنة (٥٢٩هـ). انظر: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ١٧/٢، معجم الأدباء ١٤٦٢/٤، وفيات الأعيان ٥٤٠/٢، النجوم الزاهرة ٣٧٦/٥، الأعلام ٢٣٦/٣، معجم المؤلفين ٤٧/٥.

[٢] الظاهرية: قرية في مصر، من أحياء الإسكندرية. انظر: معجم البلدان، ج٤، ص ٥٧.

[٣] ديوان ظافر الحداد، أبو نصر ابن القاسم بن منصور الجذامي الأسكندري، (ت ٥٢٩هـ)، (تحقيق د. حسين نصار)، دار مصر للطباعة، القاهرة، ص ٢٥١.

وهـــل يتَلَقــاني نَــسيمكِ ســحرةً وقد صـافح الأزهـار وهـو عليـلُ؟
ويطْربنــي فــي جانِبيــكِ حمــائم لهـا بـين أوراق الغُـصون عويـلُ
وتُبهجني تلـك القُـصور التـي بهـا بيـاض يـرد الطـرفَ وهـو كليـلُ

فظافر الحداد يمزج في وصفه بين الطبيعتين: الحية، والصامته، بحيث يتمخّض عن هذا المزج جمال طبيعي وعمراني يظهر أثره واضحـا في القصور البيضاء وما يحيط بها من رياض موشّاة بالأزهار متعددة الأشكال والألوان.

وفي ثغر بلدته الإسكندرية يقول ظافر الحداد، قاصدا المعنى السابق نفسه[١]:

أأحبابنا، هـل لـي إلـى مـا عهـدتُم مِن العيشِ فيكُم مثلَ ما كُنْـتُ مطْمـع؟
وأُبـصِر ذاك الثغـر يـشْرقُ نُـوره وتبدو القـصور البـيض منـه وتَلْمـع
وهلْ لي إلـى الرمـل المنَـدى نباتُـه فأختـالُ فـي تلـك الريـاض وأَرتَـع

فهذه القصور البيض اللامعة، وتلك الرياض الجميلة التي أحسنت يد الإنسان تنسيقها، مظهران دالان على ما كانت تتمتع به تلك البقاع من حضارة.

ويتغزل أبو الفضل شاه بن إبراهيم الكاثي[٢] ببخارى[٣]، قائلاً[٤]:

رأيـتُ بخـارى كـالعروسِ جمالُهـا يـشَوقُ مـن يلْقـاه حـسنًـا ويونِـقْ

فهي مثل العروس جمالاً وتأنقـًا؛ منازلها جميلة، ورياضها أنيقة، يجد فيها المرء أسباب الراحة والاطمئنان، ويشعر ساكنها برضى النفس والأمان.

أما أبو الحسن ابن عبد ا بن حمدان التغلبي[٥]، فيبدو في حنينه إلى الشام مشتاقـًا إلى زمن اللذة والعبث،، وإلى جمال غروب شمسها، وقصورها التي يعكس الأصيل لونه على شُرفها فتظهر كأنها من الذهب، يقول[٦]:

عِـشْنا بِـهِ زمنًـا نَلَـذ بِـهِ فـي غَفْلَـةٍ مِـن حـادثِ النـوبِ
فـي فِتْيـةٍ فَطِنـوا لِـدهرِهِم فَتَنـاولوا اللـذاتِ عـن كَثَـبِ

---

[١] ديوان ظافر الحداد، ص ١٩٥- ١٩٦.
[٢] من شعراء الدمية، توفي في بخارى. انظر: دمية القصر ٦٥٩/١.
[٣] بخارى: بالضم، من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلّها، وهي مدينة قديمة كثيرة البـساتين واسـعة الفواكـه جيدتُها، وينسب إليها خلق كثير من أئمة المسلمين في فنون شتّى. انظر: معجم البلدان، ج١، ص ٣٥٣ – ٣٥٦.
[٤] الباخرزي، أبو الحسن علي بن الحسين، (ت ٤٦٧ ه)، دمية القصر وجريدة أهـل العـصر، ط٢، تحقيـق الدكتور سامي مكي العاني، مكتبة دار العروبة، الكويت، ١٩٨٥ م، ص ٧٠/٢.
[٥] ناصر الدولة، الحسن بن أبي الهيجاء بن عبدا بن حمدان التغلبي، من ملوك الدولة الحمدانية، كان صاحب الموصل ، وما يليها، وهو أخو سيف الدولة. توفي في قلعة أردمشت. انظر: وفيـات الأعيـان ١٤٠/١، شذرات الذهب ٢٧/٣.
[٦] ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن، (ت ٥٧١هـ)، تاريخ مدينة دمشق، (تحقيق محمد أحمـد دهمان)، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٤م، ١٧٤/٢.

كَـم روحـةٍ بِدِمـشقَ رحـتُ بِهـم والـشمس قَـد كـادتْ ولَـم تَغِـبِ
فَكأنمـا صـاغَ الأصـيلُ بِهـا لِقُصورها شُـرفًا مِـن الـذهبِ

فدمشق في ذلك الزمان كانت – وما زالت – مدينة عامرة، تكثر فيها وسائل اللذة، وتنتشر القصور في جنباتها، وتمتلئ حياة وحضارة.

ودمشق أيضا فيها مجالس خمر، ولما كان الذي يحدث في تلك المجالس يعد مظهرا حضاريا، فإن احتواء مدينة مثلها على هذه المجالس ملمح حضاري آخر ينضاف إلى ما كان منتشرا في تلك المدينة من ملامح حضارية كثيرة، ويتضح هذا الملمح في قول ابن الخياط[1]؛ إذ يحن إلى موطنه دمشقَ، وإلى نسيم غوطتيها، وما فيهما من رياض غنّاء، كما يحن إلى حياة اللهو ومجالس الأنس والبهجة؛ حيث كان يجتمع بصحبه من الفتيان ذوي العيش الرغَد، الذين يظهر عليهم أثر النّضارة والنعيم، فيقول[2] وهو متوجه إليها من خراسان [3]:

أَلا لَيـتَ شِـعري هـلْ أَبيـتَن لَيلَـةً يروحنـي بِـالْغُوطَتّين نَـسيم
وهلْ يجمعـن الكَـأْس شَـملي بِفِتْيـةٍ علـى العـيشِ مِـنهم نَـضرةٌ ونَعـيم

ففي دمشق مجالس خمر يرتادها فتية ذوو نعمة، أثرت فيهم حضارة عصرهم تأثيرا بينًا.

ولعلّ الأبيات التي أوردها العِماد في خريدته، تزيد ذلك تأكيدا؛ إذ يذكر البديع الدمشقي الشام، قائلاً[٤]:

لـي والغَـرام وديعـةٌ فـي وردِ خَـد الـشّامِ شـامه
والـدن ملْتَثَمـي إذا حـدرتْ يـد الـساقي لِثامـه
فـي روضـةٍ نَديـةٍ كمـآ ثِـراتِ أَبـي أُسـامه

ففي الشام مجالس خمر ورياض غنّاء، وهذان مظهران من مظاهر الحضارة في القرن الخامس الهجري.

---

(١) أحمد بن محمد بن علي بن يحيى التغلبي أبو عبد ا . شاعر دمشقي، من الكتّاب، كان من المجيدين. تـوفي سنة (٥١٧هـ). انظر: وفيات الأعيان ١٤٥/١، شذرات الذهب ٥٣/٤، الأعلام ١١١/١.

(٢) ديوان ابن الخياط، أبو عبدا أحمد بن محمد بن علي التغلبي الدمشقي، (ت ٥١٧هـ)،(تحقيق خليل مردم)، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٨م، ص١٥٣.

(٣) خُراسان: بلاد واسعة، تشتمل على أمهات من البلاد، ومنها: نيسابور، وهراة، ومرو، وبلخ، وطالقان، ونسا، وأبيورد، وسرخس، وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيجون. انظر: معجم البلـدان، ج٢، ص ٣٥٠-٣٥٤.

(٤) عماد الدين الكاتب، أبو عبدا محمد بن محمد الأصفهاني، (ت٥٩٧هـ)، خريدة القـصر وجريـدة أهـل العصر: قسم شعراء مصر، ج٢، (تحقيق: أحمد أمين، وشوقي ضيف، وإحسان عباس)، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥١م، ص١٠٥.

وقد تكون مجالس اللهو والمجون مؤشرا على الحضارة، من حيث إنها تعكس حالة من الترف الاجتماعي كان يعيشها مجتمع القرن الخامس الهجري، ومما يمثل ذلك قصيدة لأبي يعلى ابن الهبارية[١] على قافيتين ووزنين، يصف فيها أصفهان، فيقول[٢]:

هِي أَصفَهان وجنةُ الْـ ـفِردوسِ في حسنٍ وطيبِ للخليـ ـ ـ ـعِ الفاعـ ـ ـل

حـور[٣] وولْـدان ومـ ـا تَهـ ـواه مـ ـن عِلْـ ـقٍ[٤] غـريبِ كالغـ ـزال الخـ ـ ـاذِل

إنها جنّة الفردوس في حسنها وطيبها، يجد فيها أصحاب اللهو ما يطلبونه حاضرا سهل المنال؛ فهي حسنة طيبة، تكثر فيها النساء البيضاء ذوات الدلال والجمال، والغِلمان ذوو الحسن الأخّاذ، فضلاً عن مجالس مجونها. وما هذه المظاهر إلا دليل واضح وصريح على ما كانت تتمتّع به الحواضر العباسية في القرن الخامس من ترف حضاري.

ولما كانت أهواء الشعراء وأمزجتهم ليست على شاكلة واحدة، فقد اختلفت تبعـا لذلك أسباب جذب المدن لهم، فهذا ابن الهبارية يتلهف على بغداد، قائلاً[٥]:

لهفـ ـي علـ ـى بغـ ـداد دار الهـ ـوى فـ ـإنني مـ ـن حبهـ ـا مـ ـا أُفيـ ـقْ
وكـ ـل وجـ ـهٍ مثـ ـل شـ ـمسِ الـ ـضحى فـ ـوقَ قـ ـوامٍ مثـ ـل غـ ـصنٍ رشِـ ـيقْ
وكـ ـ ـ ـل ردفٍ وافـ ـ ـ ـرٍ وارمٍ يحملُـ ـه بـ ـالظلمِ خَـ ـصر دقيـ ـقْ
وكـ ـل لفـ ـظٍ طيـ ـبٍ ممتـ ـعٍ يسكِر مـ ـن قبـ ـل كـ ـؤوسِ الرحيـ ـقْ[٦]
مـ ـا شـ ـئتَ مـ ـن دل ومـ ـن منظـ ـرٍ زاهٍ ومـ ـن حـ ـسنٍ وطيـ ـبٍ وضـ ـيقْ

فبغداد دار الحضارة ومستقرها، وهي دار الهوى التي أحبها الشاعر، ووجد فيها ما تشتهي نفسه، وما ترتاح إليه عينه من مظاهر لا تتوافر إلا في بيئة حضارية.

---

[١] محمد بن محمد بن صالح العباسي الهاشمي نظام الدين أبو يعلى، ابن الهبارية: ولد في بغداد، وأقام مدة في أصبهان، وفيها ملكشاه ووزيره نظام الملك. قال ابن خلكان: كان شاعراً مجيداً حسن المقاصد، لكنه كان خبيث اللسان كثير الهجاء. توفي في كرمان سنة (٥٠٩ هـ). انظر: وفيات الأعيان ٤٥٣/٤، الـوافي بالوفيـات ١/ ٢٧٧، النجوم الزاهرة ٢١٠/٥، شذرات الذهب ١٠/٤، الأعلام ٢٣/٧، معجم المؤلفين ٨٢/١٠.

[٢] خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٢، ص ١٠٦.

[٣] الحور: جمع حوراء، وهي من النساء البيضاء، والشاعر بذلك لا يقصد حور عينيها. لسان العـرب، مـادة (حور).

[٤] العلق: النّفيس من كلّ شيء يتعلّق به القلب. لسان العرب، مادة (علق).

[٥] عماد الدين الكاتب، أبو عبدا محمد بن محمد الأصفهاني، (ت٥٩٧هـ)، خريدة القـصر وجريـدة أهـل العصر: قسم شعراء العراق، (تحقيق: محمد بهجة الأثري)، ج٢، مطبعة المجمع العلمـي العراقـي، بغـداد، ١٩٦٤م، ص ١٣٢.

[٦] الرحيق: الخمر، والخالص الصافي منها. لسان العرب، مادة (رحق).

ويبدو أن نهضة المدن العمرانية قد اقترنت أيضـا لدى أبي منصور خُسرو فيروز[١] بذكريات العشق والهوى؛ إذ يتذكّر أيامه في بغداد قائلاً[٢]:

يـ ـذَكرني بـ ـرد النـ ـسيم وطيبـ ـه ... منازلَ في بغـداد هِمـتُ بهـا وجـدا
منازلَ مـا إن زلْـتُ فيهـا منَعمـا ... أُجرر من سكْرِ التـصابي بهـا بـردا
سقى ا ُ أرضـا حلهـا وجـه شـادِنٍ ... كبدر الدجى بـ دلْتُ مـن قُربـهِ بعـدا

إنها بغداد، حاضرة الدولة العباسية، المدينة التي يجتمع فيها الكثير من مظاهر الحضارة، تلك المظاهر التي يتمثل جانب منها في اللهو والتمتع بأيام الصبا.

ويتشوق أبو فراس طراد بن علي السلِمي (البديع الدمشقي) إلى دمشق أيضا، فيقول[٣]:

يـا نَـسيما هـب مِـسكًا عِبِقًـا[٤] ... هـ ـذِهِ أَنْفـ ـاس ريـ ـا[٥] جِلقـ ـا[٦]

فالشاعر يذكر أن نسيما طيبا هب عليه، فعرف من رائحته الزكية أنه قادم من صوب دمشق؛ إذ إن هذا النسيم أنفاسها. وإن كان هذا البيت يدلّ على مدى اشتياق الشاعر إلى مدينته دمشق، فإنه يدلّ أيضا على أن دمشق كانت آنذاك مدينة يجد فيها المقيم وسائل الراحة والعيش الكريم، ما يؤكّد في جانب منه أنها امتلكت من وسائل الحضارة ما يمكّنها من ذلك.

ولم يقتصر تأثير الحضارة في المدن على ما سلف ذكره؛ إذ كانت بعض المدن مقصدا للعلماء والشعراء والكتّاب، وهذا مظهر حضاري لافت يحمل دلالات واضحة، ويتمثل ذلك في وصف أبي علي الحسن بن عبد ا المطوعي[٧] لـِ "مالين"[٨]، وهي مدينة تتبع "باخرز"[٩]، يقول[١٠]:

سقيـ ـا لمـ ـالين وأربابهـ ـا ... وقدمـ ـةِ الفـ ـضل لأصـ ـحابها
ظَرافَـ ـةُ الخلـ ـق غـ ـدتْ شـ ـيمةً ... أكثـ ـرهم دخـ ـلُ أبوابهـ ـا
مـ ـا مـ ـنهم إلا لـ ـه هِمـ ـةٌ ... تـ ـسمو إلـ ـى الـ ـشمس وحجابهـ ـا

---

(١) من شعراء الدمية، توفي في بخارى. انظر: دمية القصر ٦٥٩/١.
(٢) دمية القصر، ج١، ص٤٠٦.
(٣) فروخ، عمر، (١٩٧٨م)، دار العلم للملايين، بيروت، ج٣، ص١٠٥.
(٤) عبق: ذائع الرائحة. لسان العرب، مادة (عبق).
(٥) ريا: رائحة. لسان العرب، مادة (ريي).
(٦) المقصود دمشق.
(٧) أبو علي الحسن بن عبدا : من شعراء الدمية. انظر: دمية القصر ٤٢٩/٢.
(٨) مالين: قرية على شطّ جيجون، وقيل إنها كورة على فرسخين من هراة، وقيل أيضا إنها قريـة مـن قـرى باخَرز. انظر: شهاب الدين، أبو عبدا ياقوت بن عبدا الحموي الرومي البغـدادي، (ت٦٢٦هـ)، معجـم البلدان، ج٥، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ص٤٤.
(٩) باخَرز: بفتح الخاء وسكون الراء، وزاي، كورة ذات قرى كبيرة، وأصلها بادهرزة، تشتمل على مائة وثمان وستين قرية، قطبتها مالين، خرج منها جماعة كثيرة من أهل الأدب والفقه والعلم، وهي بين نيسابور وهـراة. انظر: معجم البلدان، ج١، ص٣١٦.
(١٠) دمية القصر، ص ٤٣٠.

كفـــى لبـــاخرز ومـــن حولــــه فخـــــرا بمـــــالين وكتّابهـــــا
إن غُـــصتُ فـــي أبحـــر آدابهـــم وجـــدتُ أصداقًـــا لطلابهـــا

لقد عمرت هذه المدينة بالعلم والأدب؛ فغدت مفخرة تنافس المدن، وصارت مركزا يشع حضارة.

ولما كان الأمن ضرورة لتشكّل المدن وازدهارها، ودليلاً صريحا على اتجاه الحراك الاجتماعي، فقد عمد إليه شعراء القرن الخامس الهجري في سياق المدح، واصفين أثره في انتشار مظاهر الحضارة الطبيعية والعمرانية والاجتماعية آنذاك. ومن ذلك قول الحسن بن المظفر النيسابوري[1] يمدح الصاحب نظام الملك وهو بخوارزم[2]:

الآن صـــح مـــن الزمـــان ضـــمان وأتـــى مـــن القَـــدر المخـــوفِ أمـــان
قـــالوا: خـــوارزم انطـــوى إقبالُهـــا وأصـــابها الإدبـــار والخِـــذلان
كـــذبوا وحـــق الله فهـــي بدولـــةِ الـــملِكِ المظفـــر للـــسعودِ قـــران
خَفَـــقَ اللـــواء بهـــا النظـــامي الـــذي منـــه لأحـــشاءِ العِـــدا خَفَقَـــان
فتأرجتْ ريـــح الـــسعادةِ سجـــسجـــا[3] وأقـــام فيهـــا الـــروح والريحـــان

فما إن أمنت هذه المدينة في عهد الملك المظفّر، حتى أصبحت مأهولة، ودبت فيها الحياة؛ فسعدت وسعد من فيها.

أما دمشق، فهي في عهد رئيسها وجيه الدولة أبي الذواد الصوفي، مدينة آمنة عزيزة كثيرة النعم، يقول ابن الخياط مادحـا[4]:

أما دِمـــشْقُ فقـــد حـــوتْ بـــك عِـــزةً كرمـــتْ بهـــا عـــن أن تكُـــون الأبلَقـــا
حـــصنْتَها بِـــسدادِ رأيـــك ضاربـــا ســـورا عليهـــا مِـــن عـــلاك وخَنْـــدقا
وحميـــتَ حوزتَهـــا بِهمـــةِ أوحـــدٍ مـــا زالَ ميمـــون الفِعـــال موفقـــا
أمطَرتَها مِـــن فَـــيضِ عـــدلِك أَنْعمـــا لا تُعـــدِم الـــرواد روضـــا مونِقـــا

حقـا إن العدل أساس الملك، وهو – من غير شك - شرط رئيس ومقوم لا غنى عنه في قيام الحضارة وازدهارها؛ إذ يشيع في ظلّه الأمن، وتستقر البلاد، ويأمن العباد.

---

[1] أبو علي: أديب، ناثر، شاعر. توفي سنة (٤٤٢ هـ). انظـر: معجـم الأدبـاء ٩/ ١٩١ – ١٩٧، الـوافي بالوفيات ١١/ ٣٨، بغية الوعاة ٢٣٠، كشف الظنون ١٠٨، معجم المؤلفين ٢٩٦/٣.
[2] دمية القصر، ج٢، ص٣٠٠. وخوارزم: اسم للناحية بجملتها، وهي كثيرة السعة، ينسب إليها مـن الأعـلام والعلماء خلق كثير. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص ٣٩٥-٣٩٨.
[3] السجسج: هواء معتدل بين الحر والبرد. لسان العرب، مادة (سجسج).
[4] ديوان ابن الخياط، ص ٢٥٩.

هذه حال بعض مدن الدولة العباسية في القرن الخامس الهجري، عامرة وجميلة، تدب فيها الحياة، وتنتشر في جنباتها مظاهر الحضارة. إنها مدن تشع بالعلم، ويسطع في جنباتها نور المعرفة، إذا نظرت إليها وجدتها صاخبة، يقصدها العلماء والكتّاب من كلّ صوب، أحسن منظموها تخطيطها فغدا عمرانها منظما، تحيط بها الرياض الجميلة والحدائق الغنّاء الموشاة بالإزهار، فهي مدن تتّسم بالترف الاجتماعي، والرقي البيئي.

ب- القصور والدور

يعد القرن الخامس الهجري، بما حوى من مظاهر حضارية مادية وغير مادية امتدادا للقرن الرابع الهجري. ومن هنا، فإن ما يعبر عن حضارة القرن السابق يصلح للتعبير عن حضارة القرن اللاحق. وقد عدت العمارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري من أهم المظاهر الحضارية، ولما كانت كذلك في الحضارات جميعها عامة، فإنها تُعد أيضـا مظهرا حضاريـا مهمـا في القرن الخامس الهجري؛ إذ حرص الخلفاء والأمراء والوزراء وأصحاب الجاه والثراء آنذاك على بناء القصور والدور كما حرص سابقوهم، وبالغوا في تزويقها وتجميلها إلى حد بعيد، فضلاً عن اعتنائهم بما يحيط بتلك القصور والدور من مظاهر عمرانية متمثلة في البرك ونحوها. وقد ساعد على ذلك ما في خزائن الدولة من مال وفير، هيأ لأولي الأمر أسباب الانجراف وراء حياة الترف والبذخ، كما ساعد عليه شغف هؤلاء بفن العمارة، حتى وصل الأمر بهم إلى حد المبالغة، التي يصعب على المرء تخيلها.

ولما كان بناء القصور والدور ملمحـا عمرانيا ملحوظـًا في القرن الخامس الهجري، وسمة عامة غالبة على هذا العصر، فإن كثيرا من الشعراء قد برعوا في وصف تلك القصور والدور، ووصف ساحاتها وعرصاتها، وما يحيط بها من رياض وبساتين. وبذا، فإنه يمكن دراسة الجانب المادي في حضارة القرن الخامس الهجري من خلال الشعر، الذي ظهرت فيه مظاهر الحياة الجديدة بأجلى صورها. فضلاً عن أن هناك جانبـا مهمـا آخر يتكشف إبان الحديث عن القصور والدور ووصف الشعراء لها، وهو حياة الفئة المترفة في مجتمع القرن الخامس الهجري بوجوهها المختلفة؛ بأمجادها ومآثرها، بسلوكها ونزعاتها، ببذخها ومجونها. وبذا، فإن الحديث لا يقتصر على مظاهر الحضارة العمرانية حسب، بل يتجاوزها إلى عرض صورة جلية عن الحياة الاجتماعية آنذاك.

وقد كانت القصور جميلة من الناحيتين: الخارجية والداخلية؛ بحيث شد هذا الجمال الشعراء إلى الحديث عن هذه القصور، فاستطاعوا بشعرهم أن يبعثوا ما فيها من حضارة. وبذا، فقد أحيا شعر القرن الخامس الهجري معالم الحضارة العمرانية، فزادها رسوخاً.

ومن ذلك الشعر، قصيدة للشريف العقيلي[1] يصف فيها دارا، علّقت على أحد جدرانها أو نوافذها ستارة ذات منظر جميل، صورت عليها الحيوانات، يقول[2]:

وسِتْرٍ لـه منْظَـر مونِـقٌ ... وجـوه تـصاويره تُـشْرِقُ
تلـوح الجِيـاد بميدانِـهِ ... وتبـدو بمبركِـهِ الأَينُـقُ
فهـذا ربـاع وذا شـارِقٌ ... وهـذا أغَـر وذا أبلَـقُ

وفي هذا دلالة على أن المسلمين لم يعودوا يتحرجون من وضع التصاوير في بيوتهم، وهذا من أثر الحضارة الفارسية.

أما أبو المواهب عبد المحسن بن صدقة المعري، فوصف دار القاضي أبي علي عمار بن محمد بطرابلس، في سياق مدحه له وتهنئته بعيد الفطر، قائلاً[3]:

وهنيـتَ دارا وطـد الـسعد أُسـها ... فـصار إلـى الـنّجمِ البنـاء الموثـقُ
تقابلَ فيها الحـسن مِـن كُـل وجهـةٍ ... فأقطارها مِـن نُـورِ وجهـك تُـشْرِقُ
متَممـةُ الطـول الـذي لـيس يرتَقـى ... مجـددةُ الـسعدِ الـذي لـيس يخْلُـقُ
سمتْ بِك عن إيـوان كِـسرى جلالـةً ... فليس يـدانيها علـى الأرض جوسـقُ

فهي دار تعمها السعادة، حسنة المنظر، مرتفعة البناء، حتى إنها تسمو بالممدوح عن إيوان كسرى جلالة ومهابة.

ووصف الشريف أبو جعفر محمـد بن هبـة ا العـلوي[4] الدار نفسها، ذاكرا رواقها

---

[1] علي بن الحسين بن حيدرة بن محمد بن عبد ا بن محمد العقيلي. ينتهي نسبه إلى علي بن أبـي طالـب، وقيل إنه ينسب إلى عقيل بن أبي طالب. شاعر هاشمي زار القاهرة أيام الفاطميين، وأقام في جزيرة الفـسطاط، وكان له فيها متنزهات. توفي سنة (٤٥٠هـ). انظر: يتيمة الدهر ٤٣١/١- ٤٣٣، خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ٦٢/٢، الوافي بالوفيات ٤٨/١، الأعلام ٨٩/٥-٩٠.

[2] ديوان العقيلي، علي بن الحسين بن حيدرة، (ت ٤٥٠هـ)، (تحقيق د. زكي المحاسـني)، ٢ج، دار إحيـاء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، (د. ت)، ج٢، ص ٢٢٦- ٢٢٧.

[3] الأصفهاني، عماد الدين الكاتب، (ت ٥١٩ه)، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شـعراء الـشام، ج٢، (تحقيق الدكتور شكري فيصل)، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٩م، ص ١١٤.

[4] محمد بن محمد بن هبة ا العلوي الحسيني، أبو جعفر: شاعر، من أهل طرابلس الشام. زار دمشق (سـنة ٤٩٢هـ)، وكان بمصر في عهد الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي. توفي سنة (٥١٥ هـ) انظر: الأعلام ٢٣/٧، معجم المؤلفين ٣٠٧/١١.

ورياضها وأرجاءها، يقول[١]:

ويــوم ابتــدرنا الإذن نُرعــد هيبــةً وقد غَصّ بالرفدِ الـرواقُ[٢] المحجـب
وصـلنا وسـلمنا علـى البـدر جـاده سماء لهـا مـن ذائـبِ التبـرِ هيـدب
وقـد نَمــنَم الكــف الــصنَاع بِأُفقهــا رياضــا كــأن الجــو مــنهن معــشِب
ومــصقولةُ الأرجــاءِ ملثومــةُ الثــرى إلى جنــةِ الفــردوسِ تُعــزى وتُنْــسب
تخــالُ بــأُولى نظــرةٍ أن درهــا ينَثــر أو عِقْيانَهــا يتَــصوب

فهي دار يهاب داخلها لعظمتها، تجد رواقها مزدحمـا بقاصدي صاحبها ذي الصفات الحميدة والخصال المجيدة، الذي بنى هذه الدار فأحسن في ذلك وأجاد، حتى إنك تجد نفسك مشدودا إليها، مبهورا بصنعتها؛ سقفها المذهب، ورياضها المونقة، وأرجائها المصقولة. وقد أحسن الشاعر في أبياته تلك إذ مزج بين المدح والوصف مزجـا جميلاً ينم على صدق وحسن ذوق، ويشي بأثر حضارة القرن الخامس في الشعر والشعراء.

وامتدح أبو العباس محمد بن إبراهيم الكاتب[٣] دارا بناها الشيخ أبو القاسم بن كثير ببلخ[٤]، ذاكرا أنها واسعة الأرجاء والنواحي، مقدمة على كرخ[٥] العراق، ودونها شرفـا ومقامـا صرح هامان وقصر غمدان؛ إذ يقول[٦]:

أهــلاً بــدارٍ أبــان بانيهــا دلائــلَ المجــدِ فــي مغانيهــا
دار حكــتْ صــدر ربهــا ســعةً تــسافر العــين فــي نواحيهــا
فأصــبحتْ خُطبــةً مــصنّفةً تَــزين ألفاظُهــا معانيهــا
فيحــاء ذاتُ العمــادِ ضــرتُها حــسناء كــرخُ العــراق ثانيهــا
قــصرح هامــان لا يعارضــها وقــصر غمــدان لا يــساويها

[١] خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص ١١٤.
[٢] الرواق: ستر يمد دون السقف ومقدم البيت. لسان العرب، مادة (روق).
[٣] من أدباء خراسان، شاعر بارع، ومترسل رائع. انظر: دمية القصر ٢٠٥/١.
[٤] بلخ: مدينة مشهورة بخراسان، ينسب إليها خلق كثير. انظر: معجم البلدان، ج١، ص ٥٧٩-٤٨٠.
[٥] الكرخ: بالفتح ثم السكون، وخاء معجمة، موضع بالعراق، وهي الآن ببغداد. انظر: معجم البلدان، ج٤، ص ٤٤٧.
[٦] دمية القصر، ج٢، ص ٣٩٦- ٣٩٧.

ومما يدلّ على ترف أصحاب القصور والدور، أنهم كانوا يفرشونها بحصر جيدة الصنع ثمينة، وفي هذا يقول عبد المحسن الصوري[١] على لسان الحصر، وهو مما كُتب على حصر سامان، التي فرش بها القصر المعمور بالحضرة الطاهرة[٢]:

كنتُ فيما مضى مباحـًا فأصبحـ ـتُ حِمى في جنابِ هذا الإمامِ
تتوطّاني الخُدود وبسطُ النْـ ـنَاسِ حولي مواطئُ الأقدامِ
خَرِستْ ألْسن الوفودِ عن القَو ل وخَرتْ جباهُهم للسلامِ
فاعجبوا إن رأيتُم عِزةَ المُلْـ ـكِ بمصر على بناتِ الشّآمِ

ويظهر أن تلك الحصر كانت تصنع في الشام، وأنّها كانت تقتصر على القصور المعمورة لجودتها.

أما العقيلي، فقد افتخر بداره التي فرشها بسطـًا زاهية كأنها منسوجة من ريش الطاووس، وهو سعيد بها إلى حد يجعله يشعر أنه جالس في عرش بلقيس، يقول[٣]:

أحسِن بداري إذا لاحتْ مجالِسها وقد خَلَعتُ عليها خير ملبوسِ
من كل طِنْفِسةٍ[٤] زهراء مشْرِقةٍ كأنها نُسِجتْ من ريشِ طاووسِ
إذا جلستُ عليها ظَلْتُ مبتهجًا كأنني جالس في عرشِ بلقيسِ

ويقول في وصف ستر دار حلّي بصنوف التصاوير المونقة، ذوات الألوان الجميلة والأصباغ المشرقة، فظهر كأنه روضة تساقطت الأمطار على أزهارها، أو جوهر تتلألأ الزرقة في لونه الأحمر[٥]:

وسِتْرٍ لصاحبِهِ نِيقةٌ فَسلمه ا ُ، ما أحذَقه
إذا ما تَبدى تَحيرتَ من صنوفِ تصاويرِهِ المونِقَه
ترى ذا على رأسِه خُوذَةً وهذا على خَصره مِنْطَقَه
وفَرشُ مراتب ذا مذْهب وفِضةُ آلاتِ ذا محرقَه
وهاتيك في يدِها خاتِم وهاتيك في جيدِها مِخْنَقَه[٦]

---

[١] عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب الصوري أبو محمد ابن غلبون. شاعر مشهور، حسن المعاني، وأحد المحسنين الفضلاء والمجيدين الأدباء. من أهل صور، في بلاد الشام. مولده ووفاته فيها. توفي سنة (٤١٩هـ). انظر: يتيمة الدهر ٢٧٧/١، وفيات الأعيان ٢٣٢/٣، الوافي بالوفيات ٥٩/١٧، النجوم الزاهرة ٢٦٩/٤، شذرات الذهب ٢١١/٣، معجم المؤلفين ١٧٣/٦.

[٢] ديوان الصوري، عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري، (ت ٤١٩هـ)، ٢ج، (تحقيق مكي السيد جاسم، وشاكر هادي شكر)، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٠م.ج٢، ص ١٣~١٤.

[٣] ديوان العقيلي، ج٢، ص ١٨٥.

[٤] طِنْفِسة: بساط. لسان العرب، مادة (طنفس).

[٥] ديوان العقيلي، ج٢، ص ٢٢٦.

[٦] المخنقة: القلادة. لسان العرب، مادة (خنق).

نُـ ـ ـشَبه مِنْـ ـ ـسوجه كُلّهـ ـ ـا تباهـ ـ ـتْ بأصـ ـباغِهِ المـ ـشْرِقه
بِـ ـ ـروضٍ جلّتْـ ـ ـه بأزهـ ـ ـاره شـ ـ ـآبيب مرعِـ ـ ـدةٍ مبرقَـ ـ ـه
وإلاّ قَبـ ـ ـ ـالجوهرِ المنْتَقَـ ـ ـ ـى إذا شـ ـ ـاب أحمـ ـ ـره أزرقَـ ـ ـه

وبذا، يلاحظ أن الناس في هذا العصر قد تجاوزوا المحظور؛ فلم يتحرجوا من أن يصفوا في قصائدهم ستورا حلّوا بها صدور منازلهم، زينت بالتصاوير والتزاويق، وقد كان الرسم والتجسيم في ما مضى ممنوعين في القصيدة الإسلامية.

وفي وصف سراج دار، يقول العقيلي(١):

كأنمـ ـ ـا سـ ـ ـرج قناديلهـ ـ ـا مـ ـن بهـ ـجٍ منهـ ـا ومـ ـن أزهـ ـر
نَيلـ ـوفَر مـ ـن ذَهـ ـبٍ أَصـ ـفرٍ فـ ـي بِـ ـركٍ مـ ـن ذَهـ ـبٍ أحمـ ـر
يعثُـ ـر منهـ ـا الطـ ـرفُ فـ ـي مـ ـشْيِهِ بِجـ ـوهرٍ ركـ ـب فـ ـي جـ ـوهر
كأنهـ ـا إذا لَمعـ ـتْ فـ ـي الـ ـدجى تريـ ـك كـ ـافورا علـ ـى عنْبـ ـر

فكأنما سرج قناديل هذه الدار زهر النيلوفر المصفر والمحمر، وكأن النار جوهر ركّب في قنديل من جوهر، إذا لمعت في الظلام رأيت كافورا معنبرا. إنها تشبيهات رائعة أحسن العقيلي نسجها، وأجاد نظمها إجادة بثّ من خلالها الحياة في تلك الدار. فضلاً عن أنها تشبيهات تعكس أثر الحضارة على نحو واضح، بما وظف فيها من ألوان، وبما حوت من مفردات ذات رقة وجمال، استُمدت من معجم شعري يظهر فيه البعد الحضاري جليا.

وإن كانت القصور والدور في القرن الخامس تتصف بجمال عمارتها الداخلية وإتقانها، فإن هذا الجمال وذاك الإتقان المادي الصامت لا يكتمل إلا بجمال آخر حي، يتمثل في البيئة المناسبة التي تتلاءم مع ذوق المجتمع الحضاري. لذا، حرص هؤلاء على بناء قصورهم ودورهم في أماكن مرتفعة طيبة الهواء، وأراضٍ خصبة ذات أشجار وأزهار جميلة. ومن ذلك وصف ابن أبي حصينة(٢) قصر ممدوحه وصفـًا لعلّه يقصد منه إرضاء ذاك الممدوح؛ إذ يصور الماء يجري من صخره، ويصور ثراه مسكـًا، وحصاه لؤلؤًا، وجدائله ياقوتـًا، يقول(٣):

ولا عجبـ ـا أن يصبح المـ ـاء جاريـ ـا مِن الصخْر في القَصر الذي هو نازلُـ ـه

(١) ديوان العقيلي، ج١، ص ١٥٥.

(٢) الحسن بن عبد ا بن أحمد بن عبد الجبار بن أبي حصينة أبو الفتح الشامي. شاعر من الأمراء، ولد ونـشأ في معرة النّعمان. توفي سنة (٤٥٧هـ). انظر: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ١٠٧/٢، معجـم الأدبـاء ١٧٧/٦، الأعلام ١٩٦/٢.

(٣) ديوان ابن أبي حصينة، أبو الفتح الحسن بن عبدا السلمي المعري، (ت ٤٥٦هـ)، ٢ج، (تحقيـق محمـد أسعد طلس)، المجمع العلمي العربي، دمشق، (د. ت). ج١، ص ٢٨٣.

وأن يغْتَـدي مِـسكـًا ثـراه، ولُؤلـؤًا حـصاه، وياقوتـ ـًا ثمينـ ـًا جدائِلُـه
زها بِك زهـو الـروضِ درتْ غُيوثُـه فَحيــتْ بِوســمِي النبــاتِ خَمائِلُــه
كأنــك رضــوان وقَــصرك جنــةٌ يفــوز برضــوانٍ مِــن ا ِ داخلُــه

فهذا القصر يزهو بممدوحه مثلما يزهو الروض بأزهاره بعد انحباس المطر، وهو جنة خازنها (رضوان)، الذي هو ممدوحه.

ووصف أبو المظفر الأبيوردي[١] كذلك منزلاً تدب فيه الحياة، ذا روض زاهٍ، يكسوه الربيع رداء من الزهر نسجته الأمطار، ولعله كنّى بهذا الوصف وتلك الحياة التي تسري في عروق تلك الدار، عن أيام شبابه النضر؛ إذ كان ممتلئـًا حياة ونشاطـًا، وكان عاشقـًا ولهـا ينعم بالعيش الرغد والحياة الهنيئة، يقول[٢]:

هــذِهِ دارهــا علــى الخلــصاءِ أضــحك المــزن روضــها بالبكــاءِ
فَــسل الركْــب أن يميلــوا إليهــا بِــصدور الركائــبِ الأنْــضاءِ
إنهــا منْــزِلٌ بِــهِ الــتَقَم الأجــرع فــي ميعــةِ[٣] الــشبابِ ردائــي

ومن مظاهر الحضارة آنذاك أن تبنى القصور على ضفاف الأنهر، أو أن يؤتى إليها بالماء من هذه الأنهر في قنوات وجداول. ولما كان هذا مظهرا حضاريـا دالاً على المكانة والجاه والترف، فقد توصل الشعراء إلى مدح أصحاب تلك القصور التي يتوافر فيها هذا المظهر الحضاري، ومن هؤلاء ابن أبي حصينة، الذي مدح معز الدولة أبا علوان ثمال بن صالح بن مرداس[٤]، ذاكرا حلب التي حلّ فيها؛ إذ يقول[٥]:

ســقى الطلــين بــين المنْحــرين هــروي الــوابلين المــسبلين

---

[١] أبو المظفر محمد بن أبي العباس، أحمد بن إسحق. ولد في كوفن، وكان إماماً في اللغـة والنحـو والنـسب والأخبار، ويده باسطة في البلاغة والإنشاء. دخل بغداد، وترحل في بلاد خراسان ومدح الملوك والخلفاء. توفي مسموماً بأصفهان سنة (٥٠٧ هـ). انظر: وفيات الأعيان ٤/٤٤٤، معجم الأدباء ٥/٣٦٠، الأعلام ٥/٣١٦.
[٢] ديوان الأبيوردي، أبو المظفّر محمد بن أحمد بن إسحق، (ت ٥٠٧هـ)، (تحقيق د. عمـر الأسـعد)، ٢ج، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م. ص ٢١٦- ٢١٧.
[٣] ميعة الشباب: أوله. لسان العرب، مادة (ميع).
[٤] ثمال بن صالح بن مرداس الكلابي، من ملوك الدولة المرداسية بحلب. كان كريما حليما شجاعا. ولي الملك سنة ٤٣٤ هـ، وتوفي في حلب سنة (٤٥٤ هـ). انظر: الأعلام ٢/١٠٠.
[٥] ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص ٢١٧.

فَمنْقـاد البليخ[١] فَحيثُ حفـتْ جداولُـه قُصور الرقتين

فجداول هذا النهر العظيم تجري بين القصور، فتدب فيها الحياة وينتشر الجمال، وتغنى البيئة المحيطة بها بمظاهر حضارية طبيعية خلابة.

ووصف الأرجاني[٢] بيت محبوبه الذي هو كعبة القُصاد والزوار، وهو بيت في صحنه روضة غنّاء يحلو فيها السمر، وتُسر فيها العين بما ترى، والأذن بما تسمع، وهذا مظهر من مظاهر الحضارة واضح، يقول[٣]:

يا راحلاً بالسعدِ عن مقلتي ونازلاً ما بين أفكاري
إن يخْلُ طرفي منك في حالةٍ فليس يخلو منك إضماري
أحللتني في منزلٍ آنسٍ مألفِ قُصادٍ وزوار
وروضةٍ غنّاء، في صحنِها نُزهةُ أسماعٍ وأبصار
فإنما بعدك لا غيره هو الذي يشْغَلُ أسراري
فنحن من دارك في جنةٍ نَعم، ومِن بعدِك في نار
فهلْ سمعتُم بفتًى نازلٍ بالنار والجنةِ في دار؟

فهو يقرن وصف الدار الجميلة بوصف محبوبه، وإن كانت تلك الدار جنّة فإن سعادته بها وهناءه فيها لا يكتملان إلا بوجود محبوبه، الذي رحل عنه مبتعدا.

ويذكر الأبيوردي لقاءه من يحب في منزلٍ تفوح من ثرى روضه رائحة طيبة زكية، فكأن هذا الروض سقي بالمسك؛ إذ يقول[٤]:

بِمنْزلٍ خالَطَ المِسك البليلُ بهِ ثرى يَنُم بِريا روضِهِ الخَضِلِ

وللأرجاني في دار لعلّها دار قيان[٥]:

قِفا معي في هذهِ المعاهِدِ لا بد للصب من المساعِدِ
في منزلٍ عهدتُ في عِراصِهِ أنْ لو رد معهودا بكاء عاهِدِ
كواعِبا من الدمى لواعِبا مشْبِهةَ الثغور للقلائِدِ
يمِسن من فَرطِ النعيم والصبا كالقُضبِ الموائِل الموائِدِ

---

(١) البليخ: من أنهار حلب العظمى.
(٢) ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرجاني القاضي. ولد في أرجان، وطلب العلم بأصبهان، وبكرمان، وقد تولّى منصب نائب قاضي قضاة خوزستان، ثم ولي القضاء بأرجان، وله شعر رائق حسن. توفي سنة (٥٤٤هـ). انظر: وفيات الأعيان ١٥١/١، الوافي بالوفيات ١٨١/٧، شذرات الذهب ١٣٧/٤، الأعلام ٢١٥/١، معجم المؤلفين ٩٤/٢.
(٣) ديوان الأرجاني، ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين، (ت ٥٤٤هـ)، (تحقيق د. محمد قاسم مصطفى)، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧٩م، ج٢، ص ٧٠٤.
(٤) ديوان الأبيوردي، ج٢، ص ١٩٠.
(٥) ديوان الأرجاني، ج٢، ص ٤٢٩.

فـيهن ظَبـي علِـقَ القلـب بـهِ   مِـن الظبـاءِ النفـر الـشّوارِدِ

ففي هذه الدار نساء كواعب لواعب ذوات حسن وجمال وخفّة ودلال، وهن – فضلاً عن ذلك- يتمايلن من أثر الصبا، ويرفلن بثياب النعيم، التي وفرتها لهن حضارة مجتمعهن.

ويدعو أبو الفضل يوسف بن محمد بن أحمد الجلودي الرازي[١] لقصر له بالسقيا؛ إذ شهد هذا القصر أيام لهوٍ عاشها الشاعر، يقول[٢]:

سقى الله قصرا لـي بِقَـصران موثقـا   سحبتُ به في اللهو أعطـافَ مِئـزري
كـأن سـقيطَ الـثلج فـي جنباتِـهِ   صـفائح كـافورٍ علـى طـودِ عنْبـر

وقد يصف الشاعر الدار متخذًا من أقسامها وأرجائها وسيلة يتوصل بها إلى ذكر صفات ممدوحه المعنوية، ومن ذلك ما كتبه ظافر الحداد إلى القائد أبي عبد الله ابن الأمير أبي شـجاع فاتك عند إنشاء داره، واصفـًا (البناء المعنوي) لهذه الدار، الذي يتمثل في الهمم الشريفة العالية التي يتمتع بها أبو شجاع؛ فهـو في الفضـل ذو قدر كبير، حتى إن الشاعر استعار كلمـات: شادن، ورواق، وأساس؛ للدلالة على شرف الممدوح وفضله وجوده وكرمه، يقول[٣]:

يـا دار مـاذا فيـكِ مـن ملَـجٍ   دلـتْ علـى شَـرفٍ مِـن الهمـمِ
لكـن لِمـن تَنْميـك هِمتُـه   فـي الفـضل قـدر جـل عـن إرمِ
كـم شـاد فـي العليـاءِ مـن شـرفٍ   يـزداد تجديـدا علـى القِـدمِ
فَرواقُـه بالحمـدِ مرتَفِـع   وأساسـه بـالجودِ والكـرمِ

أما عبد المحسن الصوري[٤]، فوصف دارا ذات فناء رحب، في جانبها قبة، بناها صاحبها قاصدا إطعام الضيف، وإيواء الغريب، فهي دار الكرم والجود، يقول[٥]:

يـا جـار إن الركـب قـد حـاروا   فاذهـب تَحـسس لِمـن النـار
تبـدو وتخبـو إن خبـتْ عرسـوا   وإن أضـاءت لهـم سـاروا
قـام عليهـا موقِـد مرشِـد   لـه بفـضل الـزادِ إيثـار

---

(١) قال عنه الثعالبي: "بحر العلم، وروضة الأدب، واطيمة الشعر، وظرف الظرف". انظر:تتمة اليتيمة ٤٧٤/٤.
(٢) دمية القصر، ج١، ص ٣٥٨.
(٣) ديوان ظافر الحداد، ص ٢٩٢-٢٩٣.
(٤) عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب الصوري أبو محمد ابن غلبون. شاعر مشهور، حـسن المعـاني، وأحد المحسنين الفضلاء والمجيدين الأدباء. من أهل صور، في بلاد الشام. مولده ووفاته فيهـا. تـوفي سـنة (٤١٩هـ). انظر: يتيمة الدهر ٢٧٧/١، وفيات الأعيان ٢٣٢/٣، الوافي بالوفيات ٥٩/١٧، النجـوم الزاهـرة ٢٦٩/٤، شذرات الذهب ٢١١/٣، معجم المؤلفين ١٧٣/٦.
(٥) ديوان الصوري، عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبـون الـصوري، (ت ٤١٩هـ)، ٢ج، (تحقيق مكي السيد جاسم، وشاكر هادي شكر)، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، العـراق، ١٩٨٠م.، ج١، ص١٧٥.

رحـــب فنـــاءِ البيـــتِ ينتابـــه ... فـــي الليـــل حـــراس وســـمار
فـــي جانـــبٍ مـــن بيتـــهِ قبـــةٌ ... تَحفهـــا حجـــب وأســـتار

ولم يقتصر العمران في القرن الخامس الهجري على عِمارة القصور والدور، إنما طالت مظاهره الحضارية المدارس أيضـًا، فهذا محمد بن أحمد بن الحسين الشطرنجي يقول في المدرسة النظامية، وما ظفرت به من شرف وعلو قدر، وذلك في سياق مخاطبته نظام الملك[١]:

أمـــا عـــلاك فـــدونَها الجـــوزاء ... قـــدرا فمـــاذا يـــنظم الـــشعراء
يرتَـــد عنهـــا الفِكْـــر وهـــو مهنـــد ... ويـــضيقُ فيهـــا القَـــولُ وهـــو فـــضاء
شَرفٌ أنـافَ علـى الـسماكِ وهِمـةٌ ... ضـاقت بمـسرحِ عزمِهـا الـدهناء
وفـضائلٌ جـاءتْ أخيـر زمانِهـا ... فَحثَـتْ علـى مـا سـطر القُـدماء

وبذا، فقد كثرت في القرن الخامس الهجري القصور والدور، وانتشرت على مِساحات واسعة، وكان لها كبير الأثر في شعراء ذلك القرن؛ إذ بهرتهم بجمالها وروعتها وأناقتها وفخامتها؛ فراحوا يصفونها وصفـًا يفوق جمالها المادي، محيين بهذا الوصف الفن والحياتين العمرانية والاجتماعية بصورها جميعـًا، بحيث رسخت تلكما الحياتان في الأذهان حتى بعد زوال مظاهرها. لذا، كان لهذا الشعر الفضلُ الرائد في المحافظة على مآثر الحضارة العمرانية التي امحى الكثير من معالمها، وزال العديد من مظاهرها.

ج- القِبـــاب

تُعد القباب نمطـًا معماريـًا آخر شاع انتشاره في القرن الخامس الهجري، لا سيما عند علية القوم. والقباب جمع قبة، وهي من البناء معروفة، وقيل هي من الأدم خاصة، والقبة من الخيام: بيت صغير مستدير[٢]. وقد تتخذ القبة أيضـًا من الحجر، أو من الخشب. ويختلف بناؤها باختلاف الغرض منها، غير أن الزينة غرضها الرئيس، وهي ذات شكل مقبب دائمـًا.

وقد غدت القباب مظهرا معماريـًا بارزا في الحضارة الإسلامية، حتى إنه لا يكاد يخلو قصر أو مسجد منها، وما انتشارها في القرن الخامس الهجري إلا دليل على ما وصلت إليه حضارة ذلك القرن من رقي وسمو. غير أننا على الرغم من هذا لا نجد إشارات كثيرة في شعر هذا القرن تصف هذه القباب، وقد يعود ذلك – حسب رأي الباحث - إلى انشغال الشعراء حينذاك في وصف مظاهر عمرانية يعدونها أكثر أهمية، وأقرب إلى حياة الترف واللهو والتمتع

---

[١] دمية القصر، ج١، ص ١٦٨- ١٦٩.
[٢] انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (قبب).

بمباهج الحضارة، من مثل: القصور، وما كان ينتشر فيها من مجالس غناء وخمر، أو لعله بسبب ضياع كم كبير من تراث أمتنا الأدبي.

ومن الشعراء الذين استوقفهم هذا النمط المعماري، ابن أبي حصينة؛ إذ وصف قبة اتخذها معز الدولة أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس في مجلسه، قائلاً[١]:

تُبصر في الدستِ منك شمس ضحى   يحجِبها نُورها عن البصر
اشرب هنيئاً في قُبةٍ عَنِيتْ   بِربها عن ملاحةِ الصور
قد نُثِر الورد في جوانِبها   كأنه حلةٌ من الحِبر
كأن شَمس النهار طالِعةً   تُنير شمس الضحى على القَمر

فهي مثل شمس الضحى يحجبها نورها عن النظر إليها، وهي - فضلاً عن ذلك - حسنة تفوق الصور الجميلة ملاحة، قد نُثر الورد في جوانبها؛ فظهر مثل ثوب الحرير الناعم الموشى.

وقال يمدحه في يوم طهور ولد أخيه، وكان معز الدولة قد بنى قباباً كبيرة عالية يطعم فيها الناس، وقد شبهها ابن أبي حصينة بالجبال الراسية[٢]:

بنى القِباب رفيعاتِ الذرى شُهباً   مخلُوطَةً بنجومِ الحِنْدِسِ الشهبِ
مطَنباتٍ إلى العلياءِ ما افْتَقَرتْ   إلى عمودٍ ولا احتاجتْ إلى طُنُبِ
مِثْلُ الجبال الرواسي كُلما لَعِبتْ   بها الصبا رقَصتْ من شِدةِ الطربِ
لا يوم أحسن منه منْظَرا عجبا   في مطْعمٍ عجبٍ في مشْربٍ عجبِ

ولعلّها قباب خيم؛ إذ هي لم تحتج في بنائها إلى عمود، وكانت إذا هبت عليها الريح حركتها.

وكانت قباب الملوك والوزراء وعلية القوم حمراء اللون، وتدلّ هذه الحمرة على الثروة والرفاهية من جهة، وعلى الشرف والمكانة الرفيعة من جهة ثانية، يقول الأبيوردي[٣]:

وَأهلُ القِبابِ الحمر والنعمِ التي   لها العِز مرعى والأسِنةُ رعيان

ومما يدلّ على انتشار القباب في القرن الخامس الهجري، أبيات اتخذ فيها الحسن بن جعفر بن محمد الفارسي تلك القباب وسيلة يتوصل بها إلى مدح نظام الملك، وبيان ما يتصف به من كرم قلّ نظيره، يقول[٤]:

أحيا البلاد بعدلِه وأسامهم   من ظِلهِ في الروح والريحان
وبنى القِباب بأرض فارس مغرما   بحمايةِ اللاجي وفك العاني

---

(١) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص ٧٣.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ١٥٦.
(٣) ديوان الأبيوردي، ج١، ص ٢٥٤. وانظر: المصدر نفسه، ج١، ص ٤٦٣.
(٤) دمية القصر، ج١، ص٣٤٣.

فهي مرتبطة بالعدل وحماية اللاجئ وفك العاني، وتلك جميعها مواطن شرف ومظاهر عز تدلّ على مكانة صاحبها الرفيعة، وتؤكد مظهرا حضاريـا آخر ملتصقـًا بالمظهر العمراني، ألا وهو المظهر الاجتماعي.

د- القلاع والحصون

أسهم التفكك السياسي الذي عانت منه الدولة العباسية في القرن الخامس الهجري، وما تبع ذلك من استقلال الدول والإمارات، والأطماع الداخلية والخارجية في انتشار القلاع والحصون، خاصة في بلاد الشام التي تعرضت لهجمات رومية كثيرة. غير أن هذا الانتشار لم ينعكس على الشعر، ولعلّ ذلك – كما تقدم - بسبب ضياع غير قليل من تراث أمتنا الأدبي، أو لعلّه بسبب الحضارة نفسها؛ إذ إنها حملت معها مظاهر لهو وترف كثيرة شغلت العامة والخاصة عن غيرها.

وقد اعتنى العباسيون بالقلاع والحصون من حيث بناؤها الخارجي؛ فجعلوها قوية ومحصنة وعالية، ويدلّ على ذلك أبيات لابن أبي حصينة، قالها في وصف قلعة حلب [(١)]:

وجلستَ فـي دسـتِ الخلافـةِ جِلْـسةً ... نَظَرتْ إليـك بهـا الكواكـب حـسدا
فـي سـفْحِ شـاهِقَةِ البـروجِ كأنمـا ... يكـسو جوانِبهـا الربيـع زبرجـدا
موصـولَةٌ بِـالجو تَحـسب ضـوءها ... سـاري الدجنـةِ كوكبـا أو فَرقَـدا
رفَعـتْ مـشاعِلُها الـدخان فَقَنعـتْ ... وجـه الـسماءِ بـهِ قِناعـا أسـودا

فهو يصور ممدوحه يجلس في سفحها فوق بسط سندسية خضراء كأنها الزبرجد، وهذه القلعة مرتفعة شاهقة البروج، يتزاحم الجو لعلوها، حتى إن الناظر إليها يحسب ضوءها كوكبـا أو فرقدا، أما مشاعلها فتغطي وجه السماء بدخانها الأسود.

وفي موضع آخر من ديوانه، يصف ابن أبي حصينة قاعة الإيوان الأعظم (دار الذهب) في القلعة الشهباء، وكانت مفروشة بالمرمر؛ إذ يقول [(٢)]:

يـا حـسن مجلِـسنا وبهجتِـهِ ... بِـأَغَر زاد علـى الـذي وصِـفا
نَـزلَ الغَمـام علـى الرخـامِ فَقَـد ... خَـلاه حولَـك روضـةً أُنُفـا
غنّـاء تَـضحك كُلّمـا انْطَرقَـتْ ... عـين الـسحابِ فَأَنْبتَـتْ طُرفـا

---

(١) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص ٦٧.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٩٢.

وفي هذا دلالة على اعتناء العباسيين بتلك القلاع من حيث بناؤها الداخلي، وفيه أيضـا دلالة على ما كانت ترفل فيه بعض القلاع من ثياب أمن وطمأنينة، حتى إنه كان يقام فيها مجالس علم وسمر، والقلعة الشهباء في حلب، بلد سيف الدولة الحمداني، الذي خاض مع الروم حروبـا كثيرة وطويلة، وألحق بهم هزائم عديدة وخسائر جسمية، خير مثال على تلك القلاع.

هـ - الحمـامات

شكلت الحمامات مظهرا عمرانيـا لافتـًا في القرن الخامس الهجري؛ حيـث انتـشرت أيما انتشار. ومن هذه الحمامات ما كان عامـا، ومنها ما كان خاصـا وجد في دور علية القوم، وثمة حمامات كانت مخصصة للنساء يذهبن إليها.

وكما تأثرت المظاهر العمرانية العباسية الأخرى، من مثل: القصور والدور، والقبـاب، والقلاع والحصون بالحضارات السابقة، فقد تأثرت الحمامات في الحضارة الإسلامية، من حيث تصميمها وبناؤها بتخطيط الحمامات في تلك الحضارات، لا سيما اليونانية والرومانية [(١)].

ولم يغفل شعراء القرن الخامس هذا المعلم الحضاري؛ إذ تحدثوا عنه واصفين صـفاته ومرتاديه، ومشبهين إياه بصفات حسنة لا تتوافر إلا للعروس أو الغادة، ومنهم من شبهه بالجنّـة في طيبه ونعيمه، فضلاً عما يجد المرء فيه من راحة ومتعة وسرور واطمئنان.

ومن الحمامات المشهورة آنذاك حمام بوران؛ زوجة الرشيد الذي قال فيه العقيلي [(٢)]:

حمـ ـام بـ ـوران يـ ـا لِـ ـصحبي	أحـ ـق مـ ـن غيـ ـرِهِ بِحبـ ـي
روض تكـ ـاد الغـ ـصون منـ ـه	تحـ ـولُ بينـ ـي وبـ ـين لُبـ ـي
أميـ ـلُ منـ ـه إلـ ـى شَـ ـبيهي	فـ ـي فَـ ـيض دمعـ ـي وحـ ـر قلبـ ـي

فهو يقرن وصف هذا الحمام، الذي يشبهه بالروض، بمشاعر الحب لديه، جاعلاً صفتي الماء والحرارة مشتركتين بينهما.

وشبه ظافر الحداد الحمام بالروضة في يوم قائظ، وبالجنة في السعير، ووصف سقفه المبلول ببخار الماء مشبهـا إياه بالزهر وقد أمطرت عليه السماء، مستخدما تشبيهات مقلوبة، يقول[(٣)]:

وروضـ ـةٍ فـ ـي هجيـ ـر	وجنّـ ـةٍ فـ ـي سـ ـعير

(١) متز، آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، (ط٥)، بيروت، دار الكتاب العربي، ٢: ٢٢٣. وانظر: حسن، حسن إبراهيم، (١٩٦٥م)، تاريخ الإسـلام الـسياسي والـديني والثقافي والاجتماعي، ج٤، (ط٧)، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص ٦٠٤.
(٢) ديوان العقيلي، ج١، ص٧٧.
(٣) ديوان ظافر الحداد، ص ١٣٣ - ١٣٤.

خُـــــصتْ بكـــــل نعـــــيمٍ — ولَــــــــذّةٍ وســـــــــرور
منيـــــــرةٌ بـــــــشُموسٍ — مـــــــضيئةٌ بِبـــــــدور
كأنمـــا ســـقْفُها الـــ — ـــزهر غِـــب يـــومٍ مطيـــر

ويلحظ أثر الحضارة في شعر ظافر الحداد على نحو واضح؛ إذ رقّ أسلوبه بحيث هجر المفردة الغريبة، وأجاد في صوره الفنية. ولما كانت هذه الأساليب والصور الفنية لا تقتصر عاى ظافر الحداد وحده، إنّما نجدها لدى كثير من شعراء القرن الخامس الهجري، فإننا قد نعدها حينئذ سِمة فنية انماز بها شعر ذلك القرن من الزمان، وانعكاسا واضحا للحضارة على الأدب عامة، وعلى الشعر خاصة.

كما يصف صفاء ماء هذا الحمام، وجدره، فيقول:

والمـــاء صـــافٍ غزيـــر — كـــأدمع المهجـــور
كأنمـــا كـــل حـــوضٍ — مـــودةٌ فـــي ضـــمير
تكـــاد تُبـــصِر فيـــه الـــ — ـــقذاةَ عـــين الـــضرير
تحكـــي الموازيـــب منهـــا — صـــوالج البلّـــور
قـــد رصـــعتْ بِرخـــامٍ — كـــنَقْش بـــسطِ الحريـــر
نَحيـــا بهـــا ويحيـــي الـــ — ـــنفوس طيـــب البخـــور
فمـــا تَمـــل مقامـــا — علـــى اخـــتلافِ الـــدهور

فمظهر الحضارة العمراني واضح أيما وضوح في هذا الحمام، الذي رصفت جدره بالبلور، ورصعت بالرخام؛ فظهر النقش فيها مثلما يظهر في بسط الحرير.

ولظافر الحداد أبيات قالها في وصف حمام قصر الكافور، الذي أنشأه الملك الآمر، وقد كتبت على دائر جدرانه باللازورد، وفيها يشبه الشاعر حسن هذا الحمام بحسن العروس التي تَرفُلُ في حلّة موشاة زاهية، يقول [(١)]:

طاب هـذا الحمـام واجتَمـع الحـسـ — ـن إليـهِ فـي جملـةِ التقـسيمِ
فَهو مثلُ العروسِ تُجلَى علـى الأبـ — ـصارِ زهوا في حلـةٍ مـن رقـيمِ [(٢)]
فيـهِ حـسن بـادٍ وحـسن خَفِـي — لـيس يبـدو إلا لكـل حكـيمِ
وشـموس قـد جاورتْهـا بـدور — ونجـوم لكـن بغيـر رجـومِ

فهو حمام استخدمت فيه ألوان من الزينة والزخارف والتصاوير، حتى ظهر حسنه وجماله مثلما يظهران على العروس الجميلة وهي ترتدي ثوبـا موشى.

---

(١) ديوان ظافر الحداد، ص ٢٧٢ - ٢٧٣.
(٢) الرقيم: الثوب الموشى.

ويستطرد ظافر الحداد في وصف الحمام، فيقول: إن الماء البارد والماء الحار يفيضان منه، وفي كنفه تعيش طيور وحيوانات:

وسـيولٌ تفـيض بالحـار والبـا ... ردِ لكنهـا بغيـر غُيُـوم

بخـار كأنـه نَكْهـةُ المعـ ... ـشوق في أَنْفِ عاشقٍ محـروم

وطيـور تكـاد تـشدو ووحـشٌ ... رتـع فـي فواكـهٍ وكُـروم

وقد كان العباسيون يتبعون طرقًا مبتكرة في تسخين الماء في حماماتهم؛ إذ يصبونه في "قدور من النحاس توضع على موقد، ويندفع منها الماء الساخن والهواء الساخن إلى أماكن الاستحمام خلال أنابيب من الرصاص" [1].

أما تلك الطيور التي تكاد تشدو، والحيوان، فهي تصاوير زينت جدران الحمام، ما يدلّ على إبداع جمالي عاشه أناس القرن الخامس.

وحسن الحمام عند ظافر الحداد لا يتوقف عند هذا الحد، ففيه أيضًا قيان تضرب على آلات الطرب، وحياض يسر بها مرتادو هذا الحمام، يقول:

وقيـان تكـاد تُفْـصِح بالإيـ ... ـقاع بـين الثقيـل والمزمـوم

وحِيـاض راقَـتْ ورقّـتْ فأبـدتْ ... كـل سِـر فـي ضِـمنِها مكتـوم

أما الدار التي بناها الشيخ أبو القاسم بن كثير في بلخ، فيصف أبو العباس محمد بن إبراهيم الكاتب حمامها الذي يعبق برائحة زكية، يقول [2]:

حمـام نـار حميمِهـا أبـدا ... مجـاور للجحـيم يحميهـا

لهـا صـفاتُ اللظـى وداخلُهـا ... فـي جنـةٍ جمـةٍ ملاهيهـا

بخارهـا بـالبخور ممتزجـا ... بمـاءِ وردٍ لِمـن يوافيهـا

كأنهـا غـادةٌ مقَنَقَـةٌ ... معتـادةٌ نِعمـةً وترفيهـا

وفي ذلك دلالة على انتشار عادة تطييب الحمامات بالبخور، ورشه بماء الورد ذي الرائحة الحسنة، وهو بذلك إنما يشبه غادة جميلة تعيش منعمة في ظلّ حضارة وفرت لها أسباب الرفاهية.

---

[1] عبد المعطي، محمد والعطار، أمجد وعبد الرزاق، أحمد وآخرون، (١٩٩٨م)، تاريخ العلوم والحضارة الإسلامية، (ط ٤)، أبو ظبي، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ص ١٩٨.

[2] دمية القصر، ج٢، ص ٣٩٧.

وفي موضع آخر، يظهر فيه التناص واضحا مع قصيدة لعلي بن الجهم يصف فيها قصرا للمتوكل، يشبه أبو العباس قبة هذا الحمام بمن يسامر النجوم لعلوها، ويفيض الماء فيه كأنه الفضة؛ إذ يقول[1]:

وبيــتُ مــــــاءٍ كــأن قُبتَــه ... تـــسامر الـــنجم أو تُــــساميها
يفــيض فــي نهــره اللجــين وإن ... خَــر خريــر الميــاهِ تمويهــا
يــسمع فيــه حفيــفُ أجنحــةِ الــطـ ... ــــير إذا رفرفـــت خوافيهـــا
لا بلْ قَصيفُ الرياحِ فـي حلـل الـ ... ـــــسحابِ منْحلـــةً عزاليهـــا

إنه تشبيه حسن يجعل فيه الحمام روضـا تحفه الطير، ويغدق عليه السحاب من خيره الكثير. ولعله يقصد به سعة الحمام، أو أنه يصف ما علقَ على جدرانه من لوحات، وما رسم من تصاوير عدة.

ووصف ظافر الحداد حمامـا معبرا عن مدى المتعة والغبطة والسرور التي يشعر بها عندما يكون فيه، وقد تحدث عن هذا الحمام بصيغة المؤنث لا المذكر، ولعلّه أراد (غرفة) الحمام أو زاوية فيه، يقول[2]:

ـِ حمــام كــروضٍ أنيـــــــقْ ... رافقنــي فيــهِ رقيــقٌ رفيـــقْ
صــفا لــي العــيشُ بهــا مثلمـــا ... صــفا لقلبــي ود ذاك الــصديقْ
تَناســبتْ شخـــصـا وخُبــرا فمــا ... للـــذم والعيـــبِ إليهـــا طريـــقْ

فهذا الحمام مكان للراحة، وهو أيضـا محلّ يجتمع فيه الخلان. ولعلّ هذا تطور وظيفي أضافه العباسيون إلى وظائف الحمام، يتناسب ومستوى حضارتهم.

ثم ذكر حرارة ماء هذا الحمام المعطر، قائلاً:

أحرهــا الوقّــاد حتــى غـــدا ... مِــن أجلهــا للــروح مثــلَ الــشقيقْ
فالمــاء فيهــا كحيــاةٍ جــرتْ ... بها العــوافي والــصبا فــي العــروقْ
تحـــت بخــارٍ عطِــرٍ مثلمــا ... شُــبتَ بمــاءِ الــوردِ مِــسكـًا فتيــقْ

واستطرد قائلاً إن حياض هذا الحمام قد راقت، وخصت بألوان الرخام، ما أضفى عليه حسنًـا وجمالاً:

راقَــتْ حِياضـــا فأقَـــل القَـــذى ... فيهــا كــشمسٍ تحــتَ غــيمٍ رقيــقْ
خُـــصتْ بـــألوان الرخـــامِ الـــذي ... لــه بهــا كــل طِــرازٍ دقيـــــقْ
فأعجـــب الأمـــر شـــموس بهـــا ... طالعـــةٌ دائمـــــةٌ فـــي شُـــروقْ

---

[1] دمية القصر، ج٢، الصفحة نفسها.
[2] ديوان ظافر الحداد، ص ٢٢٤- ٢٢٥.

فهو حمام ينماز بالحسن، ويختص برخامه ذي الألوان المتعددة الجميلة، التي أُحسن اختيارها وتنسيقها. ولما كان المرء يجد في هذا الحمام راحة جسمه وسرور نفسه، فإن الشاعر يود أن يقضي عمره فيه، ما يجعل حمامات الشرق – حسب قول جوستاف لوبون - أفضل من حيث الراحة من حمامات الغرب، فضلاً عن كونها مكانـًا للاجتماع والمحادثة(١).

ولظافر الحداد أيضـًا أبيات يتحدث فيها عن حسن مرتادي الحمام، وما يحدثه وجوده فيه من تعديل للمزاج، يقول(٢):

وروضٍ له مِن جلْمدِ الـصخْر أزهـار ... خَصيب إذا ما أُضـرِمتْ تحتَـه النـار
تَجنب قرب الـشمسِ والبـدرِ دائمـًا ... فأكثر ما فيـهِ شـموس وأقمـار
تولد فيهِ مِـن جحـيمٍ وجنّـةٍ ... مِزاج لتعـديل المزاجـاتِ مختـار

أما الأمير أبو الفتح عبد الكريم بن أحمد الحاتمي الهروي، فشبه حمامـًا بجنّة عدن في طيبه، وبالجحيم في حرارته، وشبه خُدامه بالحور العين، يقول (٣):

وحمامنـا مثـلُ الـشبابِ مِزاجـه ... ومـن ذا يـؤدي للـشبابِ معانِيـه؟
حكى العدن طيبـًا والجحـيم حـرارةً ... وخُدامـه حـور تلـيهم زبانِيـه

وثمة ما يشي - في أبيات أبي العلاء المعري - بأن المرأة كانت تذهب إلى الحمام والطيب يعبق من أردانها، يقول (٤):

شَـر علـى المـرأةِ مـن حمامِهـا ... إرسـالُك الفاضـلَ مِـن زمامِهـا
ومـشْيها تَـضرب فـي أكمامِهـا ... يفـوح ريـا الطيـبِ مِـن أمامهـا

وبذا، فقد اعتنى العباسيون بتزيين حماماتهم اعتناء عكس أثر حضارة عصرهم؛ إذ إن ذلك يمثل مظهرا من مظاهر الترف في القرن الخامس الهجري. ولما كان ذلك، فقد رصد الشعر آنذاك هذا المظهر الحضاري العمراني، وتتبعه مصورا إياه في قوالب فنية جميلة تكشف عن الذوق الحضاري الذي ارتقى إليه إنسان ذلك القرن من الزمان.

و- البِرك، والنّواعير، والنّوافير، والفَوارات

سبق الحديث عن اعتناء الخلفاء العباسيين وأمرائهم ووزرائهم وقادتهم في القرن الخامس الهجري - فضلاً عن أمراء الدول المستقلّة آنذاك - ببناء القصور والدور، واهتمامهم بما حولها

---

(١) لوبون، جوستاف، حضارة العرب، ص ٣٦٨.
(٢) ديوان ظافر الحداد، ص ١٣٣ - ١٣٤.
(٣) دمية القصر، ج٢، ص ١٧٠.
(٤) المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدا ، (ت ٤٤٩هـ)، اللزوميات، (تحقيق عمر الطباع)، دار الأرقم، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٢، ص ٤٧١.

من رياض. ولما كانت البيئة المائية متوافرة، فقد حرص هؤلاء على أن ينشئوا في بساتين قصورهم ودورهم أشكالاً معمارية أخرى، هي: البرك، والفوارات، والنواعير، والنوافير، التي تُفنّن في بنائها حتى اتخذت أشكالاً متعددة؛ فمثلت بذلك مظهرا حضاريـا ينم – في جانب منه – عن الترف والجمال.

وقد أمعن شعراء القرن الخامس نظرهم في ما حولهم من قصور ودور وبساتين؛ فاستهواهم ما تحويه من مظاهر عمرانية حضارية تتّصف بالجمال ودقّة الصنعة، وشدهم منظر الماء فيها؛ فمالوا إلى وصفها وتجسيدها في شعرهم لتخلد مدى الدهر.

ولما كانت البرك آنذاك تشكل جزءا رئيسـًا من بناء القصور والدور، فقد برع شعراء القرن الخامس في وصفها، ولعلّ ممن أجاد في هذا ظافر الحداد خاصة، الذي وصف بركة الحبش قرب النيل، فقال [1]:

تأملْـتُ بحـر النيـل طُـولاً وخَلْفَـه	مـن البِركـةِ الغنّـاءِ شـكلٌ مـدور
فكان وقـد لاحـتْ بِـشَطيهِ خُـضرةٌ	وكانـت وفيهـا المـاء بـاقٍ مـوفر
عِمامةَ سـربٍ فـي حـواشٍ بخُـضرةٍ	أُضـيفَ إليهـا طَيلَـسان مقَـور

فشبه النيل بعمامة لها حواشٍ خُضر، والبركة طيلسان مقور أضيف إليها.

وقد كان للبرك أثر في الشعراء؛ إذ استوحوا في وصفها صورا جميلة وتشبيهات بديعة، ومن ذلك وصف ظافر الحداد بركة نَثر الورد الأحمر أوراقه فوق مائها، يقول [2]:

وسـاعة جـاد بهـا العمـر	ونـام عـن خُلْـسِتها الـدهر
والطيـر والـدولاب يـشدو لنـا	كمطْـربٍ يتْبعـه زمـر
والـورد فـوقَ المـاءِ مـا بيننـا	قـد نُثِـرتْ أوراقُـه الحمـر
لـم تَـر عينـي منظـرا مِثْلَـه	مـاء تَلَظـى فوقَـه جمـر

فهو منظر لم تر عينه مثله، يتوافر فيه غير مظهر حضاري على نحو جلي؛ منها العمراني متمثل في البركة نفسها، وفي الدولاب الذي يتحرك ماؤة فيصدر صوتـًا أشبه بالشدو، ومنها الاجتماعي الذي يمثله مجلس الغناء وما فيه من طرب وزمر. فضلاً عن ذلك الورد الأحمر الذي نُثرت أوراقه فوق الماء، فكأنها جمر يتلظى.

وقد كان السلطان أمر ببناء مجلس له في بستان بظاهر القاهرة يسمى البعل، وأمام المجلس بركة ماء واسعة يمدها نهر يشقّ المجلس، وهي محفوفة بأنواع الأزهار، ويتّسم ماؤها

---

[1] ديوان ظافر الحداد، ص ١٥٤.
[2] المصدر نفسه، ص ١٣٧.

بالصفاء وشدة الفيض، فأُمِر ظافر الحداد أن ينظم في هذه البركة أبياتـًا تكتَب في صدر ذاك المجلس، فقال[1]:

انظر إلى المجلس الأعلى وما جمعـتْ ... فيـه سـعادةُ مولانــا مِـن المنـَحِ
جاءت به حِكَم الـصنّاع معجـزةَ الـ ... ـدنيا فأصـبح فيهـا خيـر مقْتَـرح
لـه بيـاض يغُـض الطـرفَ لامِعـه ... فالعين تَلْحظُ منه الحسن فـي الملَـحِ[٢]
كأنـــه خَلَــلُ[٣] الأشــجار لؤلــؤةٌ ... نَظْــم الزهـردِ فيهـا غيـر منْفَـسِحِ
كأنمـا النهـر فيـه سـيفُ مـرتَعِشٍ ... يرومـــه بـــين مقبـــوضٍ ومطـــرح
يلقـي إلـى البركـةِ الغَنّـاءِ فائـضه ... ماء يشُف شَفيفَ الخمـر فـي القَـدح
حكَتْ سماء، ولـون الزهـر يـشْملُها ... موس الغَمامِ الـذي ينْمـى إلـى قُـزح
لا سـيما كلمـا هــب النــسيم بهــا ... وغنَتِ الطير فـي الآصـال والـصبح

فالنهر يلقي إلى البركة فائض مائه، الذي يشبه في صفائه صفاء الخمر في قدح، كما تبدو تلك البركة ولون الزهر يشملها أشبه ما تكون بالسماء، خاصة كلما هب النسيم عليها وغنّت الطير حواليها.

وقال متذكّرا الفسطاط، ورياضها، والنيل، وسطح المقطم، ثم البركة[٤]:

وفي البركةِ الغنّـاءِ للطـرفِ مـسرح ... نَهى ما انطوى من جفْنِـهِ عـن مآبـهِ
يبلغنــا عــن زهرهــا وافِــد الــصبا ... ســلاما تَــولّى المِــسك رد جوابــهِ
إذا جمـشَ الغُــدران واهــي نــسيمِها ... حكَــتْ زردا فُــضتْ أعــالي عبابــهِ
وينْــسل فــي ســاحاتِها كــل جــدولٍ ... كما سل مطْـرور الـشبا مـن قِرابـهِ

فهذه بركة محلّ ذكريات جميلة، إذا هبت عليها ريح الصبا حملت إلينا رائحة زهرها الطيبة، وإذا لاعب نسيمها الغُدران وغازلها أشبهت درعا مسرودة، تنساب إليها الجداول في ساحاتها انسيابا، وتنسل كما سلّ الحد من قرابه.

أما البركة التي كانت في مجلس الآمر بأحكام ا أمير المؤمنين، فيصفها ظافر الحداد قائلاً[5]:

انظُـــر إلـــى مـــستَنْزهِ الأنْفُـــسِ ... والبركـــةِ الغَنّـــاءِ فـــي المجلِـــسِ
كأنهـــا والنبـــتُ مـــن حولِهـــا ... فـي مغْـرسٍ ناهيـك مِـن مغْـرسِ

[1] ديوان ظافر الحداد، ص ٨١- ٨٢ .
[2] ملح: بياض يخالطه سواد. لسان العرب، مادة (ملح).
[3] الخلل بمعنى خلال.
[4] ديوان ظافر الحداد، ص ٤٨.
[5] المصدر نفسه، ص ٣٤٠.

جـــام هِـــن البلّـــور قـــد حفـــه غِـــشاؤه الأخْـــضر هِـــن سـنْدسِ
زينَهـــا التوفيـــقُ للآمـــر الـــ ـمنـــصور بـــالأنْفُسِ فـــالأنْفُسِ
حتى غَدتْ كالـشمسِ عنـد الـضحى والبدرِ حـسنـًا فـي دجـى الحِنْـدِسِ

فهي بركة محفوفة بالنبت وحولها الزهر، ومحاطة بالزجاج الأخضر، حتى غدت كأنها الشمس وقت الضحى، والبدر في الظلام.

وتجلّت مظاهر الحضارة في وصف بعض الشعراء البرك وصفـًا يوظفون من خلالـه معطيات حضارتهم توظيفًا جماليـا رائعا، ومن ذلك قول ابن الخياط[(١)]:

تَغَنّـــي لنـــا طَربـــا ماؤُهـــا وقامـــتْ أنابيبهـــا تـَـــرقُص
يريـــك الجـــواهر تقبيبهـــا وهـــن طَـــوافٍ بهـــا غُـــوص

فهو يصور خرير مائها بالمغنّي المجيد الذي يطرب يطرب الآذان ويشنّفها، وفي مقابل هذا الغناء يصور أنابيبها جواري راقصات، أما جواهرها فتراها طافية تارة، غائصة غائرة تارة أخرى.

وفي موضع آخر من ديوانه، يصف ابن الخياط بركة فيصور فيها تمثال ديـك يجـري الماء من جناحيه وذنبه، ويشبه خرير الماء بالتغريد والصياح، ويصفه بالوقار والمرح والطرب والحياء، يقول[(٢)]:

وديكًـا تـرى الـصخْر جِـسما لـه ومـن فِـضةٍ ريـشُه والجناحـا
إذا المـــاء راســـله بـــالخرير أَحـــسن تغريـــده والـــصياحا
لَـــه شـــيمتان مـــن المكرمـــاتِ يريـــك الوقـــار بهـــا والمِراحـــا
إذا هـــم مـــن طَـــربٍ أن يطِيـــ ـر لـم يـستَطِع مـن حيـاءٍ براحـا
إذا مـــا تَغَنـــى أغـــار الحمـــا م فَرجـــع ألحانَـــه ثـــم ناحـــا

وقد يستثمر الشاعر وصف البركة في المديح؛ فيضفي عليها من صفات ممدوحه حتى إنه يجعلها إذا جرى الماء في مجاريها تقتدي بجوده وكرمه، وفي ذلك يقول أبو العباس محمد بن إبراهيم الكاتب مصورا بركة الدار التي بناها الشيخ أبو القاسم بن كثير في بلخ[(٣)]:

وبركـــةٍ وســـطَها مباركـــةٍ ينـتظم المـــوج فـــي حواشـــيها
كـــأن أمواههـــا إذا انفجـــرتْ أراقـــم الرمـــل تَلتـــوي فيهـــا
كأنمـــا فُضـــضتْ جـــداولُها وملئـــتْ زئبقـــًا ســـواقيها
كأنّهـــا تقتـــدي بـــصاحبها إذا جـــرى المـــاء فـــي مجاريهـــا

(١) ديوان ابن الخياط، ص٢٠٨- ٢٠٩.
(٢) المصدر نفسه، ص١٩٣.
(٣) دمية القصر، ج٢، ص٣٩٧ - ٣٩٨.

ملقــى عِــصى العفــاة عرصــتُها موســم ســوقِ الكُفــاةِ ناديهــا
فاشــرب إذا شــئتَ كيــف شــئتَ بمــا شــئتَ فــي مغانيهــا
واغْــن طــويلاً بهــا وعِــشْ أبــدا لهــا وكُــن ربهــا ودم فيهــا

فهي كبيرة حتى إن أمواجها تشبه في حركتها الأفاعي إذا تلوت، ويخال للناظر أن جداولها فضضت، وأن سواقيها قد رصعت بالزئبق لشدة صفاء مائها. وهي – فضلاً عن ذلك – مكان يلذ فيه العيش ويهنأ المقام؛ لِما فيها من وسائل الراحة والسرور التي وفرتها الحضارة آنذاك.

وقد يستعير الشاعر صورا من بيئته الحية وما فيها من طيور، فيصور مشهدها في البركة وهي ترقص وتلعب، يقول العقيلي[1]:

وعنــدنا طارمــةٌ[2] رســمها فــي كــلّ يــوم مثــل ذا تُنْــصب
بــين يــديها بركــةٌ ماؤهــا جــارٍ مــع الأيــام لا ينْــضب
مــا حــط مــذْ أنــشاتُها سالفــًا قــط علــى ســالِفها طُحلُــب
يــرقص فــي حافاتِهــا بطهــا إذا غــدا ببُلْبلُهــا يلْعــب
وربمــا تُطْلِــع أمواجهــا كواكِبــا مــن وقتهــا تَغْــرب

إنها بركة في بيت من خشب، ماؤها وفير لا ينضب، لم تنم على حوافِها الطحالب، والبط فيها ترقص فرحة آمنة، وكذا البلابل تلعب حواليها مطمئنة.

وفي قصيدة أخرى، يصف العقيلي بركة جميلة في روضة خضراء، مشبها البركة وطيور الماء فيها بالسماء الزاخرة بالنجوم، يقول[3]:

وروضــةٍ كالحلــةِ الخَــضراءِ محدِقَــةٍ ببِركَــةٍ حــسناءِ
قــد لَبِــستْ عِقْــد طُيــورِ المــاءِ لِــبس الــسماءِ أَنْجــم الهــواءِ

وصور حركة الأسماك في بركة، وتموجات الماء إذا ما هب نسيم الصبا عليها، والورد الأحمر يحيطها، قائلاً[4]:

وبركــةٍ قــد أفادنــا عجبــًا مــا ســالَ مــن مائهــا ومــا انْــسكبا
يجلــى بأمواهِهــا الرخــام كمــا تُجلَــى ســماء قــد اكتــست ســحبا
حتــى إذا مــا الحبــاب حــف بهــا أَرتْــك منهــا كواكبــا شُــهبا
تــضحك مــن بطنهــا إذا رقَــصتْ فكيــف مــن رايهــا[5] إذا لعبــا
وربمــا تغتــدي مدرجــةً إن هــز أعطافهــا نــسيم صــبا

---

[1] ديوان العقيلي، ج١، ص٥٨.
[2] طارمة: بيت من خشب.
[3] ديوان العقيلي ، ج١، ص٤٦.
[4] المصدر نفسه، ج١، ص٤٩-٥٠.
[5] الراي: نوع من السمك، يعيش في نيل مصر.

يــا حــسن أمواجهــا إذا اضــطربت ‏ فأحــدثتْ فــي نفوسِــنا طَربــا
وحسن شمسِ الــضحى تــصوغُ علــى ‏ قــضيبها مــن شُــعاعِها ذهبــا

فجدرانها من الرخام، تظهر ضاحكة إذا تحرك ماؤها، الذي إن هبت عليه ريح الصبا تدرج، وإذا ماج أحدث صوتًا طروبا، حتى إن شمس الضحى إن أرسلت أشعتها صاغت على سطح ماء هذه البركة ذهبا. ويستطرد العقيلي، قائلاً:

يــدرِكُها الــورد كمــا ارتَعــدتْ ‏ منــه بِجمــرٍ يظَــل ملْتَهبــا
مِــن حــول فــوارةٍ مركبــةٍ ‏ قــدِ انحنــى ظَهــر مائهــا تَعبــا

فالورد الأحمر، الذي تشبه حمرته الجمر منثور على سطح مائها، حول فوارة ركِّبت في وسطها، يخرج منها الماء فيعلو ثم يعود، وهكذا في حركة مستمرة. إنها صورة حضارية، استمد الشاعر العقيلي عناصرها من واقع حياته، تلك الحياة التي رفلت بأثواب الحضارة، وتزينت بزينتها؛ فأعجبت شعراء القرن الخامس وسلبت أفئدتهم حتى راحوا يصفونها وصفًا جميلاً، ويشبهونها تشبيهات بديعة، مستعينين على ذلك بمعجم لغوي ضم بين دفتيه الكثير من ألفاظ الحضارة ذات الرقة والنضارة.

ولابن الخياط قصيدة يصف فيها فوارة يعلو ماؤها في السماء، ويسمو مرتفعا مثلما النخل، يقول[1]:

وفــوارةٌ يــستمِــد الــسحــاب ‏ مــن فــضل أخلاقِهــا المحتَلَــب
رأتْ حمــرةَ القــيظِ محمــرةً ‏ لهــا شَــرر كرجــومِ الــشهــب
فَظَلَــتْ بهــا الأرض تــسقي الــسماء ‏ خوفــًا علــى الجــو أن يلتهــب

فللفوارات أثر ملحوظ – يلتمس على نحو حسن وقت القيظ - في تخفيض وطأة الحــر؛ إذ يعلو ماؤها في السماء، وينتشر رذاذه ملطِّفًا حرارة الجو، حتى إن السحاب يقتدي بصنيعها الطيب، ويستمد من فضل أخلاقها ما يجعله يمطر ماء يحيي به الأرض ويجمل جوها.

أما النواعير، فقد كانت وسيلة للتحكّم في المياه والانتفاع بها في الزراعة والحياة والمعيش، وفي هذا دلالة على الحضارة. فضلاً عن كونها منظرا جميلاً يسر العين، ويطرب حنين صوتها الآذان. وهذا ما جعل الشعراء يصفونها في غير موضع، ومن ذلك قول ظافر الحداد[2]:

وســاعةٍ جــاد بهــا العمــــر ‏ ونــام عــن خُلْــسِتِها الــدهر

[1] ديوان ابن الخياط، ص ٢٠٩.
[2] ديوان ظافر الحداد، ص ١٣٧.

والطيـر والـدولاب[١] يـشدو لنـا كمطْـربٍ يتْبعـه زمـر[٢]

والصورة الحضارية واضحة في هذا الشدو، وذاك الطرب الذي يرافقه زمر. وما هذا الوصف والتشبيه إلا من أثر الحضارة التي تمثل جانب منها في مجالس الغناء.

وقد ذكر ظافر الحداد بلدته الإسكندرية كثيرا في شعره، وكان في ذكره لها يحن إليها حنينـًا قويا، فيذكر جمال رياضها، ويعرج على خليجها فيصفه وصفـًا رائعا ينم عما في نفسه من مشاعر تجاه تلك البلدة، ومن ذلك قوله[٣]:

ويعِلنـي[٤] ذاك الخليج بـشَربةٍ سِيـما إذا انْتَسجتْ دروع حبابـهِ
وصفا وراقَ وعـاد مـد زلالـهِ كالسيفِ جـرد مـن خِلال قِرابـهِ
فكأنـه والـريح تَـنْقُشُ متْنَـه جِـرز[٥]عليـهِ يـدق خَـط كِتابـهِ
كـالمِبردِ المنقـوشِ نَقْـشًا خَففَـتْ آثـار موقِعِـه يـدا ضـرابهِ
كَـضفيرةِ الخَـواصِ أمكنَـه لهـا سـعفٌ ضـفا فـأَرق ضـفْر لُبابـهِ
حيثُ الغُـصون رواقِـص ويمامهـا[٦] يـشْدو لِطيـبِ الزمـرِ مِـن دولابـهِ
نَعرتْ[٧] نَـواعير الميـاهِ وأُتْرِعـتْ[٨] تلك التـراع[٩] وفُـض قَـيض عبابـهِ
حتـى تُجـرد سـيفَه أسـيافُها بجـداولٍ جـدلْن فـي أعـشابهِ

فما إن يزمر ذاك الدولاب زمرا طيبا حتى تبدأ الغصون بالرقص، ويشرع الحمام في الغناء.

ومن الشعراء من رسم لصوت الناعورة صورة مغايرة لصوت الغناء، فشبهه بصب متيم يشكو وجده إلى زائر، ومن ذلك قول أبي الفرج الموقفي[١٠][١١]:

نـاعورةٌ تَحـسِب فـي صـوتِها متَيمـا يـشكو إلـى زائـر
كأنمـا كيزانُهـا عـصبةٌ صـبوا بِريـبِ الـزمن الـوافر
قـد منِعـوا أن يلتقـوا فاغْتَـدا أولُهـم يبكـي علـى الآخِـر

---

[١] الدولاب: الساقية، والناعورة. لسان العرب، مادة (دلب).
[٢] زمر: المزمار. لسان العرب، مادة (زمر).
[٣] ديوان ظافر الحداد، ص ٢٣.
[٤] يعلّني: يسقيني ثانية أو تباعا. لسان العرب، مادة (علل).
[٥] الجرز: العوذة. لسان العرب، مادة (حرز).
[٦] يمامها: حمامها. لسان العرب، مادة (يمم).
[٧] نعرت: صوتت. لسان العرب، مادة (نعر).
[٨] أُترعت: ملئت. لسان العرب، مادة (ترع).
[٩] التراع: جمع ترعة، وهي مجاري الماء. لسان العرب، مادة (ترع).
[١٠] خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٢، ص ٢١٨.
[١١] أحد كتاب مصر من الطبقة الأولى، وهو من شعراء الدمية. انظر: دمية القصر ١٨٥/١، خريدة القـصر، قسم مصر، ٢/ ٢١٨.

فكيزان هذه الناعورة لا تلتقي؛ إذ هي تدور في حركة دائرية مغترفة الماء، ثم تتابع دورانها فتصبه محدثة صوتـًا أشبه ما يكون بصوت البكاء.

ويؤكد المعنى نفسه أبو الحسن علي بن أبي الفتوح بن أحمد بن بكري الكاتب، يقول[1]:

ربَّ نـــاعورةٍ كـــأن حبيبـــا فارقَتْــه فقــد غَــدتْ تحكينــي
أبــدا هكــذا تــدور وتبكــي بــدموعٍ تبكــي وفَــرطِ حنــين

فالصوت الصادر عن دورانها وحمل كيزانها الماء ثم صبه يشبه صوت الحبيب الذي فارق حبيبه؛ فأخذ يبكي ويذرف الدموع، وحالها في ذاك مثل حالي، وما أنا فيه من شوق وحنين وأنين.

وفي موضع آخر يقول الشاعر نفسه، وقد جلس على ضفاف نهر بكت نواعيره؛ فتذكر أياما خلت، وأحولاً هاج لها قلبه[2]:

قعدتُ على عاصي حمـاةَ وقـد بكَـتْ نــواعيره والمـــاء يـــضحك فيـــهِ
فهاج لقلبـي صـبوةٌ لـم أُصِـب لهـا شــبيها وهــلْ يــؤتى لهــا بــشبيهِ
ومــا زالَ يهتــاج الفتــى كـل رنــةً إذا مــا نَــوى شَــطّتْ بــدارِ أبيــهِ

وبذا، فقد كانت البرك والفوارات والنواعير من مظاهر الحضارة العمرانية البارزة في القرن الخامس الهجري، ما جعل الشعراء يعتنون بوصفها، ويهتمون بذكرها، لما يتوافر فيها من جمال وروعة وذوق حضاري لافت.

ز- الخيام، والجسور، والمنارات، وغيرها

وثمة ملامح أخرى دالّة على النهضة العمرانية في القرن الخامس الهجري غير التي ذُكرت، فالخيام مثلاً كانت تُضرب على مِساحات شاسعة، في مناسبات عديدة، فتظهر كبيرة عالية حسب مكانة بانيها وعلى نحو يتفق مع جاهه وسلطانه، فشكّلت بذلك مظهرا عمرانيا دلّ على تميز حضارة ذاك القرن.

ولما كان الأمر كذلك، فقد عجب الشعراء من منظر هذه الخيم، فراحوا يصفونها في سياق مدائحهم، معبرين بذلك عن مكانة ممدوحيهم وعلو شأنهم، ومن ذلك قول عبد المحسن الصوري[3]:

مــا ســمعنا بخيمــةٍ تَــسع البحــ ــــر وقــد حــل هــذه البحــران

[1] خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص ١٣٩.
[2] المصدر نفسه، قسم شعراء الشام، ج٢، ص١٤٠.
[3] ديوان الصوري، ج٢، ص٩٠.

لـو تكـون الخيـام تنطـقُ يومـا لَجَـرتْ هـذهِ بكُـلِّ لِسان

فهي خيمة كبيرة فاقت البحر سعة. لذا، حقّ لها عن يجري ذكرها مثلاً على كلّ لسان.

وبنى الأفضل بن بدر الجمالي خيمة سماها "الفرج"، قال مجير بن محمد بن مجير الصقلي في وصفها[1]:

وبيضِ خيامٍ يهتدي الركب في الدجى بها حين تخفى النيراتُ وتُحجب
تبوأتَ منها خيمةَ الفَرجِ التي لراجيك فألٌ في اسمها لا يكذب
فتاه على إيوان كسرى وتاجِهِ رواقٌ لها في ظل ملْكِك يضرب
علا وعلتْ فاستوفتِ الجو هالةً بها منك بدر بالبهاء محجب
يكاد من الإحكامِ صافِن[2] خَيلها يجول، وساجي وحشِها يتوثب

إنها خيمة بيضاء يهتدى بها في ظلام الليل الدامس، ضرب لها رواق فاق حسنًا إيوان كسرى وتاجه، فهو عالٍ، وهي عالية، كلاهما يمتد إلى السماء فيستوفيان الجو هالة، ويكاد من إحكام صنعتها يجول صافن خيلها، ويتوثب ساكن وحشها.

ووصف أبو علي حسن بن زيد بن إسماعيل الأنصاري[3] الخيمة عينها وقد صورها فلكًا في اتساعها، فقال[4]:

مجدا فقد قَصرتْ عن شأوِك الأُمم وأبدتِ العجز منها هذه الهمم
أخيمةً ما نَصبتَ الآن أم فَلَك ويقْظَةٌ ما نراه منك أم حلُم
ما كان يخطر في الأفكارِ قبلك أن تَسمو علُوا على أُفْقِ السها الخِيَم
حتى أتيتَ بها شَماء شاهقةً في مارِن الدهرِ من تيهٍ بها شَمم
يمد من في بلاد الصين ناظِره حتى ليبصِر عِلْما أنّها علَم

فكأننا في ما نرى في حلم؛ إذ إنّه لا مثيل لهذه الخيمة في السعة والعلو، حتى إن من في الصين إذا مد نظره أبصرها.

واستطرد الشاعر قائلاً إن الأمن عم هذه الخيمة، كما شبهها بالجنّة إذ لا تتغير أعمار ساكنيها ولا يهرمون، فهم فيها في عيش هنيء؛ إذ قال:

ترى الكِناس وآرام الظباءِ بها أضحتْ تجاورها الآساد والأجم
والطير قد لَزمتْ فيها مواضِعها لما تَحققْن منها أنها حرم
لديك جيشٌ وجيشٌ في جوانبها مصور وكلا الجيشين مزدحِم

---

[1] خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٢، ص ٨٤.
[2] صافن: من صفن الفرس إذا قام على ثلاثة قوائم وطرف حافر الرابعة. لسان العرب، مادة (صفن).
[3] من المقدمين في ديوان المكاتبات بمصر، وصفه القاضي الفاضل وأثنى على فضله. انظر: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ٦٧/٢.
[4] خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٢، ص ٦٨ - ٦٩.

إذا الـصبا حركتهـا مـاج موكبهـا قَمقْـدِم مـنهم فيهـا ومنْهـزم
كأنهـا جنـةٌ فالقـاطنون بهـا لا يـستطيلُ علـى أعمـارهِم هـرم
علَـتْ فخِلنـا لهـا سِـرا تُحدثُـه للفَرقـدين وفـي سـمعيهما صـمم

وكذا الخيمة التي وصفها الشريف أبو جعفر محمد بن هبة ا العلوي الحـسيني، فقـد كانت آية في العلو والاتساع والنقش، وأحاطت بها الرياض، وجالت بها الحيوانات، وصـدحت الطيور، يقول[1]:

ضربتَ عين رواقٍ[2] فـي مقـر عـلاً أوفى على عذَبات[3] الطودِ ذي القُنَن[4]
جازتْ مدى الطّرفِ حتى خالتُ ذِروتَها تأْوى من الفَلَـكِ الأعلـى إلـى سـكَن
أقطارها ملئـت مـن منظـرٍ عجـبٍ يهـدي إليـك ذكـاء الـصانِع الفَطِـن
فمـن ريـاضٍ سـقاها الفِكْـر صـيبه فمـا بهـا ظمـأٌ يومـا إلـى المـزن
وجـامحٍ فـي عنـانٍ لا يجاذبـه وطـائرٍ غيـر صـداحٍ علـى فَـنَن
وأرقـمٍ لا تَمـجِ الـسم ريقتُـه وضـيغَمٍ لـيس بالعـادي ولا الـوهن
ومـائلين صـفوفًا فـي جوانبهـا لو يستطيعون خَـر[5] الجمـع لـلذقَن

كما زينَتْ هذه الخيمة بفضائل رائعة لا تُحصى من المجد والعلياء، وظهر صدرها مثل الشمس، فضلاً عن أنها فأل للنصر؛ إذ ستضرب في الصين حين فتحها، يقول:

زينَـتْ بـأروع لا تُحـصى فـضائلُه ماضٍ من المجدِ والعليـاءِ فـي سـنَن
وأطلَع الدستُ[6] فيهـا شـمس مملكـةٍ تُـري التأمـلَ فـضلَ العـين لـلأُذُن
وعد على السعدِ أن النـصر يـضربها بالـصين بعـد فتـوح الهنـدِ والـيمن

أما الجسور، فقد بنيت فوق الأنهار، ولا سيما نهر النيل. يقول ظافر الحداد في الجسر الذي يعلوه[7]:

والنيـلُ مثـلُ عِمامـةٍ نُـشِرتْ محـشّاةً بأخْـضر
والجـسر فيهـا كـالطراز ومـن بـهِ رقْـم مـسطر

فشبه النيل وما حوله من خُضرة بالعِمامة محشّاة بأخضر، والجسر فيها مثل العلم، وموجه وشي ذو روعة وجمال.

---

[1] خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص١٤١- ١٤٢.
[2] رواق: الخيمة والفسطاط.
[3] عذبات: أعالي.
[4] القنن: القمم.
[5] خَر: سجد. لسان العرب، مادة (خر).
[6] الدست: صدر البيت. لسان العرب، مادة (دست).
[7] ديوان ظافر الحداد، ص١٥٤. وفي غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، للأزدي، علي بـن ظـافر، (ت٦٢٣هـ)، (تحقيق د. محمد زغلول سلام، والدكتور مصطفى الصاوي)، دار المعـارف، مـصر، (د.ت) ، ص٦٨-٦٩، ورد هذان البيتان مع اختلاف في رواية عجز البيت الثاني؛ إذ أورده الأزدي هكذا: (ومن به رقم مسطر).

وقال أبو المواهيب المعري، عبد المحسن بن صدقة بن عبد ا بـن جريـر، يـصف المرسى الطويل الذي أمر بمده القاضي أبو عليّ عمار بن محمد بن عمار من أعلى داره الجديدة إلى ظاهر طرابلس، وفيه هياكل من الوحش والخيل يتبع بعضها بعضا على ما جرت به العـادة في الاحتفال بميلاد المسيح عليه السلام، وكان ذلك مقاما مشهودا، ومن العجائب معدودا، وهـو إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على حضارة لافتة من مظاهر الاحتفال آنذاك[1]:

عـزتْ طـرابلُس فيالَـكِ بلـدةً طالـت بمالِكهـا علـى البلـدان
مـوج بظاهِرهـا ومـوج بـاطن سـبحان محرزهـا مِـن الطوفـان
يـا حـسنَها فـي ليلـةٍ راحـتْ بهـا فـي ا ِ وهـي كثيـرةُ النيـران
مـيلاد مـن لـم تَـشْتَهر أعمامـه لكـن خؤولَتَـه بنـو عِمـران
والـدار رابيـةُ البنـاءِ كأنّمـا حـل الوفـود بهـا علـى كيـوان
لاثوا بهـا مرسـا وقـد بطِـرتْ بمـا نظـرتْ بـهِ خوفـًا مِـن النـزوان
بـذ الخيـولُ بـه الأسـود وأُدركـتْ غِزلانُـه بكواسِـر العِقبـان
وانقـض فارسـه بـهِ فكأنـه نَجـم يـصوبه علـى شَـيطان

لقد شهد القرن الخامس الهجري نهضة عمرانية واسعة النطاق، لم تقتصر على القصور والدور والقباب والحمامات والبرك والنواعير، بل تجاوزتها إلى الخيم الكبيرة الواسعة، والجسور التي علت الأنهار، والمنارات، والمراسي، وتلك إشارات دالة كلّ الدلالة على رقي فكري، وانفتاح اجتماعي، وترف مادي، وهي سمات اندفع بها هذا القرن على نحو فاق غيره من القرون.

وبذا، تُعد العمارة الإسلامية من أهم الإنجازات الحضارية التي حققتها الحضارة الإسلامية في القرن الخامس الهجري؛ إذ اقتبست هذه الحضارة من سابقاتها ما يناسبها، ثم صاغته في قوالب فنية جديدة تفوقت بها على أقرانها دقّة وجمالاً، وكان الشعر راصدا لذلك كلّه، ومتتبعا له؛ فصور تلك المظاهر الحضارية تصويرا حسنـًا، عبر فيه عن ذوق مجتمعه الحضاري تعبيرا صادقـًا.

---

[1] خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص١١٧ - ١١٨.

الفصل الثاني

مظاهر الحضارة الطبيعية في شعر القرن الخامس الهجري، وتجلياتها في وصف:

أ- الرياض

ب- الورود، والرياحين

ج- الربيع

يعد شعر الطبيعة من الموضوعات الشعرية اللافتة، التي شدت انتباه الشعراء على مر العصور، حتى إنهم نظموا فيه شيئـًا كثيرا؛ فوصفوا كل ما وقع عليه بصرهم من عناصر الطبيعة الحية والصامتة. ولو استقرأنا الشعر الجاهلي – مثلاً - فإننا نجده زاخرا بوصف المظاهر الطبيعية التي كانت تحيط بالإنسان الجاهلي، من مثل: الصحراء وحيوانها، والسماء ونجومها وأقمارها، حتى إنه لا تكاد تخلو قصيدة جاهلية من هذا الوصف. يقول شوقي ضيف: "لعلنا لا نبالغ إذا قلنا: إن الطبيعة دائما كانت ملهما بالغ التأثير في نفسية الشاعر العربي، وقد مضى أسلافه في الجاهلية يصدرون عنها في أشعارهم، فلم يتركوا كبيرة ولا صغيرة في صمتها ولا في حركتها من غير أن يرسموها في أشعارهم، فهم يصورون فلواتها بكثبانها ورمالها وغدرانها وغيثها وسيولها وخصبها وجدبها ونباتها وأشجارها وحيوانها وطيرها وزواحفها وهواجرها، وما قد ينزل ببعض مرتفعاتها وأطرافها من البرد وقوارصه"[١].

ولما كان وصف الطبيعة في الشعر العباسي، وتسجيل خصائصها يعد امتدادا لشعر الطبيعة في العصور السالفة، فإن فيه جنوحا نحو التجديد في الموضوعات والأساليب؛ إذ رسم شعراء القرن الخامس الهجري لوحاتٍ فنية رائعة للطبيعة، بينوا فيها مفاتن جمالها على نحو لافت.

وقد كانت خزائن دولة الخلافة العباسية ممتلئة بالأموال التي تأتيها من أطراف البلاد الإسلامية التابعة لدولة الخلافة آنذاك؛ لذا بالغ خلفاء بني العباس ورجال الدولة وأصحاب المال والجاه في بناء القصور الأنيقة التي حفلت بها المدن العربية، وأغرموا بتزيينها، وأسرفوا في زخرفتها داخليا وخارجيا. ثم أضافوا إلى جمالها جمالاً آخر أخّاذًا هو جمال الرياض التي أحاطوا بها قصورهم، وأجادوا تنسيقها وتزيينها أيما إجادة.

وما دام الشعر العباسي قد واكب الحضارة العمرانية على النحو الذي مر في الفصل السابق، من وصف للعمران الخارجي والداخلي، فقد كان طبيعيا أن يمضي الشاعر، بعد أن تلهب خيالاته تلك الحدائق الملتفة الغنّاء، في نظم قصيدة شعرية يصور فيها ما يحيط بالعمارة من جنائن ورياض. وإذا كان الشعر دائما صدى للبيئة، اجتماعية كانت أم طبيعية أم عمرانية، فإن الشعر العباسي في القرن الخامس الهجري يعد في هذا النطاق صورة أمينة للبيئة العربية؛ حيث إنه جعل الرياض حية، والورود والرياحين ناطقة، والربيع لوحة تنبض بالحياة، كما سيبدو من خلال النماذج الشعرية التي ستتطرق إليها الدراسة.

---

[١] ضيف، د. شوقي، الشعر الإسلامي، (د. ت)، (ط٧)، مصر، دار المعارف، ص ٣٨٥.

أ- الرياض [١]

لعلّ أبدع ما يلفت النظر في أحضان الطبيعة جمالُ رياضها. لذا، راح الشعراء العباسيون يجسدون هذا الجمال بوصفها وصفـًا ينم عن براعة وذوق، مطنبين في تمثيل خصائصها، ومجيدين في تجسيد محاسنها.

وفي القرن الخامس الهجري توافرت أسباب غنى الأرض؛ فترفت المعيشة، وأُنشئت الحدائق الجميلة، واعتني بالرياض الغنّاء من حيث التنسيق والتزيين، وأُقيمت مجالس اللهو والمرح. وكانت نتيجة ذلك أن أكثر شعراء هذا القرن من وصف الرياض، وصفـًا ظهر أثر تتمثل الحضارة في صوره الفنية ومحسناته البديعية وألفاظه وعباراته على نحو جلي، مشيرين إلى مواطن روعتها وجمالها وبهائها، وجاعلين إياها صورا نابضة تدب فيها الحركة والحياة.

ولما كان الوصف كلمة تندرج تحتها معانٍ كثيرة؛ إذ إن "الشعر كلّه إلا أقلّه راجع إلى باب الوصف" [٢]، فقد تعددت مظاهر وصف الرياض في الشعر العباسيّ، وكثرت وسائله، حتى إننا نجده مقترنًا بالمديح، وبالغزل، وبالحنين إلى الديار، وبغير ذلك. فالجمال مبثوث حول الشاعر، ويحيط به من كلّ جانب، حتى إنه يجري منه مجرى الروح في البدن، كيف لا والطير من حوله تغني، وعلى إيقاع غنائها ترقص الغصون، يقول ابن أبي عقامة الحفائلي [٣]:

وبكْـرةٍ مـا رأى الـراؤون مـشْبِهها ... كأنـما سـرقت سِـرا مـن الزمـن
غيم وظِـل وروض مونـقٌ وهـوى ... يجري من الروح مجرى الـروح فـي
غَنتْ بها الطيـر ألحانًـا وساعدهـا ... رقْص الغُصون على إيقاعِهـا الحسـن
فقد سكـرتُ ومـا الـصهباء دائـرةٌ ... فيهـا ولا نَغَمـاتُ العـودِ في أُذُنـي

فلجمال الروض أثر كبير فيه، حتى إنه يفوق ما تفعله الخمر إذا دارت، وما يصنعه العود إذا حلّت نغماته في أُذنه. ويلحظ أن الشاعر استعان على إيراد صوره الحضارية بصور فنية راعى فيها الجمال والإبداع، وأنه أحسن إذ اختار لجرسه الموسيقي مفردات عذبة اقتبسها من بيئته الحضارية.

---

(١) الروضة: الأرض ذات الخضرة والبستان الحسن، ويقال: مجلسه روضة: جميل ممتع، (ج) روض ورياض. للمزيد، انظر لـسان العرب، مادة (باب راض).

(٢) القيرواني، أبو علي الحسن ابن رشيق (ت٤٥٦هـ)، العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج٢، مكتبة الخـانجي، القـاهرة، ١٩٠٧م، ص٢٢٦.

(٣) الأصفهاني، عماد الدين الكاتب، (ت٥١٩هـ)، خريدة القصر وجريدة أهل العصر، قسم شعراء الـشام، ج٣،، (تحقيـق شـكري فيصل)، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٩م، ص ٢٤٣.

أما ابن حيوس[١]، فيكاد يكون روضه أو متنزهه أجمل؛ إذ يصوره سماء وزهره نجوما، فإذا عكست الشمس أشعتها عليه بدا دينارا، بينما إذا عكس القمر نوره بدا درهما، يقول[٢]:

بأذيــال دوحٍ نـَيرِيـــي كأنّـــــه   سماء دجى أبدت مـن النـور أنجمـا
إذا قابلـَتْ شمس الأصـائل مـا عـلا   تدنـــر، وبـدر الظــلامِ تدرهمـــا

وفي الروض الجميل يحلو العيش، ويطيب المقام بين غدرانه ووروده، يقول أبو المظفّر الأبيوردي [٣]:

وهلْ أتناسى العيـشَ غَـضـا كأنـّه   أُعير اخضرارا فـي عِــذار غُـلامِ
بأرضٍ كأن الـروض فـي جنباتهـــا   يجـر ذيـولَ العـصبِ فــوقَ أكـامِ
إذا صافحتْ غدرانَها الـريح خِلْتَهـــا   تدرج أثـــرا فـي غـــرارِ حـسامِ
ونـام حـواليهـا العـــرار كأنهـــا   تديـر علـى النّـــوار كـأس مـدامِ

فالعيش في هذا الروض هنيء، والحياة بين جنباته رغدة.

وكأن أبا المظفر كان يعشق الإقامة في الرياض الموشاة بالزهور، صافية المياه، كثيرة الطيور؛ إذ نجده في موضع آخر يصف مكانًا نزل به، فيقول [٤]:

ويـومٍ طوينـا أبرديـــهِ بروضـــةٍ   ينَشـر فيهـا الأتحمِـــي المعـضـد
ونحن على أطـرافِ نهـــرٍ تُظلـــه   أزاهيرها، والـشمس فيهـــا تُوقـــد
وتَبسِـم في رأدِ الـضحى وتؤودهـــا   أبابيـلُ مـن طيـــرٍ عليهـــا تُغَـرد
شربنـا بهـا ماء تُغازلُـــه الـصبـا   فيصفـو، ويقتـاتُ النـسيـم فيبـــرد
إذا ما ذَكرنـا طيبـه بعـــد برهـــةٍ   من الدهـر عاودناه، والعـود أحمـــد

أما ابن الهبارية، فيصف في أبيات مزدوجة هذا المنزل الأنيق، قائلاً [٥]:

فبــان لـي إذا لمـــع الحـســام   وانجـاب مـــن لألائــــهِ الظــلام
نخـلٌ وأثـلٌ فقـصـدتُ قـصـــده   وقلـتُ أُمـســـي وأبيـــتُ عِنـــده
حتـــى إذا مـــا جئتُـــه وجدتـــه   يهفـو علـــى روضٍ كمـا أردتُـــه

---

(١) محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس، الغنوي، الأمير أبو الفتيان مصطفى الدولة. شاعر الشام في عصره. رحـل إلـى حلـب، وانقطع إلى أصحابها (بني مرداس)، فمدحهم وعاش في ظلالهم إلى أن توفي فيها سنة (٤٧٣هـ). انظر: وفيات الأعيـان ٤٣٨/٤، شذرات الذهب ٣٤٣/٣، الأعلام ١٤٧/٦.

(٢) ديوان ابن حيوس، ج٢، ص ٦٠٠.

(٣) ديوان الأبيوردي، ج٢، ص ٣٢٦.

(٤) ديوان الأبيوردي، ج٢، ص ٧٦- ٧٧.

(٥) ديوان الصادح والباغم: أراجيز قصصيـــة على أسلوب كليلة ودمنة، أبو يعلى محمد بن محمد بـن صـالح المعـروف بـابن الهبارية، (ت ٥٠٤هـ)، (نشره وشرح ألفاظه وترجم للمؤلف: غزت العطار)، ١٩٣٩م.، ص٣١.

عيـ ـون مـ ـاءٍ وريـ ـاضٍ أشْبـ ـه   تسمـ ـع للطيـ ـور فيهـ ـا جلْبـ ـ ـه
فقلـ ـتُ هـ ـ ـذا مـ ـنزلٌ أنيـ ـقٌ   وإنّـ ـ ـه ينجعتـ ـ ـي خليـ ـ ـقٌ

فهو روض كثير الأشجار، التفّ بعضها ببعض حتى لا يستطاع الخروج منها، وهو على ذلك مكان يحلو فيه المقام، ويصلح لأن يكون مقصدا لطالب السكن والطمأنينة والهدوء والجمال.

وإن رحل الشاعر عن تلك الرياض الغنّاء، ذوات الحسن والجمال، التي تشتهر بنسيمها العليل، وتحلو بنباتها الذي ظهر زهره الأبيض، ويحكي أُقاحها الغض إذا بدا تبسم المرأة الحسنة الشابة عن لؤلؤ متفرق محدد، فإنه – أي الشاعر - يحن إلى تلك المواضع، ويرنو ببصره إليها، ويظلّ قلبه وفكره متعلقين بها. وفي هذا المعنى يقول ظافر الحداد متشوقـًا إلى ثغر بلدته الإسكندرية[1]:

أأيامنـا بالثغـر هـ ـلْ لـ ـكِ عـ ـودةٌ   إلى حافـ ـظٍ للعهـ ـدِ لـ ـم يتغيـ ـ ـر
وهـ ـلْ أتملّـ ـى من نـ ـسيمكِ سحـ ـرةً   يصافح مطلـ ـولَ النبـ ـاتِ المنَـ ـور
وأرفـ ـلُ في ثوبي صبـ ـا وصبابـ ـةٍ   وأسحـ ـب ذيلـ ـي مِـ ـشيةَ المتَبخِتِـ ـر
ودمـ ـع النّدى في وجنةِ الوردِ حائـ ـر   كجـ ـامِ عقيـ ـقٍ تحـ ـتَ در منَثـ ـر
ونَور الأقـ ـاح الغض يحكي إذا بـ ـدا   تَبسـ ـم خـ ـودٍ عـ ـن شـ ـتيتٍ مؤَشـ ـ ـر

ويستطرد هذا الشاعر المشتاق واصفـًا جمال بلدته، التي تزدان برياضها الأنيقة، قائلاً:

كأن بيـ ـاض الماءِ في كـ ـلّ جـ ـدولٍ   إذا لاح في غُصنٍ من الروضِ أخـ ـضر
غِلالـ ـةُ شَربٍ ضمها فـ ـوقَ لابـ ـسٍ   رشيـ ـقٌ قَبـ ـاءٍ أخضـ ـرٍ لـ ـم يـ ـزرر
إذا جمشَـ ـت أيدي النـ ـسيـ ـمِ متونَهـ ـا   حكَت من حبيـ ـكِ السردِ كـ ـل مقَـ ـدر
وإن نَعـ ـرتْ فيهـ ـا النّـ ـواعير رجعـ ـتْ   بها الطير ألحـ ـان الغنـ ـاءِ المحـ ـرر
كأن الغُصـ ـون المائـ ـساتِ رواقـ ـ ـص   تثنّـ ـتْ علـ ـى إيقـ ـاعِ دف ومِـ ـزهر
تضايقـ ـتِ الأشجار في الجـ ـو فوقهـ ـا   سوى فُـ ـرجٍ تُهـ ـدي الـ ـضياء لِمبـ ـصِر
فَيبسطُ منهـ ـا الـ ـبدر كـ ـل مدرهـ ـمٍ   وتَنْشـ ـر منهـ ـا الشمس كـ ـل مـ ـدنر

فهي روضة إن لاعبت أيدي النسيم ماءها ظهر مثل درع محكمة الصنع، خرير ماء نواعيرها لحن تردده الطيور وهي تغنّي، وغصونها التي تتمايل يمنة ويسرة كأنها نساء يرقصن على ضرب الدفوف وهز المزاهر، أشجارها كثيفة ملتفّة، وزهورها البيضاء والصفراء تضفي عليها جمالاً فوق جمال.

فظافر الحداد قد أُلهم قدرة على الوصف سخّرها بمهارة وإبداع في إخراج تلك اللوحة الجميلة في وصف الروض. وإن وقفة قصيرة مع أبيات هذا الشاعر تجعل قارئها يدرك أن

[1] ديوان ظافر الحداد، ص١٤٢- ١٤٣.

ظافرا قد اختار كلماته بعناية ودقّة، وحملها كلّ ما باستطاعتها أن تحمل من معانٍ ودلالات، مستعينـًا على تحقيق مراده بصور فنية جميلة وخيال رحب.

وفي موضع آخر، ينازع الشوق ظافرا إلى ثغر بلدته الإسكندرية، وتحمل إليه أنفاس النسيم بهجة رياضه التي زادتها مجالس الأنس وذكريات الأحبة جمالاً فوق جمال، فيقول[١]:

وفي الطير والدولابِ شـادٍ وزامــر ... لدى شجـرٍ تُجلـى بهــن العـرائس
كأن الربا في الزهـر والمـاء حولهـا ... قلانس وشــي حولهــن طيالـسِ
كأن بياض الماءِ في كـلّ جــدولٍ ... نُصولُ سيوفٍ أخلصتها المـداوس[٢]
كأن نباتَ النّرجسِ الغَــض إذ بــدا ... شراريب خُـضر فوقهــن كبـائس[٣]

يظهر مما تقدم من شعر قاله ظافر الحداد وهو في القاهرة مشتاقـًا إلى الإسكندرية، أنه لم ينس بلدته، رغم أنه عاش فيها محدود الرزق بينما كان في القاهرة على شيء من اليسار. وجلّ شعره في الإسكندرية يدلّ على أنه عاش معذّبا، يعاني التمزق النفسي، والشعور الحاد بالغربة والضياع، والحنين الجارف إلى تلك البلدة التي مثّلت له الجمال والشباب والحب؛ فمنحها أجمل ما منح من شعر يصور مشاعره تلك[٤].

وقد صور طلحة بن أحمد النعماني[5] الرياض أجمل تصوير؛ إذ رسم لخميلة لوحة جميلة تنم عن ذوق حضري وإحساس مرهف، فقال [٦]:

أعِبـاب داري [٧] تَفُــض وتَفْتَــقُ ... أم ذي الخميلــةُ عرفُهــا يتَنَــشقُ؟
خَلَع العِهـاد[٨] على المعاهـدِ حلــةً ... يزهــى بـسنْدسِ نَورهـا الإستبرقُ
طلت[٩] دموع الـسحبِ فـوق طُلولهـا ... فَربوعهـا فيهــا الربيـع المؤنــقُ
وتفتّحـتْ حـدقُ الريـاضِ نواضِـرا ... بنواظــرٍ نحــو الـسماء تُحــدقُ
والمـاء يبدر فـي الوقائــع لامعـا ... كالبحـر مـع نُـور الغزالـةِ يـشرقُ

---

(١) ديوان ظافر الحداد، ص ١٦٨.

(٢) المداوس: جمع مدوس، وهو آلة صقل السيوف. لسان العرب، مادة (دوس).

(٣) الكبائس: جمع كباسة، وهي العذق الكبير يحمل التمر. لسان العرب، مادة (كبس).

(٤) ديوان ظافر الحداد، ص (ز).

(٥) شاعر مداح رجح العماد أنه من أهل العراق، تنقّل بين مواضع عدة، وتوفي سنة (٥٢٠هـ). انظر: خريدة القـصر، قسم شعراء العراق، ٣/٢، معجم الأدباء ١٢/٢، بغية الوعاة ٢٧٣، الأعلام ٢٣٠/٣.

(٦) خريدة القصر، ج٢، ص٣٨-٣٩.

(٧) داري: أي مسك داري، نسبة إلى (دارين) منطقة بالبحرين، كان يجلب إليها المسك من الهند.

(٨) العهاد: جمع عهد، وهو أول مطر الوسمي. لسان العرب، مادة (عهد).

(٩) طلّت: طلّت الأرض ونحوها: أصابها الطلل، فهي مطلولة. والطلّ: المطر الخفيف يكون له أثر قليل، وفـي التنزيـل العزيز: "فأن لن يصبها وابل فطل". لسان العرب، مادة (طلّ).

فإذا تخـالَ فـي الخمائـ ـل خِلْتَـ ـه   صِـلاً يحاذِر وقْـع نَـصـلٍ يمـرقُ
تتراقَص الأغصان مـن فَـرحٍ بـ ـهِ   ويمـ ـر بالأنهـار وهـ ـو يـصفِّـقُ

هي روضة جميلة طيبة الرائحة ذات زهر أبيض زاهٍ، ربوعها حسنة تعجب الناظر إليها، وماؤها لامع مشرق يتخلّل مسرعا. رسمها فنان استطاع بدقة أنامله وجميل تصويره وعمق خياله أن يشكّل منها لوحة بديعة، تظهر معالمها فرحة منتشية راقصة كما أغصانها.

وقد يتوصل الشاعر إلى المديح بوصف الطبيعة وما فيها من رياض أنيقة وورود جميلة ونسيم عليل، فيمزج ذلك كلّه جاعلاً ممدوحه سبب ذاك الجمال ومصدره، ومن ذلك قول ابن أبي حصينة مادحا معز الدولة أبا علوان ثمال بن صالح [(١)]:

وخيـم بالحاوي [(٢)] فتًـى باتَ حاويـا   مناقِب غُرا مـن حواها حوى المجـدا
إذا النـور أهدى نفحـةً من نـسيمـهِ   فمن عِرضِهِ أهدى النسيم الـذي أهـدى
تأمـلْ بعينيـك الفِـجـاج كأنّهـ ـا   مـكلّلـةٌ وشْيـا مـجلـ ـةٌ بـ ـردا
غَنينـا بِرياهـا عـن المـسكِ كلّمـ ـا   تَهـادى، وأَنْـستنا شقائقُهـ ـا الـوردا
ريـاض كأخـلاق الأميـ ـرِ أنيقـ ـةٌ   تَمـج شِفاه الأرض من ريقِهـا بـردا
كأن الحِسان الغِيد جـ ـزن بأرضهـ ـا   فَألْقـت عليهـا كـل غانيـةٍ عِقْـ ـدا

فما نفحات النسيم التي تحمل رائحة الورد من هذا الروض إلا بعض ريح هذا الممدوح، الذي يتّصف بأخلاق جميلة حسنة.

أما الشاعر الأسفراييني، فيمدح نظام الملك جاعلاً إياه سببا لزينة الأرض، التي ظهرت مختالة في رداء أخضر، بينما بدت الشمس في كبد السماء كأنها مرآة من ذهب في قعر ماء، يقول [(٣)]:

يا صـاحِ عـرج بـالمطي ولا تَقُـ ـل   أعـزز علـ ـي بفُـ ـرقة القُرنـ ـاءِ
فالأرض قـد زينـتْ بكـل بديعـ ـةٍ   وتبرجـ ـت فـي حلـ ـةٍ خـضـراءِ
والشمس في حبـكِ الـسمـاءِ كأنهـ ـا   مـرآةُ تِبـ ـرٍ فـ ـي قَـرارة مـ ـاءِ
والسحب تسمـح بالقطـ ـارِ كأنهـ ـا   تحكي نظـام المـ ـُلكِ فـي الإعطـاءِ

فهذا الجمال كلّه، وذاك الحسن جميعه بسبب الممدوح، حتى إن السحب إذا أمطرت ماء كثيرا فإنها بذلك تكون مقلّدة عطاء نظام الملك وكرمه.

---

(١) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص ٢٦٨ – ٢٦٩.

(٢) الحاوي: من متنزهات حلب الجنوبية. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص ٢٢٧.

(٣) دمية القصر، ج٢، ص ٣١٦.

ولما كان نظام الملك حسن السيرة كثير العطاء، فقد أكثر الشعراء من مدحه، وأسبغوا عليه صفات حميدة صاغوها في قوالب عديدة، منها تشبيهه بالرياض تارة، وبالمطر الذي يبعث الحياة في تلك الرياض تارة أخرى. يقول الطغرائي مادحا إياه، ومهنئـًا بالوزارة [١]:

هـم الحي ما بيـن العذَيبِ إلى الرمـل   حلولاً على البطحاءِ من ملْتقى الـسبـل
دعاهم إلى الجرعــاء مـن أيمــن   تَخَلـج بـرقٍ مخْفِرٍ نَمـةَ المحــل
غَــدوا يبتغــون القطــر حتــى   بمرتفـعٍ بالخِصبِ مغْتَبِـق النفْـل
أَلــَث عليــهِ كــل جــونٍ   يسف إلى أن يمـسح الأرض بالخَمـل
فما انجاب حتى استأصلَ العِـرقَ فـي   وصار رضيع النّبتِ يحبو على الكَهـل
وحتــى تناصــى العــشْب فيــهِ   عروقُ الندى واستَجمدتْ عذَب الأثْـل
كأنـك قــد شاطرتهـا الخِلْـع التـي   حباك بهـا السلطان عن قِسمـةٍ عـدل
غَـداةَ كـسـاك الـروض وهــو   ولـيس له إلا سماحـك مـن وبـل

فالغيث قد بعث في الروض الحياة والخصوبة، فأطلع النبات المثمر والأزهار الجميلة اللامعة، التي أثارت إحساس الشاعر الحضاري وحركت ذوقه فصاغ هذه الأبيات البديعة. وما هذا الغيث الذي تجددت به حياة الروض، وزهت بسببه الورود والأزهار، وانتشر العشب، إلا بعض سماح نظام الملك، الذي بثّ بجوده وعلمه وحكمته وعدله الأمل والحياة في قلوب الكثيرين من أبناء عصره.

أما ابن العلاني المعري [٢]، فقال في فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس الشام، مثنيا عليه ومادحا صفاته [٣]:

مـا روضـةٌ غنّـاء أشـراطيــةٌ [٤]   أُنُـفٌ ينُــم بهــا نـسيم العبهــر
ولـي الحيـا تـدبيجهــا فـكأنّــه   واشـي رقــومٍ أو مقَــوم أَسـطُر
يختـالُ جــو تِلاعِهــا ووهادِهــا   فـي وارفٍ واصـي[٥] النبـاتِ منَـور
عَبقَتْـه سـاريةُ الغَمائــمِ واجتلــى   بالنور من صـوغ الربيـع المبكِــر
كصفاتِ فخر المــلكِ فـي إنـشائهـا   زهـر الثنـاءِ بوبلهــا المـستَمطِـر

---

(١) ديوان الطغرائي، ص ٢٧٢- ٢٧٣.

(٢) أبو الحسن علي بن إبراهيم، من الشعراء المذكورين، سافر إلى مصر، ومدح الأفضل. انظر: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ٧٧/٢، والمصدر نفسه، قسم شعراء مصر، ٢٣١/١.

(٣) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٧٩.

(٤) روضة أشراطية: مطرت بالشرطين، وهما نجمان. لسان العرب، مادة (شرط).

(٥) وصى النبات: كثر واتصل. لسان العرب، مادة (وصل).

فصفات فخر الملك العظيمة، وخصاله الطيبة، وأخلاقه الحميدة تفوق جمال هذا الروض البديع، وتزيد على محاسنه.

إذن، كان وصف الرياض، التي تعد مظهرا حضاريا في زخرفتها وتنسيقها وتزيينها، أحد مداخل الشعراء إلى ممدوحيهم، حين يطلقون عناصر وجودها الجميلة تقديرا للممدوح. ولعلّ ما قيل في هذا السياق ليس وصفـًا للرياض بذاتها، وإنما استغلال لطاقات الشاعر جميعها في التعبير عن ولائه لممدوحه.

ولما كان الماء يمثّل الحياة، فإن الرياض ترتشف المطر، فتفرح وتبتهج لأنها سوف تلبس ثوبا أخضر زاهيا. ولأهميته – أي المطر - فقد ذكره الشعراء في سياق وصفهم للرياض، فهذا روض لأبي المظفر الأبيوردي ينتشي بالمطر، فيشفى غليله، وينتشر الربيع في جنباته، يقول[1]:

ومـا روضـةٌ تَشْفي الجنوب غَليلَهـا ... بذي وطَفٍ مـن غائر المـزن منْجِـدِ
كأن الربيـع الطلْـقَ فـي حجراتهـا ... يجـرر ذَيـلَ الأتحمِـي المعـضـدِ
بأطيـب نَشـرا مـن شمائلـهِ التـي ... يلـوذُ بهـا جـار وضـيفٌ ومجتَـدِ

فالشاعر إذ يذكر جمال هذا الروض ويعدد محاسنه، فإنه يفضل عليه ممدوحه، الذي تتصف شمائله بأنها أطيب نشرا؛ فالجار والضيف والمجتدي يلوذون به ، فيكفيهم ويحميهم ويعطيهم سؤلهم.

ومن الشعراء الذين أحبوا الطبيعة العقيلي؛ إذ افتتن بها، فعاش فيها مستغرقـًا هائما في مباهجها وبدائعها، وقد تجلّى هذا الاستغراق وذاك الهيمان في الصور العديدة التي أودعها إحساسه بالطبيعة ووصفه وجوهها المشرقة الساحرة. يقول في وصف جو ماطر أصاب الروض منه حظّه[2]:

الرعـد منتحِـب والبـرقُ ملتهـب ... والقطـر منسكِب والمـاء مـضطـرِب
والروض مبتسـم والـزهر منتظـم ... والشمـس تُسفِـر أحيانـًا وتنتقِـب
والغيـم فـي الأفْـق ممدود سرادقُـه ... والطير يصفِـر والأوتـار تَـصطخِـب
والجـو هـام كصـب صـد آلِفُـه ... فدمعـه واكـفٌ تَحتثـه الكُـرب

فالروض في هذا الجو سعيد أيما سعادة، يظهر مبتسما، ويبدو زهره منتظما، يصفّر فيه الطير فرحا، وتتراقص الأغصان طربا. إنه جو بديع، ملأ فيه الماء المكان، حتى إنك ترى الورد ضاحكـًا منتشرا، يقول[3]:

والـورد يضحـك والمنثـور منتـشـر ... كأنّـه جوهـر فـي الأرض ينْتَهـب

---

[1] ديوان الأبيوردي، ج١، ص٤١٩.
[2] ديوان العقيلي، ص٦٢.
[3] المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

واليـاسميـن كمثـل الـدر تَنْثُـره علـى جواهر أزهار الربى القُـضـب
كأنمـا النرجـس الـبزري حين بـدا علـى الغُصون لُجيْـن حشْوه ذَهـب

إنه نظم راقٍ اعتنى فيه صاحبه بالاستعارات والتشابيه وفنون البديع، واهتم بجزالته وحلاوة معناه ودقّة تصويره، وابتعد فيه عن الركاكة، وحرص على أن يجعله مشرقـًا. إنه بحقّ شعر حضاري مثّل حضارة القرن الخامس الهجري الطبيعيةَ خير تمثيل.

فالروض لا ينبت ورده، ولا ينمو زهره، ولا يزدهر عطره إلا إذا روى المطر ترابه؛ فأحيا فيه ما كان ميتـًا. والأبيوردي قد هام بالطبيعة؛ فنبضت مع الرياض والحدائق والبساتين مشاعره وأحاسيسه، فصور جمالها تصويرا رائعا، فُتن الناس به لأنه مطبوع، وبعيد عن التكلّف والافتعال، مع العناية التامة بالمعاني الحضرية التي لاءمت حياته وبيئته.

وأجمل ما تكون الرياض في نظر الأبيوردي، بهجة وبهاء ونشوة، في ليلة ماطرة. ومما قاله في هذا الخصوص[١]:

وليلـةِ نَعمانٍ[٢] وشى البـرقُ بالهـوى ألا بأبـي بـرقٌ يمـانٍ ونَعمـان
سرى والدجـى مرخًى علينـا رواقُهـا يلأوي المطـا وهنًا كما مـار ثُعبـان
ونحـن بحيـثُ المـزن حـل نِطاقَـه ورف يحضنيهِ عـرار[٣] وحـوذان[٤]
وللرعـد إعـوالٌ، وللريـح ضجـةٌ وللدوح تصفيـقٌ، وللـورق إرنـان
فَلِلـه حـزوى حيـن أيقـظَ روضهـا رشاشُ الحيا والنجم في الأفْـق وسـنان
إذا ما النسيـم الطّلـقُ غـازلَ بانَهـا أمالَ إليـهِ عِطفَـه وهـو نَـشْـوان

لقد جاد الغيث على روض الأبيوردي، ونزل عليه بغزارة، فأصبح الروض مزهوا بنبته الجميل طيب الرائحة، وطيره الطروب، ونسيمه العليل.

وكما صنع الغيث في روض الأبيوردي، نجده يصنع في روض العقيلي؛ إذ رسم الأخير لوحة طبيعية ظهر فيها الغيم في السماء كثيفًا، وجعل الرعد يسجع والبرق يلمع، فيتساقط الغيث من المزن مدرارا على ذاك الروض البهي بزهره، البديع بنبته، الذي تضحك غدرانه كلما مرت عليها الصبا، يقول العقيلي [٥]:

الغيـم يبسـطُ في السمـاءِ ويفْـرشُ والزهر يخْرطُ في الريـاض وينْقـشُ
والرعد يسجـع والسحـاب مطنّـب والبـرقُ يلمـع والنّـدى يتَرشّـشُ

[١] ديوان الأبيوردي، ج١، ص ٢٤٦- ٢٤٧.
[٢] نعمان: وادٍ ينبت الأراك، وقيل: وادٍ لهذيل، وقيل غير ذلك. انظر معجم البلدان، ج٥، ص٢٩٣.
[٣] عرار: نبت طيب الرائحة. لسان العرب، مادة (عرر).
[٤] حوذان: نبت نَوره أصفر. لسان العرب، مادة (حوذ).
[٥] ديوان العقيلي، ج٢، ص١٩٠.

والنبـ ـتُ منتـشِـر فمنـ ـه مدبـ ـ ـج   تُجلـى الغصون بـهِ ومنـ ـه مريـ ـشُ
والغُدر تضحـك عـن ثُغـور حبابهـ ـا   ممـ ـا تُدغدغُـ ـه الـصبـا وتُجمـ ـشُ

وقد يصف الشاعر الروض في سياق وصفه من يحب من النساء، مضيفـًا إليها من صفات ذاك الروض الجميل ما يزيدها جمالاً، ومفيضا عليها من حسن تشبيهه الكثير من مظاهر الروعة وصنوف الإبداع. ومن ذلك قول الأبيوردي(1):

ومـا أضـاء البـ ـرقُ مـ ـن ثغـ ـرهِ   إلا تَجلّـ ـ ـى حبـ ـب فـ ـ ـوقَ راح
كأنـ ـ ـه الروضـ ـ ـةُ مطلولـ ـ ـةٌ   لهـ ـا اغتبـ ـاقٌ بالنّـ ـدى واصـ ـطِباح
إن مطَـ ـرت عليهـ ـا دمـ ـوع الحيـ ـا   ظلّـ ـت بأنفـ ـاسِ النعـ ـامى تُـ ـراح
فـ ـالطرفُ – إن مرضـ ـه – نَـ ـرجس   والخَـ ـد ورد، والثغـ ـور الأقـ ـاح

فالشاعر قد شبه ريق محبوبه بالخمر، وثغرها بالحباب، ذاكرا أن هذه المرأة الجميلة تشبه الروض الذي أصابه الطلّ؛ لأن الروض أحسن ما يكون عند السقي. فضلاً عن أن طرفها– إذا مرضت- يشبه النّرجس، وخدها أحمر مثل ورد الرياض، وثغورها أيضا أقاح.

أما الغزي(2)، فيعرج في أثناء مدحه على ذكر روضة غنّاء، مفضلاً عليها امرأة ذات حسن وجمال؛ إذ يقول (3):

ومـا روضـةٌ ممطـورةٌ نَثّـ ـر الـصبا   عليها جمـان الطـل فـي سـحرٍ نَـضر
قَبلْبلُهـ ـا يـ ـشدو بألحـ ـان معبـ ـدٍ   وقمريها يقْـرا بِحـرفِ أبـي عمـرو (4)
وقـ د كتبـ ـتْ فيهـ ـا الجـ داولُ أسـ طرا   يقَـ صر عـ ـن إعجامهـ ـا نُقَـ ـطُ الحِبـ ـر
بأحـ ـسن منهـ ـا للـ ـسلامِ مـ ـشيرةً   بـ درسِ خِـ ـضابٍ فـ ـي أنامِلهـ ـا العـ ـشْرِ

إن هذه الروضة المرأة رائعة؛ فهي قد جمعت كلّ بهجة ونمت عن كلّ جمال؛ إذ مطرت بطلّ الصبا، هذا الجمال المنتشر في وقت السحر، يلتقي بصوت البلابل والقماري التي تقرأ بحرف أبي عمرو. إن هذا الإنشاد في هذه الاحتفالية الجميلة ليؤكد روعة الارتباط الجمالي.

وللغزي لوحة طبيعية أخرى يتذكّر فيها أياما خلت، كان فيها على غدير ماء بروضة غنّاء يتصيد مجموعة من النساء اللواتي يشبه لحاظهن السيوف، يقول(5):

---

(1) ديوان الأبيوردي، ج١، ص ٤٦٤.

(2) أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى بن عثمان بن محمد الكلبي الأشهبي الغزي: شاعر مجيد، من أهل غزة بفلـسطين. ولـد بها، ورحل رحلة طويلة إلى العراق وخراسان، ومدح آل بويه وغيرهم. توفي بخراسان سنة (٥٢٤ هـ)، ودفـن بـبلخ. انظر: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ٤/١، وفيات الأعيان٥٧/١، شـذرات الـذهب ٦٦/٤، الأعـلام ٥٠/١، معجـم المؤلفين ١٢٦/١.

(3) ديوان الغزي، أبو إسحق إبراهيم بن عثمان بن محمد الكلبي الأشهبي (ت٥٢٣هـ)، (تحقيق ودراسـة د. عبـدالرزاق حسين)، ط١، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ٢٠٠٨م، ص ٧٠٣ – ٧٠٤.

(4) أبو عمرو: زبان بن عمار التميمي المازني البصري، من أئمة اللغة والأدب وأحـد القـرّاء الـسبعة، تـوفي سـنة (١٥٤هـ). انظر: الأعلام ٤١/٣.

(5) ديوان الغزي، ص ٤٠٦- ٤٠٧.

وكــم تــصيدت والــصبا شَــركي ... سِــرب ظِبــاءٍ لحــاظهن ظُبــا
علــى غــديرٍ بروضــةٍ نظمــتْ ... نوارهــا حــول بــدره شُــهبا
يــدق فيــهِ الغمــام أســهمه ... فيكتــسي مــن نــصلها حببــا
ويعجــم الطــل مــا يخُــط علــى ... صــفحتهِ مــر شــمألٍ وصــبا
بــرود نقــشٍ كأنمــا خَلَــع الــ ... أيــم علــيهن بــرده طَربــا

فهذه لوحة طبيعية تبدو في صورة حركية؛ إذ الروضة تنظم نوارها في عقود حول الغدير، والغمام قائم على دقّ أسهمه، بينما يعجم الطلّ ما تكتبه الريح، فتظهر هذه الأعمال في لوحة قشيبة منقوشة بأروع البرود.

وقد تكون الروضة روضة ورد تتخذها المرأة ذات الخصر الجميل المتمايل مرعى، وهي فيها مثل الأقحوانة. وقد كانت هذه المرأة دخلت تلك الروضة خائفة، تحذر أن يراها الآخرون، وهي بذلك تسعى إلى أن تخفي لقاءها بمن تحب. يقول الأرجاني [(١)]:

وقد زارنــا روعــان يــسترقُ الخُطــا ... ليكــتُم وصــلاً، والكتــوم مريـــب
يتيـــه بِقـــد كلّمـــا هـــزه الـــصبا ... تمايــلَ ميــلَ الغُــصن وهــو رطيــب
وروضـــةُ وردٍ وســـطَها أُقحوانـــةٌ ... بهــا يحــسن المرعــى لــه ويطيــب

إنها لوحات جميلة وصور طبيعية بديعة أجاد الشعراء العباسيون في رسمها وتصويرها في معظم البلاد الإسلامية التي كانت تتشكل منها الدولة عصرئذٍ، فبدت هذه اللوحات وتلك الصور زاهية بما خلعه عليها هؤلاء الشعراء المجيدون من ألوان جميلة، وألفاظ فصيحة، وعبارات ذات طابع حضاري كانوا قد تلقفوها من البيئة الحضارية التي عاشوا فيها، وتفاعلوا معها إلى حد بعيد.

ب- الورود والرياحين

شاهد الشعراء العباسيون كثيرا من الزهور والورود في طبيعتهم الجميلة الغنّاء؛ فارتاحت لها عيونهم، وملكت عليهم أنفسهم حتى إنهم ذكروها في أشعارهم، وتأنقوا في وصفها وأبدعوا في تصويرها أيما تأنّق وإبداع. يقول عز الدين إسماعيل: "وقد كثر حديث الشعراء في العصر العباسي عن ألوان الزهور المختلفة، وجعلوا لكلّ لون دلالة معنوية خاصة، وكثيرا ما

[(١)] ديوان الأرجاني، ج١، ص ١٦٦.

كانوا يتهادون بالزهور، ويرسلون مع الهدية بطاقة فيها أبيات من الشعر، وقد كان ذلك كلّه مظهرا حضاريا فتح أمام الشاعر أُفقًا جديدا للوصف"[١].

ويجد دارس الشعر العباسي في القرن الخامس الهجري، بعض الشعراء قد وصفوا جمال الرياض، وذكروا ما تحوي من ورود ورياحين اشتركت يدا الطبيعة والإنسان في رعايتها والعناية بها؛ حيث اهتم العباسيون آنذاك بتنسيقها وتنظيمها في الحدائق والرياض لتضفي عليها جمالاً وتزيدها بهاء، وبخاصة حول تلك القصور التي بناها الخلفاء والأمراء والقادة العباسيون؛ إذ كانت تلك القصور "تختال بأنواع الورود والرياحين المنمنمة كأنها العذارى التي تختال ببرودها الموشّاة المزخرفة في يوم عرس، وهي لذلك تبدو في أجمل حلّة وأحسن منظر وأبهج محيا " [٢].

وقد ذكر شعراء القرن الخامس الهجري كثيرا من الأزهار والورود في قصائدهم، من مثل: الأقحوان، والشقائق، والنيلوفر، والجلّنار، والسوسن، والنرجس، والبهار، والنسرين، والريحان، والبنفسج، وتغنّوا بها واصفين جمالها الأخّاذ، وألوانها التي تبعث في العين رضى، وفي النفس راحة، وفي القلب نشوة وسرورا. فهذا ظافر الحداد يقول وقد حن إلى بلدته الإسكندرية[٣]:

وفوقَ الثرى خَز من الروضِ أخضر ... يقابلُ خزا في ذُرا الغيث أدكنا
ترى ذا يطُرز النور سفْلاً مخمَلا ... وذاك بِرقْمِ البرق علْوا محسنا
مكان بهِ زهر البساتين والفَلا ... تَخالُ عليهِ منه ثوبا مفَننا
بهارا وأزهارا وورداً ونَرجِسا ... وآسا ونسرينًا وجلاً وسوسنا
رياض حكى الديباج منها محاسنا ... فلو كُن ديباجا لأصبح مثْمنا

فمحاسن هذه الزهور ظاهرة للعيان، وألوانها تخالها ثوبا مزركشًا أبدعت في صناعته يد فنّان، حتى إنها تحكي الديباج حلاوة وحسنًا.

---

[١] إسماعيل، د.عز الدين، (١٩٧٥م)، في الأدب العباسي: الرؤية والفن، بيروت، دار النهضة العربية، ص٤٠٦-٤٠٧.
[٢] أبو سويلم، د. أنور عليان، (١٩٨٣م)، الطبيعة في شعر العصر العباسي الأول، (ط١)، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، ص٣١٦.
[٣] ديوان ظافر الحداد، ص٣٤٧.

ويؤكّد ظافر الحداد في موضع آخر من ديوانه جمال تلك الورود والزهور، مشبها إياها في الروض بفتاة حسناء تتمايل في ثيابها المزركشة الجديدة النظيفة، وباللآلئ، وبجِرمِ الشمس عند المغيب، وبالدنانير الذهبية؛ إذ يقول[١]:

وكـأن الـروض فيـهِ غـادةٌ … تتهـادى فـي الثيـابِ القُـشُبِ
والأقـاحي كـلآلٍ نُظِمـتْ … فـي حواشـي كوكـبٍ مـن ذهـبِ
وبهـار بـاهر هيئتُـه … مثـلُ جِـرمِ الـشمسِ عنـد المغـربِ
كالـدنانير، بـدت ألوانُـه … تُعـدِم الإعـدام كـف التـربِ

فهذه الفتاة الحسناء في ثيابها المزركشة إنما تمثل مظهرا حضاريا، وذلك التشبيه وتلك الصور الفنية تمثل جانبا حضاريا آخر. أما الشقائق، فشبه لونها الأسود ذا الحمرة القانية بالفحم في جمر ملتهب، وبخد الذي خجل أو الذي غضب، يقول[٢]:

وشـقيقٍ شُـققتْ أطمـاره … كـدموع العـارض المنْتَحِـبِ
أسـود فـي أحمـرٍ تَحـسبه … فَحمـا فـي جمرهـا الملتهـبِ
أو كخـالٍ لاح فـي وجنـةِ ذي … خَجَـلٍ فَـرطَ أو ذي غَـضبِ

فظافر الحداد يعنى برسم الشكل الخلاّب، وشعره دالّ على إرهاف حاسة بصره، وحسن استقباله الألوان والأشكال، ودقّة إخراجه الصور والأمثال، التي يحتال لها، ويتأنّق في صوغها، ويبدع في تصويرها.

ومما قاله ظافر أيضا، وفيه يجعل الروض وعاء ينشر رائحة الطيب، ويشخّص النور فيجعله يتبسم، مظهرا ألوانه البيض والصفر، وذاكرا البهار الأصفر، والشقيق الأحمر[٣]:

والروض يبعثُ مسكًا من نوافحِهِ … والطـل يفْتُقُـه والـريح تَجلِبـه
وقـد تبـسم نَـور مـن كمائمِـهِ … فَـلاح فِـضيه الزاهـي ومذْهبـه
وقد تبدت دنـانير البهـار علـى الـ … ـكثبان تُطْـرفُ رائيهـا وتُعجِبـه
صـفْر كنـاظرتي ليـثٍ تَكَنفَـه … ليـلٌ وقـد حـان مـن صـيدٍ تَوثبـه
وللـشقيق احمـرار حـين أخجلَـه … ضحك الأقـاحي حتـى كـاد يغْـضِبه

إنها صورة حضارية، تدلّ على مدى تحضر شعراء ذاك العصر؛ إذ جاءت الكلمات رقيقة، والصور بديعة، والمعاني دقيقة من غير إطناب أو تكلّف.

---

[١] ديوان ظافر الحداد، ص٤١.
[٢] المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
[٣] المصدر نفسه، ص٦٥- ٦٦.

ولما كان الشعراء كثيرا ما لجأوا إلى تشبيه الخدود بالورود، بجامع الحمرة والجمال، فقد أجاد بعضهم في هذا الوصف، وبرع في تصوير الألوان وتشبيهها بالشيء الحسن الجميل، فهذا أبو نصر الكاتب يقول في ذلك[1]:

ألستَ ترى وسطَ الحدائق نَرجِسا ... له حدقاتٌ من لُجينٍ وعَسجدِ؟
تيقّظَ عن نومٍ وما تم نومه ... فيرنو بعينٍ مثل عين المسهدِ
ونَور الأقاحي قد تَبسم ضاحكًا ... كبدرٍ حواشيهِ تُزان بِفَرقَدِ
تطير الصبا بالوردِ من كلّ جانبٍ ... فكم منْهمٍ مما يطير ومنْجِدِ
فبعض كخَدّ بالحياءِ مضرج ... وبعض كخد العاشق الصب مجسدِ

فبعض هذه الورود أحمر مثل خد ضرج بالحياء، وبعضها أصفر مثل خد العاشق الذي مرضه العشق. وتتصف مصر في زمن الفاطميين بالجمال الأخّاد، حتى إن المقريزي جعل خططه مقصورة في أغلب أبوابها على الكلام في جمال مصر، وإقطاعها، وأحياء مدنها، ومباهج نيلها، وبساتينها الخضر المونقة. وفي هذا الجمال ينظم العقيلي أبياتًا منمقة مزخرفة يتأمل فيها ما فوقه وما حوله من زينة الطبيعة وزخرف الإنسان، يقول[2]:

الغيم ممدود السرادقْ ... والزهر مفروشُ النمارقْ
والقاشُ قد نُقشت لنا ... منه المجالس والمرافقْ
أشجاره وثماره ... مثلُ الترائبِ والمخانقْ
وطن يموتُ مخافةً ... فيهِ الشقاء من الشقائقْ
قد غَنّت الأطيار في ... طُرقاته كل الطرائقْ
فالأقحوان غصونُه ... بيض النّواصي والمفارقْ
ومراود الأمطار قد ... كُحِلَت بها حدقُ الحدائقْ

فجاءت هذه الأبيات التصويرية للطبيعة في شعر العقيلي صورة لمجلسه في إيوان بهيج على جدرانه ألواح القاش في أشكال بلّورية رصت في الكُوى والمستشرفات.

ومن الأزهار التي وصفها الشعراء المنثور، الذي يصف ابن الخياط أحمره وأصفره، فيرى أن العيون تنعم بحسنه وبهائه، وأنه يبعث في القلوب حياة ودفئًا، يقول[3]:

تأمل بدائع ما يصطفيك ... بهِ الروض من كلّ فن عجيبٍ
ففي نَظْمِ منثورهِ قُرةُ الـ ... عيون وفيهِ حياةُ القُلوبِ

---

[1] دمية القصر، ج٢، ص٣٦٢.
[2] ديوان العقيلي، ج٢، ص٢١٤- ٢١٥.
[3] ديوان ابن الخياط، ص٢١٢- ٢١٣.

تَبـــدت غرائـــب أنـــوارهِ | تلاقـى بهـا كـل حسنٍ وطيـبِ
فمـن أحمـرٍ ضـمه أصـفر | كلـون المحـب ولـون الحبيـبِ
تلاصـق خـداهما للعِنـاقِ | وقـد وجـدا غَفلـةً مـن رقيـبِ

ومما يلحظ أن ابن الخياط في أبياته قد قرن الوصف بالغزل؛ إذ مزجهما معا مصورا المنثور الأحمر بلون المحبوب، والأصفر بلون المحب، حينما تعانقا في غفلة من الرقباء.

أما ابن الهبارية، فيقرن وصف الورد بصد الحبيب وهجره، قائلاً[1]:

تَجنـب فـي قُـربِ المحـلّ وقَـصدهِ | وزار علـى شَـحطِ المـزار وبعـدهِ
خيـالُ حبيـبٍ مـا سـعِدتُ بِوصـلهِ | وزورتـه حتـى شَـقيتُ بِـصدهِ
تَبـسم عـن عـذْبٍ شـتيتٍ كـشَملهِ | وشَـملي يـذَكّي نـار قلبـي بِبـردِهِ
وقابـلَ نُـوار العقيـق ووردهِ | بأنْـضر مـن نَـور الـشّقيق ووردهِ
ورب بهـارٍ مثـل خَـدي فـاقعٍ | ينـاجي شقيقـاً قانيـا مثـلَ خَـدهِ
سـقاني عليـهِ قهـوةً مثـلَ هجـرهِ | وطَعـمِ حيـاتي مـذْ بليـتُ بِفَقْـدهِ

فصد الحبيب، الذي تشبه حلاوة خده حمرة الشقيق، قد مرضه جاعلاً خده أصفر فاقعا مثل البهار. ولما كان للورد في حياة العباسيين – والشعراء خاصة - مكانةً أثيرة؛ إذ يعبرون بوساطته عن الحب والجمال والشباب، فقد قرن بعض شعراء القرن الخامس الهجري وصفه بذكر النساء اللواتي لهن في قلوبهم هوى، مشبهين الورد بالنساء تارة، وتارة أخرى مشبهين النساء بالورد. وفي هذا المعنى يقول الطغرائي[2]:

وتـرى شـقائقها خـلالَ رياضِـها | أوفـتْ مطاردهـا علـى أزهارهـا
وكأنهـا والـريح يـصقُلُ خَـدها | والـسحب تملؤهـا بِـصوبِ قَطارهـا
أقـداح يـاقوتٍ لِطـافٌ أُتْرعـتْ | راحا فبـاتَ المـسك سـؤْر إزارهـا
وكأنهـا وجنـاتُ غيـدٍ أحـدقتْ | بخـدودها حمـرا خطـوطُ عِـذارها

والناظر في هذه الأبيات يلحظ أنها تشمل تسمياتٍ وتشابيها لا تتهيأ إلا لأهل النعمة والثراء الذين عرفوها وألفوها، ولعلّ الطغرائي بذلك أقرب إلى ابن المعتز الذي وصف ما رأى وما ملك. ويقـرن أبـو الحسـن التـهامي[3] وصـف الأقحـوان بشوقـه إلى

---

[1] خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص٩٤-٩٥.
[2] ديوان الطغرائي، ص١٧٥-١٧٦.
[3] أبو الحسن علي بن محمد بن فهد. من كبار شعراء العرب، نعته الذهبي بشاعر وقته. من أهل تِهامة، مولده ومنشؤه في اليمن، وأصله من أهل مكة، زار الشام والعراق، وولي خطابة الرملة، ثم رحل إلى مصر، متخفيا، فاعتقل وحبس في دار البنود. ونقل ابن خلكان عن كتاب مجهول في يوميات مصر خبر مقتله بمصر،= سـنة (٤١٦هـ). انظر: وفيات الأعيان ٣٢٢/٧، النجوم الزاهرة ٢٦٣/٤، شذرات الذهب ٢٠٣/٣، الأعلام ٣٢٧/٤.

الحبيــب، مفضــلاً مـن يحــب على ثنـايا الأقحوان، التي – رغم جمالها – لو رأت جمال من يهوى لما تفتّحت ولطال استتارها، يقول(١):

بكيـــتُ فحنـــت نـــاقتي فأجابهـــا / صهيلُ جيادي حـين لاحـتْ ديارهـا
خَطَطنا بـأطرافِ المخاصـر أرضـها / فأهدت إلينـا مِـسك داريـن(٢) دارهـا
ولاحـتْ ثنايـا الأقحـوان ولـو رأتْ / عوارض من أهـواه طـالَ اسـتتارها

وفي موضع آخر من ديوانه يقول التهامي(٣):

يحكي جنا الأقحـوان الغَـض مبـسمها / في اللون والـريح والتفلـيج والأشَـر
لو لـم تكـنْ أُقحوانًـا ثغـر مبـسمِها / ما كان يـزداد طيبـا سـاعةَ الـسحرِ

فهذه الحسناء تشبه الأقحوان في كثير من الأمور؛ فهي مثله في الطعم إذ تأخذ منه النحلة الرحيق لتصنع العسل، وتشبهه في الرائحة الطيبة، كما أن أوراق زهره تتفلّج بعضها عن بعض كأسنانها، وأوراق هذا الأقحوان أيضا حادة كأطراف أسنانها. وبذا، فلو لم يكن ثغر مبسمها كالأقحوان، لما تمتّعنا بطيبه ساعة السحر.

أما الأبيوردي، فيصف الشقيق مشبها سواد قلب من يحب بسواده وخدها بحمرته، قائلاً(٤):

عرضت لنـا تختـالُ بـين كواعـبٍ / والروض يذْهِلُ حورهـا عـن غِيرهـا
إذْ شَـق أرديـةَ الـشقيق بـهِ الحيـا / فَحكينَـــه بقلوبهـــا وخـــدودِها

ويذكر ابن الخياط النّرجس والبنفسج مشبها إياهما بوشي الثياب المزركش، كما يشبههما بالآثار التي يتركها تغزل الحبيب بحبيبه، يقول(٥):

مِن نَـرجسٍ وبنَفـسجٍ غـض وتفّــ / ــاحٍ كوشْــي الحلــةِ المرشُــوشِ
جمـلٌ كمـا وُضِعِتْ مواعِـد عاشـقٍ / من ناصحٍ في الحـب غيـر غَـشوشِ

والأبيوردي عاشق للورد محب له، وكأنه كان يخص الشقيق بهذا العشق وذاك الحب؛ إذ نراه يصف موضعا للهو ومقاما أصابه الغيث، فترنّم طيره، وطاب ريحه، وتبسم شقيقه وانتشر، حتى ظهر لونه الأحمر مثل الدم الذي سكب على ثوب أخضر، يقول(٦):

ومعــرسٍ للهــو يــسحب ذَيلَــه / فيــهِ الــسحاب، وطيــره يتــرنم
زرنا الرياض بهِ وقـد بـسطَ الخُطـا / فيهــا الــصبا، وشــقيقُها يتبــسم

---

(١) ديوان التهامي، أبو الحسن علي بن محمد، (ت ٤١٦هـ)، (تحقيق د. علي نجيـب عطـوي)، دار ومكتبـة الهلال، بيروت، ١٩٨٦م، ص٢٥٨. وانظر: دمية القصر، ج١، ص١٢٤.
(٢) دارين: قرية بالبحرين، بها سوق يجلب إليها المسك من الهند، والنسبة إليها داري. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص ٤٣٢.
(٣) ديوان التهامي، ص١٨٢- ١٨٣.
(٤) ديوان الأبيوردي، ج٢، ص٢٣.
(٥) ديوان ابن الخياط، ص٢٩٦.
(٦) ديوان الأبيوردي، ج٢، ص١٢٣.

فكأنمـــا نُـــثِرت بهـــن عَلائـــلٌ خُضر أُريـقَ علـى حواشـيها الـدم

ولجمال الأقحوان، فقد وصفه الشعراء كثيرا، حتى إنهم شبهوا به الأسنان. وفي ذلك يقول الأبيوردي بيتًا شبه به الأقحوان بالأسنان البيض، والسحب السارية تجعل نداها قِرطًا لتلك الأقاحي، يقول[1]:

متـى ابتـسمتْ تكـشفَ عـن أقـاحٍ تُقَـــرطُهن ســـاريةٌ نَـــداها

ويقول أيضا[2]:

أعِد نظرا هلْ شـارفَ الحـي ثَهمـدا وقد وشحت أرجـاؤه الـروض أغيـدا
جلا الأقحوان النـضر ثغـرا مفَلجـا[3] بـهِ، والـشقيقُ الغـض خـدا مـوردا
إذا المـزن أذرى دمعـه فيـهِ خِلْتَـه علـى طُـرر الريحـان درا منَـضدا

فجعل للأقحوان ثغرا أسنانه متباعدة جميلة.

أما ظافر الحداد، فيقول[4]:

والأقحوانـــةُ تحكـــي ثغـــر غانيـــةٍ تبسمتْ فيهِ من عجـبٍ ومـن عجـبِ
في القَد والبردِ والريق الـشّهي وطيـ ـبِ الريح واللون والتفلـيج والـشنَبِ

فهذه الأقحوانة التي تبسمت في الروض، تشبه ثغر امرأة حسناء، في أسنانها ماء ورقّة وبرد وعذوبة وغير ذلك مما يحمد به الثغر ويوصف بالحسن والجمال.

وبذا، يتّضح أن الشعراء العباسيين في القرن الخامس الهجري قد ركّزوا على مظاهر الجمال والحضارة في الطبيعة على نحوٍ لافت؛ إذ ذكروا الورود والرياحين التي تحفّ بالرياض وسواها، فتزيد الحياة جمالاً، وتدعو الناس إلى الاستمتاع بهذه المناظر الخلاّبة التي تملك الألباب. ولا غرابة في ذلك؛ فالقرن الخامس الهجري يعد زاهيا لدى الشعراء؛ حيث كثرت الأموال التي زادت من مظاهر الحضارة، وساعدت على انتشار النعيم، وهيأت الحياة الرغيدة، في جو يغص بالماء والخضراء والوجه الحسن. وبفعل تلك الحضارة الراقية، انصرف شعراء القرن الخامس الهجري إلى وصف تلك المظاهر البديعة التي امتدت بامتداد الدولة العباسية، فبان أثر الحضارة في لغتهم وأساليبهم وصورهم.

---

(١) ديوان الأبيوردي ، ج٢، ص٢٠٢.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤١.
(٣) التفليج: تباعد ما بين الأسنان، وهو أمر مستحب عند العرب. لسان العرب، مادة (فلج).
(٤) ديوان ظافر الحداد، ص١٩. وانظر: الأزدي، غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات، ص٩٢.

ج- الربيع

اتسع مجال القول على صعيد الشعر في أدب القرن الخامس الهجري، تبعا لاتساع مناحي الحياة وتشعبها في هذا الطور المتألق من حضارة العرب؛ فتكاثرت الموضوعات التي تناولها الشعراء، فضلاً عن الأغراض الشعرية التي نظموا فيها، من ذلك توسعهم في وصف مشاهد الطبيعة المختلفة، مثل وصف الربيع؛ حيث ترتدي الأرض في هذا الفصل حلّة بهيجة من العشب الأخضر، وتكسو النباتات النضرة والورود العطرة وجهها فتبعث في النفس بهجة وسرورا.

والربيع فصل تختلف فيه نظرة الإنسان إلى المظاهر الحضارية، سواء أكانت مادية أم معنوية؛ فالقصور –مثلا- تظهر لعين الإنسان في الربيع جميلة تنبعث منها الحياة، وفي الوقت نفسه فإنها تعكس على نفسية الإنسان فرحا وأملا وجمالا، أما في فصل آخر مثل الخريف، فإن هذه القصور تظهر شاحبة يلفها الحزن والأسى، ويحيط بها الصمت والسكون من كلّ جانب.

من هنا، عد الباحث الربيع مظهرا من مظاهر الحضارة الطبيعية؛ لما له من أثر في المظاهر الحضارية الأخرى من جهة، وفي الإنسان عامة والشعراء خاصة من جهة أخرى، من حيث إنه يمكّنهم من امتلاك معجمهم الشعري الخاص، وصورهم الفنية وأساليبهم الشعرية الحضارية.

ولما كان الربيع كذلك، فقد قرب الشعراء إليه، وملك عليهم حسهم بالجمال، وشدهم إلى روعة المشهد الأخّاذ، الذي أثار أحاسيسهم ونبه مشاعرهم؛ فتغنّوا به وطربوا له، وما ذلك إلا لأن للربيع كبير الأثر في النفس الإنسانية، التي تميل إلى كلّ ما هو جميل وحسن. وفي هذا السياق، يصف ظافر الحداد أيام الربيع، ويمدح صفاته الطيبة الحسنة، يقول[1]:

جــاء الربيــع أخــو حيــاةِ الأنفُــسِ ومجمــل الــدنيا بــأفخر ملْــبسِ
فــاغنم بنــا ملْــح الزمــان مبــادِرا وتَمــل منهــا حــظ مــن لــم يــبخَسِ
واســتقبل الأرج المعطــر كلّمــا مــرتْ عليــهِ الــريح كــالمتَنَفسِ

فالربيع فرصة سانحة لراحة النفس البشرية واطمئنانها، وهو من أيام الزمان ولحظاته السارة التي لا بد من اغتنامها والمبادرة إليها وعدم تفويتها؛ لما فيه من جمال وروعة وإشراق؛ إذ تتزين فيه الأرض، وتتجمل أطرافها، فتبدو في حال بديعة مزركشة بالورود ذوات الألوان البهيجة والروائح العطرة، يقول ظافر[2]:

فكأنّمــا زهــر النبــات قلائــد نُثرتْ على صــفْحات بــسطِ الــسنْدسِ

---
(1) ديوان ظافر الحداد، ص١٦٥.
(2) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

والــورد يخجــلُ حــين قَبــلَ خــده ثغــر الأقــاحي مــن عيــون النــرجسِ
فكأنّــه غيــران أدهــشه الهــوى وأمــالَ منــه الفِكْــر جِيــد مــنَكسِ
وكأنّمــا الأغــصان تَطْــرب كلّمــا ألقــت إليهــا الــريح سِــر موســوسِ
وكــأن هنْــفَ الــورقِ فــي أغــصانها لَفْــظٌ يفيــدك مــن فــصيحٍ أخــرسِ
والماء قــد عبثــتْ بــهِ أيــدي الــصبا فحكــى غُــصونًا فــي جبــين معــبسِ

إنّها صور رائعة للربيع، تنطق حياة، رسمها شاعر مبدع عاش حقيقتها وخبر جمالها، فعبر عنها تعبيرا حضاريا دالاً على امتلاكه أسباب الحضارة وأدواتها؛ من بيئة حضارية ولغة حضارية ورؤية حضارية وفكر حضاري.

ثم يستكمل ظافر وصفه الربيع وما فيه من طير يغدو ويروح آمنـًا، حتى إن الظباء ترد الغدير فتشرب من مائه وتأكل مما نما على أطرافه مطمئنة؛ إذ يقول[١]:

والطير تَــسرح فــي الريــاضِ غواديــا للــرزق بــين مبكــرٍ ومغلّــسِ
والــوحشُ بــين ســوانحٍ وبــوارحٍ ورواتــعٍ بــين الريــاضِ وكُــنسِ
تــرد الغــدير ورود مــن لا يــشْتَفي وتنــالُ مــن طرفيــهِ مــا لــم تَغْــرسِ

أما الغزي، الذي يستمد من الاستعارة ريشته التصويرية، فتدخل الاستعارة بأنواعها المتعددة من بين أدواته، التي تسهم في جعل صوره مزيدة، فهو يستعير للربيع نقابا، وللريح ذيلاً، وللربا جيبا، فتبدو الصورة الربيعية من خلال حركة الأعضاء التشخيصية كما في هذا الوصف[٢]:

ســفَر الربيــع نقابــه بِيــدِ الــصبا عــن منظــرٍ حــسنٍ كأيــام الــصبا
لــم ينــسحب ذيــلُ الــسحابِ وكُمــه إلا تــأرج منهمــا جيــب الربــا
كــان الزمــان مرصــصا ومحــددا واليــوم صــار مفَضــضا ومــذَهبا

فهو يصف الربيع بعد نزول المطر، ثم انقطاعه وانسحاب السحاب وصفـًا ينبض بالحياة؛ إذ هو قد أسفر عن مناظر جميلة ساحرة؛ فالأرض خضراء موشّاة بالورود ذوات الألوان المتعددة؛ فهنا ورد أبيض، وهناك أصفر، وبين هذا وذاك ورد أحمر، وكأن الأرض بعد أن كانت ترتدي ثوبا رصاصيا أو حديديا أصبحت تكتسي حللاً فضية وذهبية.

وأما أبو جعفر البحاثي[٣]، فيصف الأرض وقد اكتست – بعد أن كانت عريانة - ثيابا ملونة مزركشة شكّلتها أزهار الربيع ووروده، واغتنت بالنبات بعد أن رواها السحاب، يقول[٤]:

اكتــستِ الأرض وهــي عريانــه مــن نَــشْر نَــور الربيــع ألوانَــه

[١] ديوان ظافر الحداد، ص ١٦٦.
[٢] ديوان الغزي، ص٥١٣.
[١] أبو جعفر محمد بن الحسن بن سليمان البحاثي، ينسب إليه البحاثيون، ولي القضاء ببعض كور ما وراء النهـر، وبعض كور خراسان أيضا. انظر: دمية القصر ٢١٤/١.
[٤] دمية القصر، ج٢، ص ٤٢٨.

واكتنــزتْ بالنبــاتِ وانتــشرتْ حــين ســقاها الــسحاب ألبانَــه
تــضاحكتْ بعــد طــول عبــستها ضِــحك عجــوزٍ تعــود بهنانَــه
فــالروض يختــالُ فــي ملابــسهِ مرتــديا ورده وريحانَــه
يعــانقُ الأقحــوان تــوأمــه إن زار روح النــسيم قُــضبانَه
تــرى الخُزامــى المــساء مــسلِمةً ثــم تعــود الــصباح نَــصرانَه

فخير الأوقات – في نظر الشاعر - وقت الربيع لكثرة نباته وخيره؛ حيث كل شيء فيه ضاحك مستبشر؛ إذ تصبح النباتات والأزهار والطيور والرياض فرحة ضاحكة بعد أن كانت عابسة، مثَلُها في ذلك مثَلُ العجوز التي يعود إليها شبابها بعد أن كانت مسنّة، فتصبح ضحاكة متهلّلة طيبة النفَس والرائحة. كما ترى الخزامى مساء في هذا الفصل مسلمة إذ تنكمش زهرتها حياء، وفي الصباح تراها نصرانة إذ تتبرج فتبدي زينتها.

ومما يدلّ على أثر الحضارة في الشعراء العباسيين في القرن الخامس الهجري، أنهم ركّزوا في وصفهم الربيع على مظاهر جماله؛ فوصفوا وروده وأشجاره وطيره وماءه و...، وصفـًا جميلاً مشرقـًا عبروا من خلاله – من غير شك - عن نفسياتهم الذواقة طعم الجمال، المتطلّعة إلى السعادة والسرور.

غير أن بعض هؤلاء الشعراء لم يقتصروا في وصفهم على ما تقدم من مظاهر الجمال الربيعي؛ إذ قرنوا محبوباتهم، أو المرأة على نحوٍ عام في هذا الوصف، مستخدمين لغة رشيقة جميلة تؤكّد مستواهم الحضاري الراقي، ومكثرين من ذكر الورود والرياحين، ومستعينين على أداء ذلك بقوالب بديعية رائعة، وبتشبيهات واستعارات متقنة. ومن ذلك قول الأبيوردي[١]:

وحلقــت بفــؤادي عنــد كاظمــةٍ ليلَ النّقا من عِتـاق الطيـرِ أظفـار
بــهِ عــذارى تَبــز الليــلَ ظُلْمتَــه بأوجـهٍ هـي فـي الظلمـاءِ أقمـار
زر الربيــع عليــه جيبــه وســرى إليه مـزن لِـذَيل الخِـصبِ جـرار
وظــل يكــسوه مــن نَــوارهِ حلَــلا تُنيــرهن وتُــسديهن أمطــار

ففي النّقا أبكار حسان تزيل أنوار وجوهها ظلام الليل، فكأن تلك الوجوه أقمار في الظلام. وقد ظلّ المزن يكسو ذلك القنا من نَواره حللاً تنسجها الأمطار وتعلّمها.

وأما أبو غالب الراوستاني[٢]، فقد خلع صفات المرأة الجماليةَ على الربيع؛ إذ جعله يتبرج بزينته تبرج المرأة الحسناء، يقول[٣]:

---

[١] ديوان الأبيوردي، ج٢، ص١٨٦-١٨٧.
[٢] أبو غالب الراوستاني، الحسن بن موسى القُمي، من شعراء الدمية، معين ديوان الاستيفاء، كاتب حاسب من ثقات السلطان وكُفاة الديوان، له ألفيةٍ خَدم بها الصاحب نظام الملك. انظر: دمية القصر ٧١/١.
[٣] دمية القصر، ج١، ص٢١٦.

وهاتيـــك أيـــام الربيـــع تبرجــتْ بزينتهـــا مـــن أطلـــسٍ وبهـــاءِ
فللأقحـــوان الغَـــض نَـــور كأنّـــه عقـــود لآلٍ فـــي نُحـــورِ نـــساءِ

وبذا، فقد شبه الشاعر جمال الربيع وأقحوانه وزهوره بالمرأة الحضرية التي زينت نحرها بعقود اللآلئ، وهو بذلك قد عبر عن أحاسيسه ومشاعره نحو جمال الربيع بأسلوب ممعن في التحضر والترف ورقّة الحياة. ولعلّ ذلك دالّ على طبيعة حياته، ومؤكّد رغبته في هذه الحياة ذات الجمال والبهاء.

وكي تكون خاتمة الحديث في هذا الفصل مسكـًا، فإنه لا بد من وقفه على إحدى قصائد الشريف العقيلي، التي وصف فيها الربيع. وإن سأل سائل: لِم العقيلي خاصة دون غيره، وشعراء الطبيعة العباسيون كثر؟ فإنه يكفي الباحث أن يجيب عن هذا التساؤل قائلاً: إن العقيلي يكاد يكون من أصدق شعراء القرن الخامس الهجري قريحة، وأقربهم من الطبيعة، وأكثرهم افتتانًا بالوصف والتصوير، ويظهر ذلك واضحا وجليا من خلال قراءة ديوانه، الذي قصر غير قليل منه على وصف الطبيعة والتغنّي بجمالها، وكان في وصفه منطلقـًا من تجربته الخاصة، ومستندا على صوره الشخصية من غير تكلّف أو مداهنة. انظر إليه يدعو أحد خلاّنه إلى التمتع بعمره، يقول[1]:

أيـــا مـــن يهـــاب ومـــن يتّقـــى ومن ليس يرقى امـرؤٌ مـا ارتقـى
تمتّـــع بعمـــرك وأنعـــم بـــهِ وإلا ســـــتندم إن أخلَقـــــا

فهو يدعو خِلّه إلى التمتّع بالعمر الذي لا يدوم، ويطلب إليه التنعم بأيام شبابه قبل أن يشيخ ويهرم فلا يكون هناك سبيل إلى تحقيق ما يرغب فيه. لكن، بِمَ سيتمتّع في هذا العمر؟ وكيف يتأتّى له ذلك؟

فقــد دهِــم الفجــر طَــرفَ الــدجى فــــصير أدهمــــه أبلَقــــا
وأبــدى لنــا الزهــر ياقوتــةً فمـــن مـــستجادٍ ومـــن منْتَقـــى
وزخـــرفَ جنـــةَ بـــستانِنا وألبـــسها منـــه إســـتَبرقا
وفتحـــتِ القُـــضب أحـــداقها فـــزادتْ حـــدائقها رونقـــا
ولاح الـــشقيقُ ولـــو لـــم يلُـــح لَمـــا نَعِـــم التـــرب بعـــد الـــشقا
وزم الربيـــع قِبـــاب الربـــى وأذهـــب منهـــا الـــذي زوقـــا
وجـــاء مـــن الوشـــي فـــي معلَـــمٍ إذا مـــا تَـــسربله مخْرقـــا
وفـــرقَ تيجـــان نَـــوارهِ فلـــم يـــنْس مـــن غُـــصنٍ مفْرقـــا

---

[1] ديوان العقيلي، ج٢، ص٢٢١- ٢٢٢.

إذن، تتحقّق هذه المتعة، ويتأتّى ذاك التنعم بالنظر في الطبيعة الخلاّبة، التي تتّصف بالجمال والروعة، تلك الطبيعة التي تكون في الربيع نضرة تسر الناظرين بما اشتملت عليه من أصناف النبات وأنواع الورود. ليس هذا حسب:

فأمـــا الميـــاه فكافورهـــا بمـسكِ البنفـسج قـد أحـدقا
تَــدب وتــسعى ثعابينُهــا إذا مــا الريــاح أتــتْ بــالرقى
بلــى الجــو حــن إلــى جــوهِ فَرقــع منــه الــذي خَرقــا
فَــصِرنا نــشاهده فِــضةً وقــد كــان فَيروزجــا أَزرقــا

إنه ربيع جميل، أبدع العقيلي في وصفه وبرع في تصوير طبيعته الحية والصامتة على نحوٍ حضاري راقٍ، شخّص من خلاله تلك الطبيعة، وخلع عليها أجمل الصفات وأكثرها روعة وألقـًا، مستعينا على ذلك بلغة حضارية رشيقة، وبقوالب بديعية، وبتشبيهات واستعارات تنم عن حضارة ذلك الزمان.

لقد أجاد شعراء القرن الخامس الهجري العباسيون في وصف الربيع، وأجمعوا كلّهم على حسنه وجماله وانتشار أزهاره وورده. ويلحظ الباحث أن جلّ هؤلاء الشعراء استخدموا في أثناء وصفهم جمال الطبيعة ألفاظـًا ذات دلالة حضارية تؤكّد مدى تحضرهم، وتدلّ على حبهم للطبيعة الفاتنة وانجذابهم إليها، وبخاصة في فصل الربيع الذي تفنّنوا في وصف ما يحوي من مظاهر طبيعية ذات جمال أخّاذ، تدلّ براعة وصفهم لها على رهافة إحساسهم ولطافة ذوقهم، وتؤكّد من جهة أخرى تفاعلهم مع محيطهم على نحو إيجابي مثمر.

الفصل الثالث

زينة المرأة الحضارية في شعر القرن الخامس الهجري، وتجلّياتها في:

أ- الملابس، والأزياء

ب- الشعر

ج- الحلي

د- الخِضاب، والعطر، والتطيب

ارتبطت الزينة بحياة المرأة أينما وجدت وفي مختلف العصور؛ بسبب طبيعتها وتكوينها الذاتي المجبول بحب الجمال. لذا، فقد سعت المرأة عبر عصور متتالية إلى البحث عن وسائل الزينة المختلفة؛ فنجدها قد اعتادت ومنذ القدم تجميل نفسها بأبسط ما توافر لها وما هو متاح من إمكانات، وهناك الكثير من الإشارات التي تذكر أن المرأة كانت تجتهد منذ عصورها البدائية في ابتكار طرق ووسائل تضفي إلى جمالها جمالاً؛ إذ كانت تتزين بثمار الأشجار تارة، وبالأحجار الملونة والحصي والقواقع البحرية تارة أخرى، منتقية أجملها لونًا وأبدعها تناسقـًا؛ لتكون قلادة تعلّقها على صدرها، أو قرطـًا تزين به أُذنيها، أو سوارا يجمل معصميها.

إذن، ما انفكت المرأة على مر العصور تبحث عن كلّ ما يميز أنوثتها، وغالبا ما يظهر هذا في اللباس والحلي التي تلبي رغبات المرأة الجمالية. وقد اختلفت مستويات تزين المرأة باختلاف المستوى المعيشي؛ حيث ترتبط الزينة ارتباطـًا وثيقـًا بمستوى المعيشة وبالتقدم الحضاري، "ومما لا شك فيه أن العصر العباسي كان عصر الترف، والثروة، والحضارة، والذوق، والأدب، والتأنق، والجمال"[١]، ويكاد القرن الخامس يكون امتدادا اجتماعيا طبيعيا للقرون التي سبقته، من حيث الترف والثروة والتأنّق ومظاهر الزينة.

وسوف تحاول هذه الدراسة في هذا الفصل استجلاء صورة المرأة الحضارية متمثلةً في محاور أربعة، هي: الملابس والأزياء، والشعر، والحلي، والطيب والخضاب.

أ- الملابس والأزياء

حفل الشعر العباسي في القرن الخامس الهجري بذكر عدد من أصناف الملابس التي كانت تتزين بها المرأة في تلك المرحلة، وقد اختارت ما يناسبها من الألوان، مراعية في ذلك الذوق والعرف العام لمجتمعها. "ولما كان العصر العباسي عصر حضارة وترف، فمما لا شك فيه أن يلحق الملابس الشيء الكثير من التفنّن والتجديد، وأن تتّسم بالذوق والأناقة، وقد بولغ في اختيار أنواعها وألوانها، وفي تزيينها وتطريزها بالدرر والذهب واللؤلؤ وغيرها" [٢]، وشعر القرن الخامس المتعلق بملابس المرأة وأزيائها، يشي إلى انتشار غير صنف من تلك الملابس، من مثل: النقاب أو البرقع[٣] أو الغطاء، وهي وسائل اتخذتها المرأة للزينة. وعلى الرغم من أنها

---

(١) الأطرقجي، واجدة، (٢٠٠٢م)، المرأة في أدب العصر العباسي، (ط١)، أبـوظبي، مركـز زايـد للتـراث والتاريخ، ص٢٦٢.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٦٢.

(٣) يقول ابن منظور في تعريفه للنقاب: إنه الذي يبدو منه حجر العين، لسان العرب، مـادة (نقـب). ويقـول دوزي: إن بنات الريف ينحصر نقابهن في قطعة من تين القطن مفتوح فيه نقبان في موضع العينين، المعجـم= المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص٣٤٣. أما صلاح حسين العبيدي، فيرى أن النقاب نوع مـن أنـواع

تستر وجه المرأة، فإنها تبرز العينين، وهما أهم مواطن الجمال في وجهها، يقول أبو الحسن التهامي[١]:

فتــاةٌ أرى الــدنيا بمــا فــي نقابهــا وألقى بما في مِرطِها[٢] جنــةَ الخُلْــدِ

فهو يرى الدنيا في الغطاء الذي تستر به وجهها. ورغم أن تغطية الوجه تحول دون رؤيته، فإن في هذا ما يثبت شيوع النقاب أو غطاء الوجه؛ إذ لو لم يكن الأمر كذلك لتغزل الشاعر بامرأة مكشوفة الوجه، فهذا إلى إدراكه أقرب. ويدعم هذا الرأي بيتان قالهما التهامي أيضا[٣]:

حطي النقــاب لعــل سِــرب عيوننــا فــي روض حــسنِكِ يــرتعين قلــيلا
لمــا انتقبــتِ حــسِبتُ وجهــكِ شُــعلةً خَلَــلَ النقــابِ وخِلْتُــه قِنْــدِيلا

يقول: ارفعي الغطاء عن وجهك حتى أتمتّع بحسن جمالك، وحتى إن لم ترفعي الغطاء فأنا أرى وجهك بعد أن أسدلت عليه النقاب شعلة تضيء من خلال القنديل، وهذا من التشبيه الجميل الدالّ على قدرة في الربط بين العلّة والمعلول.

وفي بيتي أبي محمد علي بن الأزهر عمرو بن حسان[٤] ما يشير إلى انتشار النقاب[٥]:

وكــم قــد ســبتني مِــن ذاتِ برقُــعٍ بأحــسن عــينٍ للمهــاةِ وليــتِ[٦]
وألمــى علتْــه لُعــسةٌ[٧] زيــن حــسنُها بــأبيض معــسول الرضــابِ شــتيتِ

وهذا الغزي يصف وداع محبوبته المحجبة المتلثمة، قائلاً[٨]:

ومحجــبٍ جــاد الــوداع بــضمهِ فَحلبتُ غُنْمي مــن ضــروعِ مغــانمي
فَظَفَــرتُ مــن تقبيلــهِ متلثمــا بجنــى أقــاحٍ فــي بطــون كمــائِمِ[٩]

فهي إذ ترتدي اللثام تشبه زهر الأقحوان المغطى بالكمائم.

البراقع، الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والأثرية، ص١٧٥. ويقول عن البرقع إنه قطعة من القماش تثقب في موضع العينين تبصر المرأة منهما، المرجع نفسه، ص١٥٩. بينما يقـول دوزي: إنه – أي البرقع – قطعة من الحرير تؤدي أكمل الأداء وظائف البرقع، بحيث لا يستطيع المـشاهد أن يرى من الوجه إلا العينين تقريبا، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ص٦٠. ويظهر مما تقـدم أن المرأة تستخدم النقاب والبرقع لتحقيق الغرض نفسه وفي الوظيفة نفسها.

[١] ديوان التهامي، ص١٤١.
[٢] المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان، وقيل: هو الثوب الأخضر، لسان العرب، مادة (مرط).
[٣] ديوان التهامي، ص٢٩٥، وانظر: دمية القصر، ج١، ص١١٨.
[٤] من شعراء الدمية المكثرين، عد من شعراء البدو والحجاز. انظر: دمية القصر، ٨٦/١.
[٥] المصدر نفسه، ج١، ص٨٨-٨٩.
[٦] الليت: صفحة العنق. لسان العرب، مادة (ليت).
[٧] اللعسة: سواد يعلو شفة المرأة البيضاء. لسان العرب، مادة (لعس).
[٨] ديوان الغزي، ص ٣٦٠.
[٩] الكمائم: أغطية الزهر. لسان العرب، مادة (كمم).

وكذا وصف القاضي أبو المجد محمد بن عبد الله بن محمد[(١)] محبوبته التي فارقها، قائلاً[(٢)]:

لـم يـدر مـا طَعـم الفِـراق الموجِـع | مـن لَـم يـبِن عـن إلْفِـهِ ويـودع
هيهـاتَ وصـلُ العامريـةِ بعـدما | حالـتْ بـوادٍ مـن سـبيعةَ مـسبع
بيـضاء فـاتِرةُ اللحـاظِ إذا مـشَتْ | ماسـتْ كغُـصن البانَـةِ المتَرعـرع
وتَبرقَعـتْ خَفَـرا فَـتَم جمالُهـا | لا يـستر الـصبح المنيـر ببرقُـع
لـو أَنهـا زارتْ وغـاب وشـاتُها | نَـم النـسيم بنَـشْرها المتَـضوع

لقد بان عن الشاعر محبوبته البيضاء ذات القوام الرشيق التي تحرص على لبس البرقع لشدة جمالها، غير أن هذا البرقع – وإن كانت لا تتزين به – يزيدها حسنًا وجمالاً. فضلا عن عطرها المتضوع الذي يحمله النسيم أينما اتجه.

ونجد هذا المعنى؛ لبس النقاب خشية افتتان الآخرين بجمال المرأة، في أبيات للأرجاني يقول فيها[(٣)]:

وعقَلْـتُ نـاجيتي بفَـضل زمامِهـا | لمـا رأيـتُ خيـامهم بـالمنحنى
وتَطَلعـتْ فأضـاء غُـرةُ وجههـا | باللـيل أيـسر منهجـي والأيمنـا
سـتَرتْ محياهـا مخافـةَ فِتْنَتـي | بنقابهـا عنـي، فكانـتْ أفتَنـا
وتجـردتْ أطرافُهـا مـن زينـةٍ | عمـدا، فكـان لهـا التجـرد أزينـا

بيد أن هذا النقاب أو البرقع كان يرفع أمام المحبوب، ولا سيما في لحظات الوداع، كما نجد عند الأرجاني؛ إذ يقول[(٤)]:

ويـوم الكثيـب الفَـردِ لمـا استفزنا | وداع، وكنّـا مـن وشـاةٍ بمـدرج
حطَطَتْ لِثاما عـن مجـودٍ[(٥)]مـورس[(٦)] | وألقـتْ نِقابـا عـن أسـيلٍ مـضرج
فما زلـتُ أُذري دمـع عينـي صـبابةً | وتُبـدي دلالاً عـن شـتيتٍ مفَلـج

فيوم الوداع، والوشاة مجتمعون، تنزع لثامها فيظهر فمها المصبوغ بالزعفران وبالورس، وتلقي نقابها فيبين خدها المورد، ثم تظهر دلالها فيظهر ما بين أسنانها من تباعد، وهو مما يستحسن في المرأة.

ويؤكد رفع النقاب أمام المحبوب قول عبد المحسن الصوري[(٧)]:

كـم غـادةٍ سـفَرتْ وكـان حياؤهـا | ينبيـك عنهـا أنهـا لـم تَـسفِر

---

(١) أخو أبي العلاء المعري، كان شاعرا مجيد، وفقيها أريبا، أدرك أخاه أبا العلاء وقرأ عليه أشعاره ومصنفاته، توفي سنه (٥٢٣هـ). انظر: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ٢/٧-٣٢، الوافي بالوفيات، ٣/٣٣٤، الأعلام، ٢٢٨/٦.
(٢) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٢٠.
(٣) ديوان الأرجاني، ج٣، ص ١٤٠٤.
(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٧٤-٢٧٥.
(٥) المجود: المصبوغ بالجادي، وهو الزعفران. لسان العرب، مادة (مجد).
(٦) المورس: المصبوغ بالورس، وهو نبت أصفر، وكنّى به عن صفرة الوجه. لسان العرب، مادة (ورس).
(٧) ديوان الصوري، ج١، ص ٢٠٨.

فكأنمـا كـشَفَتْ نِقابـا أبيـضا ... يـوم التقينـا عـن نِقـابٍ أحمـر

فهي يوم تلتقي محبوبها ترفع عن وجهها نقابا أبيض فينكشف ذاك الوجه الجميل ذو اللون المائل إلى الحمرة، التي قد تكون من أثر الخجل، أو بفضل الصباغ.

عموما، فإن استقراء شعر هذا القرن يشي بشيوع النقاب، الذي يرد بتسميات أخرى، مثل: الغطاء، أو اللثام، أو المقنع، أو البرقع. يقول أبو منصور علي بن الحسن صردر[1][2]:

نَـود الثغـور ونهـوى الخـدود ... ونَعلَـم أنـا نُحِـب المنونـا
ودون الوصـاوص[3] مكحولـةٌ ... تُعلـم طَبـع الـسهامِ العيونـا

وقال الطغرائي في وصف فتاة[4]:

رشَـأٌ فُتـور لِحاظِـهِ ... يـروي عـن الملكـين سِحرا
متَلَـثم ولثامـه ... غَـيم يـواري منـه بـدرا
إن خُـص حـسن بالـصوان ... فَحـسنُه أولـى وأحـرى
يخفـي اللثـام مباسِـما ... منـه مفَـداةً وثغـرا

فهو لثام يخفي وراءه ثغرا جميلاً، ووجها مثل البدر حسنًا. وورد في بيت للإسكافي الزنجاني مفردة (المقانِع)، وواحدها المِقْنَع[5]، يقول [6]:

وإنـي لأسـتحيي العمـائم أن تُـرى ... علـى أرؤسٍ أولـى بهـن المقـانِع

كما ورد ذكر للنقاب الأسود في أبيات للطغرائي، يصف فيها فتاة بكرا حسناء؛ إذ يقول[7]:

وتـرى الثريـا والهـلالَ مظـاهرا ... بِمعنْبـرٍ فـي حانـةٍ ومجـسدِ
كالـدر فُـصلَ فـي وشـاحِ خَريـدةٍ[8] ... حـسناء تُجلـى فـي نِقـابٍ أسـودِ
وكأنَّـه وكأنهـا مـن فَوقِـهِ ... عنْقُـودةٌ فـي زورقٍ مـن عـسجدِ

وهو تشبيه جميل جعل الشاعر فيه النجوم والهلال مثل الدر المطرز في وشاح فتاة حسناء تتزين بنقاب أسود. ووصف مجير بن محمد بن مجير الصقلي، وهو صقلي المولد، مصري الدار، محبوبته قائلاً[9]:

يـا وجـه مكتمـل البـدو ... ر وقَـد معتَـدِل اليـراعِ

---

[1] علي بن الحسن بن علي بن الفضل البغدادي أبو منصور. أحد نجباء شعراء عصره، مجيد، من الكتّاب. توفي سنة (٤٦٥هـ). انظر: وفيات الأعيان ٣٨٥/٣، النجوم الزاهرة ٩٤/٥، شذرات الذهب ٣٢١/٣، الأعلام ٢٧٢/٤، معجم المؤلفين ٢٥٨/٣.
[2] ديوان صردر، أبي منصور البغدادي، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٩٨.
[3] مفردها وصواص، وهو البرقع الصغير. لسان العرب، مادة (وصوص).
[4] ديوان الطغرائي، ص١٦٧.
[5] ثوب يغطي رأس المرأة ومحاسنها.
[6] دمية القصر، ج١، ص٣٢٩.
[7] ديوان الطغرائي، ص١٢٠. وانظر: غرائب التنبيهات للأزدي، ص١٩٠.
[8] هي الفتاة البكر التي لم تمس، وقيل: هي الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت. لسان العرب، مادة (خرد).
[9] خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٨٨.

بجمـــال مـــا تحـــتَ الـــردا ءِ وحـــسن مـــا تحـــتَ القِنـــاعِ

فوجهها مثل البدر المكتمل، وقدها مثل القلم المعتدل؛ وهي ذات جمال أخّاذ يغطيه الرداء، وذات وجه حسن يستره القناع. واستخدم تقي الدين، عمر بن شاهنشاه بن أيوب[١] مفردة "اللثام" في وصفه محبوبته؛ إذ يقول [٢]:

لهـــا مِـــن قَـــدها رمـــح رشـــيقٌ ومِـــن ألحـــاظِ مقْلَتِهـــا سِـــهام

تُريـــك البـــدر إن ســـفَرتْ وتَحكِـــي هِـــلالاً حـــين يـــسترُها اللثـــام

فَلـــي مِـــن خَـــدها ورد جنِـــي ولـــي مِـــن طِيـــبِ رِيقَتِهـــا مـــدام

فهي ذات قد رشيق مثل الرمح، وعيون جميلة إذا نظرتها رمتك بالسهام، وهي إن كشفت عن وجهها تريك بدرا، وإن سترته باللثام ترى هلالاً. وتزينت المرأة في هذا القرن أيضا بالقراطق [٣]، وفي هذا يقول علي ابن الوزير عضد الدين [٤] [٥]:

ومقَرطِـــقٌ ألفيـــت قلبـــي آبقـــــًا منّـــي لَـــه، فالقلـــب قلـــب قَبائِـــهِ

إشـــراقُ غُـــرةِ وجهـــهِ فـــي صـــدغِهِ يبـــدي لـــك الإصـــباح فـــي إمـــسائهِ

والـــصدغُ منـــه لعارضـــيهِ معـــارض وســـواد ذاك الخـــطّ مـــن أفيائـــه

فهي امرأة تلبس القرطق، الذي يزيدها جمالاً، حتى إن قلبه يهرب منه إليها شوقــًا وحبا وإعجابا بحسنها، وقد ابيض وجهها واسود صدغها. وكانت المرأة تزين وسطها وخصرها بالمِنْطَقة[٦]، وفي ذلك يقول الشريف العقيلي [٧]:

وهِيـــفِ عليهـــا معلَمـــاتُ القَراطِـــق مزينَـــةٍ أوســـاطُها بالمنـــاطِقِ

إذا حـــضرتْ منهـــا لـــديك جماعـــةٌ تَنَزهـــتَ مِـــن ملْبوسِـــها فـــي حـــدائق

رشـــاقٍ إذا أَرســـلْتَ طَرفَـــك نَحوهـــا تَحيـــر مِـــن أجيادِهـــا فـــي المخـــانق

فهي خيل تلبس القراطق، وتُزين أوساطَها المناطق الجميلة، التي تبدو من تعدد ألوانها مثل الحدائق التي تزينها الورود ذوات الألوان الكثيرة والأشكال الجميلة.

كما تشير أبيات للأرجاني إلى أنّ المرأة آنذاك تزينت بالملاءة؛ إذ يقول [٨]:

---

[١] هو الملك المظفر تقي الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة، وهو ابن أخـي الـسلطان صلاح الدين. توفي سنة (٥٨٧هـ). انظر: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ٨٠/١-١١٢، النجـوم الزاهـرة ١٣٧/٦، شذرات الذهب ٢٨٩/٤، الأعلام ٤٧/٥.

[٢] خريدة لبقصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص ١٠٧.

[٣] القراطق: جمع قُرطُق، وهي سترة قصيرة أو قميص يسبل على الكتفين وينساب حتى وسط الجـسم، وطالمـا تغـزل الشعراء العرب بطراطق حبائبهم ومحظياتهم وجواريهم. انظر: دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس عنـد العـرب، ص٢٩٢.

[٤] عماد الدين أبو نصر، له نظم رقيق. انظر: خريدة القصر، قسم شعراء العراق ١٦٦/١-١٧٧.

[٥] خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج١، ص١٧٣.

[٦] هو شقة أو ثوب تلبسه المرأة، ثم تشد وسطها بحبل، ثم ترسل الأعلى على الأسفل، فينجز الأسفل إلى الأرض. لـسان العرب، مادة (نطق).

[٧] ديوان العقيلي، ج٢، ص ٢٢٣.

[٨] ديوان الأرجاني، ج٣، ص١٤١٧.

أأجفـان بِـيضٍ هـن أم بـيض أجفـان | قَواتِك لا تُبقي علـى الـدِنِفِ العـاني؟
مررن بِنَعمانٍ[١]، فمـا زلـتُ واجِـدا | إلى الحول نَشْرَ المِسكِ من بطْن نَعمان
سوافِر فـي خُـضر المـلاءِ سـوائر | كما ماس في الأوراق أعطافُ أغصان

فالشاعر يشبه هؤلاء النسوة ذوات الرائحة الطيبة، اللواتي يلبسن الملاء الخضر، بأوراق الأشجار وقد ماست بها أعطاف الأغصان.

أما الوشاح[٢] ، فقد تزينت به المرأة أيضا؛ إذ ورد في أبيات تغزل بها الشريف أبو جعفر محمد بن هبة ا العلوي الحسيني، قائلاً[٣]:

ومبـسِمٍ كأقــاحِ الــروض بــان بــه | فضلُ الرضابِ على الـصهباءِ والـضربِ[٤]
ومـستدير وشــاحٍ جــالَ فــي هيــفٍ | حيـثُ التقـى خيـزران الخـصر بالكُثُـبِ

ولبست المرأة كذلك المِرط[٥] ، كما ورد في أبيات للغزي، يقول فيها[٦]:

تعليـقُ قلبـي بـذاتِ القُـرطِ يؤلمـه | فَلْيـشْكُر القُــرطُ تعليقًــا بــلا ألَــمِ
تَضرمتْ جمـرةٌ فـي مـاءِ وجنَتِهـا | والجمر في الماءِ خابٍ[٧] غير مـضطَرِمِ
ماء الأسيلين[٨] يكـوي بـرد ملْمـسِهِ | فَهـلْ سـمِعتَ بمـاءٍ محـرِقٍ شَـبِمِ[٩]
ومـا نـسيتُ فـلا أنـسى تَجـشمها | وملـبس الجـو غُفْـلٌ غيـر ذي علَـمِ
حتى إذا طاح عنها المِرطُ مِـن دهـشٍ | وانْحل بالضم سِـلْك العِقْـدِ فـي الظلَـمِ
تبـسمتْ فأضــاء الليـلُ فالتَقَطَــتْ | حبــاتِ منْتَثِــرٍ فــي نُــور منْــتَظِمِ

والبيت الأخير صورة رائعة تدلّ على براعة الشاعر في النظم، وتؤكد قدرته على التصوير والوصف.

ثم إن لباسا آخر يبدو أنه شاع في هذا العصر، عرف بالدستري أو التستري، ودستر مدينة معروفة بخوزستان، كان يعمل فيها ثياب وعمائم فائقة، وفي بغداد محلّة يسكنها أهل تستر

---

[١] نعمان: وادٍ في طريق الطائف يخرج إلى عرفات. انظر: معجم البلدان ٧٣/٥.

[٢] الوشاح: كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان، يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخـر، وأديـم عـريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحها. القاموس المحيط، مادة (كرس).

[٣] الأصفهاني، عماد الدين الكاتب، (ت ٥١٩ هـ)، خريدة القصر وجريدة العصر، قسم شـعراء مـصر، ج١، (نشره أحمد أمين وشوقي ضيف وإحسان عباس)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنـشر، القـاهرة، ١٩٥١م، ص١٢٥.

[٤] الضرب: العسل الأبيض. لسان العرب، مادة (ضرب).

[٥] المرط: كساء من خز أو صوف أو كتان، وقيل: هو الثوب الأخضر. لسان العرب، مادة (مرط).

[٦] ديوان الغزي، ص٥٧٧.

[٧] خاب: ساكن، مطفأ. لسان العرب، مادة (خاب).

[٨] الأسيلين: الخدين، والخد الأسيل: الطويل. لسان العرب، مادة (أسل).

[٩] شبم: بارد. لسان العرب، مادة (شبم).

وتعمل فيها الثياب التسترية، يقول عبد المحسن الصوري وقد رأى ورقة موز صب عليها ماء وخمر[١]:

كأنّمـــا لونُـــه وقـــد نَثَـــرتْ   يـــد النـــدامى عليـــهِ لـــونين
ثـــوب مِـــن الدســـتري خُـــضرتُه   قـــد قُـــصاتْ بـــاللجين والعـــين[٢]

وثمة لباس آخر عرفه مجتمع القرن الخامس الهجري، اسمه خَفْتان، وهو ثوب من القطن يلبس فوق الدرع، يقول أبو الفضل يحيى الحصكفي[٣] [٤]:

ولما رأيتُ الخـالَ فـي صـحن خـدهِ   ذكرتُ احتراقَ القلبِ في نـار صـدهِ
وعرفنـــا خَفْتانُـــه حيـــفَ ردفِـــهِ   وبالغَ في شكواه عـن ضـعفِ قـدهِ

ولعلّ هذا الثوب ما يعرف في عامية الشام اليوم بالقطفان. وينضاف إلى ما سبق أن لبس الحرير كان معروفًا آنذاك؛ إذ كان الرجال يرتدونه، وكذلك النساء، يقول أبو العلاء المعري[٥]:

عجِبـتُ لِملبـوسِ الحريـري وإنّمـا   بـدتْ كَبنَيـاتِ النقيـعِ[٦] غوازلُـه

وبذا، فإن اهتمام المرأة في القرن الخامس الهجري بزيها ومظهرها الخارجي، يعكس حرصها على مسايرة عصرها، ذلك العصر الذي اتّسم بالتحضر وانماز بالذوق الجمالي.

ب- الشعر

لم يغفل شعر القرن الخامس الهجري مظاهر التزيين والتجمل عند المرأة، فهي تدرك أنها من تصبو إليها قلوب الرجال، ولعلّ أهم مظاهر هذا التزيين تصفيف الشعر وتجميله وتطييبه، وقد قيل: "إن أول شرط في الجارية الحسناء استجادة شَعرها؛ لأنه نصف جمال الوجه وبه يكمل الوجه أو يقبح"[٧].

---

[١] ديوان الصوري، ج٢، ص٩٧.
[٢] الفضة والذهب.
[٣] يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد المعروف بالخطيب الحصكفي، الشافعي (أبو الفضل، معين الدين) أديب، كاتب، شاعر، خطيب، فقيه نحوي. ولد بطنزة في ديار بكر، ونشأ بحصن كيفا، وقدم بغداد، فقرأ الفقه، وأخذ الأدب عن الخطيب التبريزي وغيره، ورحل إلى ميافارقين، فسكنها، وولي بها الخطابة والإفتاء، وتوفي بها سنة (٥٥١ هـ). انظر: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ٤٧١/٢، معجم الأدباء ١٨/٢٠، وفيات الأعيان ٣١٤/٥، شذرات الذهب ١٦٨/٤، معجم المؤلفين ٢٠١/١٣.
[٤] خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٥١٤.
[٥] اللزوميات، ٢٦٣/٢.
[٦] النقيع: البئر الكثيرة الماء، ولعله أراد ببنياتها ضفادعها. لسان العرب، مادة (نقع).
[٧] انظر: الخالديان، (١٩٥٦م)، التحف والهدايا، مصر، دار المعارف، ص١٠١.

وقد وجد شعراء القرن الخامس الهجري في شَعر المرأة ضروبا من الحسن؛ فتهافتوا يصفون جماله بحس مرهف، في قالب فنّي ينصهر معه ذوق الحضارة في ذلك القرن من الزمان. ويبدو أن هؤلاء الشعراء لم يتذوقوا الجمال في الشعور الذهبية؛ إذ يظهر من خلال شعرهم أنهم "قد استجادوا الشعر الأسود الغزير، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من جاهليين وإسلاميين"[١]. كما فضلوا الشعور الجعدة، حتى إنهم كانوا يجعدون الشعور السبطة كي تتناسب مع طبيعة الحياة الحضارية الغالبة آنذاك[٢]. أما بالنسبة إلى الشعر الكثيف الملتفّ، فقد وصفه أبو الحسن علي بن حمزة الأندلسي الضرير، قائلاً[٣]:

أهـلاً بِطَيـفٍ زارنـي فـي المنـام | مِـن غـادةٍ تفـتَن كـل الأنـام
بجيـدِ جيـداء وعينـي مهـا | أقـصد[٤] مـن لحظِهمـا بالـسهام
ووجههـا الأقمـر إذْ تزدهـي | بـهِ علـى الـشمسِ وبـدرِ التمـام
وشـعرها الجثْـل الأثيـثِ[٥] الـذي | يحكـي إذا امتَـد الِتفـافَ الظّـلام
وورِدِ خَـد فوقَـه عقْـرب | مـن صـدغِها[٦] يمنعـه أن يـرام

فشعرها كثيف ملتفّ أسود مثل الليل.

وتحدث الأبيوردي عن فتاة شابة مستوية الخد لا غضون في وجهها، قائلاً[٧]:

رأى صـحبي بِكاظِمـةٍ[٨] | سـنا نـارٍ علـى بعـدِ

وفـيمن يستَـضِئُ بهـا | فتـاةٌ صـلْتَةُ الخَـد[٩]
تُـواري الأرض إن خَطَـرتْ | بِـذاك الفـاحِمِ الجعـدِ

فهي إن تبخترت وارت الأرض بشَعرها الأسود المجعد.

أما علي بن علي بن حسان، فقال متمنيا لقاء محبوبة خدها مورد، وشعرها مجعد فيه التواء[١٠]:

---

[١] الأطرقجي، ص٢٦٢.
[٢] انظر: هارون، عبد السلام، نوادر المخطوطات، ج١، ص٤١١.
[٣] دمية القصر، ج١، ص١٤٨.
[٤] أقصد السهم: أصاب فقتل مكانه. لسان العرب، مادة (قصد).
[٥] الشعر الجثل: الكثير الملتف، وكذا الأثيث. لسان العرب، مادة (جثل).
[٦] الصدغ: ما انحدر من الرأس إلى مركب اللحيين، وقيل: هو ما بين العين والأذن، ويسمى الـشعر المتـدلي عليه صدغًا. لسان العرب، مادة (صدغ).
[٧] ديوان الأبيوردي، ج٢، ص٢٦٧.
[٨] كاظمة: من بلاد البصرة انظر: معجم البلدان، ج٤، ص٤٣١.
[٩] صلتة الخد: أي مستوية الخد، وفي ذلك إشارة إلى أنها شابة لا غضون في وجهها لكبر السن. لسان العرب، مادة (صلت).
[١٠] دمية القصر، ج١، ص٩٣.

يـ ــا حبـ ــذا الخَـ ــد المـ ــورد والعِـ ـصفُ فـ ـي الـ ـصدغ المجعـ ـد
والمِبـ ـ ـسم العـ ـ ـذْب الرضـ ـ ـا بِ وحـ ــسن لؤلـ ــؤِه المنَـ ـضد

فالخد المورد، والشعر المجعد الذي فيه التواء، والفم طيب الريق، والأسنان الجميلة التي تشبه اللؤلؤ، كلّها من مظاهر الحسن والجمال، التي تتفق مع حضارة القرن الخامس الهجري، وتنسجم مع ما شاع فيه من ذوق وترف.

ويصف الحاكم أحمد بن محمد بن يحيى التيرشاذي محبوبته يوم الوداع، قائلاً[١]:

ويـ ــوم وقفنـ ــا للـ ـوداع كأنّنـ ـا وقوفٌ على جمرٍ وإن لم يكن جمـ ـر
أضاءتْ لنا من جانـ ـبِ الخِـ ـدر غـ ـادةٌ تمنّيـ ـتُ لـ ـو أن الفـ ـؤاد لهـ ـا خِـ ـدر
ورديـ ــةَ الخـ ــدين غُـ ـصنيةَ الحـ ـشا إذا ما تجلّى وجههـ ـا أظلـ ـم الـ ـشعر

فهي ذات وجه مضيء، وخدين ورديين، يقابل ذلك كلّه شعر أسود.

وفي معنًى رائع جميل، يصف الأبيوردي شدة سواد شَعر محبوبته، مبينًا أن جمال وجهها قد بدد دجى الليل، ولكن سواد شعرها أعاد هذا الدجى[٢]:

وسِربٍ عـ ـذَارى مـ ـن ربيعـ ـةِ عـ ـامِرٍ تَشابه منها العِقْـ ـد والـ ـدمع والثغْـ ـر
أقـ ــولُ لهـ ــا والليـ ــلُ مـ ــد رواقَـ ــه علينا، ولـ ـم يهتِـ ـك جوانِبـ ـه الفَجـ ـر
وقد سـ ـفَرتْ عـ ـن وجههـ ـا فَتَمزقَـ ـتْ دجـ ـاه ولكـ ــن رد ظُلْمتَـ ـه الـ ـشعر

وشبه الأرجاني جبين محبوبته بالصبح وشعرها بالدجى لشدة سواده، قائلاً[٣]:

وشـ ـ ـادِنٍ إذا رمـ ـ ـى بنظـ ـ ـرةٍ إلى المشوق هـ ـز عِطْفَيـ ـهِ الطـ ـرب
جبينُـ ــه والـ ــصدغُ صـ ــبح ودجـ ــى وخَـ ــده والثغـ ــر خَمـ ــر وحبـ ــب

فجعل جبينها أبيض مشرقـًا مثل الصبح، وشعرها أسود مثل الليل البهيم.

وللأرجاني نظم وفير يتحدث فيه عن الشعر؛ فقد صوره أسود فاحما معقودا على القد، يقول[٤]:

هلاليـ ــةٌ تحكـ ــي الهـ ــلالَ بوجههـ ــا إذا لاح في ليلٍ مـ ـن الفـ ـاحِمِ الجعـ ـدِ
بها سكْر طَـ ـرفٍ مـ ـن مدامـ ـةِ ريقـ ـةٍ لعنقودِ صدغٍ فوقَ غُصنٍ مـ ـن القَـ ـد

ووصف شَعر محبوبته المجدل الذي ظهرت غرته، قائلاً[٥]:

ظَبي من الإنسِ مجبـ ـولٌ علـ ـى خُلُـ ـقٍ للـ ــوحش، فهـ ــو إذا آنَـ ــسته نَفَـ ــرا
معقْرب الصدغِ يحكـ ـي نُـ ـور غُرتِـ ـهِ بـ ـدرا بـ ـدا بظـ ـلامِ الليـ ـل معتَجـ ـرا

---

[١] دمية القصر، ج٢، ص٤٠١.
[٢] ديوان الأبيوردي، ج٢، ص١٣٦.
[٣] ديوان الأرجاني، ج١، ص١٥٥-١٥٦.
[٤] المصدر نفسه، ج٢، ص٤٧٨.
[٥] المصدر نفسه، ج٢، ص٧٧٦.

مذْ سافر القلب من صدري إليهِ هـوى　　ما عاد بعد، ولم أعـرفْ لـه خَبـرا

فغرته منيرة، تبدو والشعر الأسود الملتفّ حولها مثل البدر.

ويبدو أن شعر المرأة كان الملمح الجمالي الأهم في نظر الأرجاني؛ فهو يصرح أن قلبه ساكن في شَعر محبوبته المجعد؛ إذ يقول[1]:

عينـاكِ بِـسفْكِ دمـي جنَتـا　　فالـصدغُ عـلام تجعـده؟
قلبـي فـي صـدغِك مـسكنُه　　فينـالُ الخَـد توقـده
والخـالُ بخَـدك أسـوده　　ولـذاك صـدري يحـسده
فيخـالِطُ بعـد تجـردِهِ　　يـاقوتَ الخَـد زبرجـده
تـاج – يـا دهـر – فـضائلُه　　مـن فـوق جبينـكِ تعقِـده

فهذه فتاة حسناء عاشت في القرن الخامس الهجري؛ حيث انتشرت الحضارة ودخلت الحياة الاجتماعية من أوسع أبوابها؛ فاستقبلتها المرأة بصدر رحب، وانغمست في لذّاتها آخذة منها بنصيب وافر، وكان ذلك انسجاما مع طبيعة هذه الحضارة الراقية، التي لم تغفل جوانب الجمال والحسن عند المرأة.

وفي المعنى نفسه يقول ابن مكنسة[2] [3]:

لـم أر قبـلَ شَـعرِهِ ووجهـهِ　　ليلاً على ضـوءِ الـصباح عسعـسا
والـسكْر فـي وجنَتِـهِ وطَرفِـهِ　　يفْـتَح وردا ويغُـض نَرجـسا

وكذا تناول الشريف العقيلي المعنى ذاته؛ إذ قال[4]:

كيفَ الـسبيلُ إلـى التـي هـي جنـةٌ　　مـن دونهـا نـار مِـن الرقَبـاءِ
هيفـاء طُرتُهـا[5] ونـور جبينهـا　　كـصقال بـدرٍ فـي صـدى ظلمـاءِ
وكـأن سـالفَها[6] طـراز أسـود　　قـد لاح فـي ديباجـةٍ حمـراءِ

ويكثر ذكر الشعر عند الشريف العقيلي، الذي سار على نهج شعراء عصره في تفضيل الشعر المجعد الأسود؛ إذ يصفه قائلاً[7]:

---

(١) ديوان الأرجاني، ج٢، ص٢٥٨-٢٥٩.
(٢) أبو طاهر إسماعيل بن محمد، شاعر مكثر، توفي سنة (٥١٠هـ). انظر: خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ص ٢٠٧.
(٣) المصدر نفسه، قسم شعراء مصر، ص ٢٠٨.
(٤) ديوان العقيلي، ص٤١.
(٥) الطرة: خصلة الشّعر. لسان العرب، مادة (طر).
(٦) السالف: الشعر المتدلي ما بين العين والأذن. لسان العرف، مادة (سلف).
(٧) ديوان العقيلي ، ص١١٥.

تَشَتَتَ شَمَلُ الصبرِ واتـصلَ الـصَد ... فوا أسفًا طالَ التأسـفُ والوجـد!
إلـى ا ِ أشـكو أن قلبـي يذيبــه ... برهرهةٌ[١] كالبدرِ حف بها الـسعد
فللوصل من بعـدِ الـصدودِ جبينُهـا ... وللسخْطِ من بعدِ الرضـا فَرعهـا
وللمسكِ والكـافور والـدر والمهـا ... لواحِظُها والثغر والـصدغُ والخَـد
ونكهتُهــا عنــد التــنفسِ عنْبــر ... وريقتُها فـي كـل أوقاتِهـا شَـهد

فالشاعر يشبب بالمحبوبة وملامح الحسن والجمال واضحة عليها؛ إذ هي امرأة ناعمة، جبينها أبيض، وشعرها أسود، تفوح منها رائحة المسك، وتتزين بالدر، إذا تنفّست فكأنما العنبر يخرج من فيها، ريقها شهد، عيونها جميلة، وكذا ثغرها وصدغها وخدها. إنها بحقّ امرأة تذوقت طعم حضارة القرن الخامس الهجري، بحيث استطاعت أن تتمتّع بجمالها وتزهو بحسنها وتختال بأناقتها.

ويقول العقيلي أيضا[٢]:

وظبيةٍ مـن ظِبـاء الإنـسِ آنِـسةٍ ... تجري من الروحِ مجراها مِن النفْسِ
كأنمـا خَـدها مـن تحـتِ سـالِفها ... صبح بدا نُوره من ظُلمـةِ الغَلَـسِ
تبكي وتضحك إن صدتْ وإن وصلَتْ ... فنحن في مأتمٍ منها ومـن عـرسِ

ولما كان الشعر المجعد ملمحا جماليا للمرأة في القرن الخامس الهجري، فقد أحبه الشعراء وتغنّوا به، غير أن بعضهم خالف هذه السنة؛ إذ تغزل بالمحبوبة واصفـًا شعرها طويلاً مسبلاً، يقول أبو الحسن المرغيناني [٣]:

ذوائــب ســود كالعناقيــدِ أُسبِــلتْ ... فمن أجلها مِنّـا النفـوس ذوائـب

ووردت الطرة في شِعر القرن الخامس الهجري غير مرة، وهي ما تطره المرأة من الشعر الموفى على جبينها وتصففه، وهي القَصة، يقول أبو يعلى ابن الهبارية[٤]:

---

(١) البرهرهة: المرأة البيضاء والناعمة. لسان العرف، مادة (بره).
(٢) ديوان العقيلي ، ج٢، ص١٨٤.
(٣) دمية القصر، ج٢، ص٧٦.
(٤) خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص١٣٥-١٣٦.

أُحِــب بــان[1] القــدودِ تَعطِفُــه   صبا الصبا بالغُـدو[2] والأصـل[3]
وكُل طَفْلٍ[4] كأن غُرتَـه[5] الـشمـ   ـس أنارتْ مـن كِلـةِ الطفَـل[6]
مبلْبــل الــصدغ[7]، ورد وجنَتِــهِ   أحمر مـن قبـل حمـرةِ الخجـل
ووجهــه البــدر تحــتَ طُرتِــهِ   يبـدو كـصبحٍ بالليـل مـشْتَمِل

فالشاعر يحب المرأة الطويلة اللينة الرقيقة الناعمة، ذات الجبين المضيء مثل الشمس، والشعر المنتشر على جانبي الوجه، والخد الوردي، والوجه المنير الذي يبدو من تحت خصلات الشعر السوداء الجميلة كأنه الصبح في أول ظهوره.

وفي المعنى نفسه، يصف محمد بن أحمد بن سهل الواسطي[8] محبوبته قائلاً[9]:

يا أهلَ واسِـطَ إن صـاحبكُم صـبا   من بعدِ طـول تَنْـسكٍ وصـلاحِ
تَبِع الهوى في حـب ظبـيٍ شـادِنٍ   ذي مقْلَـةٍ سـكْرى ولَفْـظٍ صـاحِ
في وجهِهِ لذوي البـصائرِ والنهـى   نُــزه العيــون وراحــةُ الأرواحِ
ذي غُــرةٍ زينَــتْ بأحــسن طُــرةٍ   كسوادِ ليـلٍ فـي ضيـاءِ صـباحِ

إنها فتاة تفردت بحسنها؛ فبزت الأخريات بما أوتيت من سحر الجمال، ذاك السحر الذي أثر فيه فجعله يخالف قناعاته العقلية ومعتقداته الدينية؛ فيصبو بعد إيمان طويل.

وثمة ذكر للوفرة، وهي الشعر المجتمع على الرأس، كما يقول تاج الدولة أبو الحسين ابن عضد

---

[1] البان: ضرب من الشجر سبط القوام، تشبه به الحسان في الطول واللين. لسان العرب، مادة (بان).
[2] الغدو: جمع الغدوة، وهي ما بين الفجر وطلوع الشمس. لسان العرب، مادة (غدو).
[3] الأصل: جمع الأصيل، وهو الوقت حين تصفر الشمس لمغربها. لسان العرب، مادة (أصل).
[4] فتاة طَفلة: رقيقة البشرة ناعمة. لسان العرب، مادة (طفل).
[5] الغرة: البياض من كلّ شيء. لسان العرب، مادة (بيض).
[6] الطَفْل، بفتح فسكون: الرخص الناعم الرقيق، والطَفَل، بفتحتين: يطلق معاني زمنية عدة: إقبال الليـل علـى النهار بظلمته، والظلمة نفسها، والوقت قبل غروب الشمس أو بعد العصر إذا طفلت الـشمس؛ أي مالـت إلـى الغروب، والوقت بعيد طلوع الشمس. لسان العرب، مادة (طفل).
[7] مبلبل الصدغ: المنتشر شعر جانب الوجه. لسان العرب، مادة (بلل).
[8] أبو غالب المعروف بابن بشران، ويعرف بابن الخالة أيضـًا، وكان أحد أئمة اللغة، ومكثرا من كتب الأدب، توفي سنة (٤٦٢هـ). انظر: الوافي بالوفيات ٨٢٨، النجوم الزاهرة ٨٥/٥، بغية الوعاة ١١، شذرات الـذهب ٣١٠/٣.
[9] دمية القصر، ج١، ص ٢٢٧.

الدولة[١] [٢]:

سـقاني سـحرا خَمـره وقـد لاحـتْ لـي النثـره[٣]
غـزالٌ فـاتن الطَـرفِ مليـح الوجـهِ والطـره
أنـا المـْلك وقـد ملكْـتُ قلبـي صـاحِب الـوفْره[٤]
وقـد زرقَـن صـدغيهِ علـى أبهـى مـن الزهـره
فمـن أسـود فـي أبيـض فـي أحمـر فـي صـفره

فهي امرأة مهتمة بشَعرها؛ إذ زينته بجمعه على الرأس، وبصبغ ما تدلّى منه بالأسود والأبيض والأحمر والأصفر؛ فظهر ذا حسن وجمال أسر الشاعر. وهذا المظهر التجميلي إنما ينم عن ترف ورفاهية واستمتاع بملذّات الحياة، ويدلّ على مدى التطور الحضاري الذي بلغه أناس القرن الخامس الهجري.

ووصف أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى الموسوي المرتضى فتاة بدت له في بغداد، ذاكرا ضفائرها[٥]:

بجانبِ الكرخ مـن بغـداد عـن لنـا ظَبـي ينَفـره عـن وصـلِنا نَفَـر
ذؤابتاهـا نِجـادا سـيفِ مقْلَتِـهِ وجفْنُهـا جفْنَـةٌ والـشفْرةُ الـشفَر
ضـفيرتاها علـى قتلـي تـضافرتا فَمن رأى شـاعرا أودى بـهِ الـشعر

ويصف أبو طالب أحمد بن محمد الآدمي البغدادي النحوي[٦] تطاير شعر فتاة تركية قائلاً[٧]:

وشادِنٍ مـن بنـي الأتـراكِ مـر بنـا خَوفَ الرقيبِ وطرفي عنه مصروفُ
يغـضي حيـاء إذا قَبلْـتُ راحتَـه كأنمـا طرفُـه بالـشوكِ مطـروفُ
كـأن أصـداغَه والـريح تَـضربها عقارب بعـضها بـالبعض ملفـوفُ

إنها فتاة جميلة تظهر عقارب أصداغها والريح تلعب فيها ملتفّة بعضها ببعض.

---

(١) أبو الحسين أحمد بن عضد الدولة، كان آدب آل بويه، وأشعرهم، وأكرمهم، وولي الأهواز. انظـر: يتيمـة الدهر ٢١٨/٢.
(٢) دمية القصر، ج١، ص٢٠٨.
(٣) النثرة: كوكبان متقاربان بهما بياض. لسان العرب، مادة (نثر).
(٤) الوفرة: الشعر المجتمع على الرأس. لسان العرب، مادة (وفر).
(٥) دمية القصر، ج١، ص٢١٥-٢١٦.
(٦) من شعراء الدمية، وإمام في النحو والصرف، توفي بعد سنة (٤٥٠هـ). انظر: دمية القصر ٣٩٣/١، بغية الوعاة ٣٧٤/١.
(٧) دمية القصر، ج١، ص٣٩٣.

كما وصف الطغرائي فتاة غطت وجهها خصلٌ من شَعرها، فظهر صدغاها الأسودان متدليين على وجهها المنير، كأنما هما مسك يسيل على كافور[١]:

لاحظتُـه والبـدر ليلـةُ تمـهِ   قـد لاح فـوقَ قميـصهِ المـزرور
فرأيـتُ صـدغَيهِ وقـد سـالا علـى   وجناتِـهِ مِـسكًا علـى كـافور
وكـأن خَـط عِـذاره فـي خَـدِهِ   سـطْرا ظـلامٍ فـي صـحيفةِ نُـور

ويبدو أن تعقيف الشعر على شكل الحرف نون كان شائعا لدى النساء في القرن الخامس الهجري، يقول أبو القاسم أسعد بن علي البارع[٢]:

لهـا بنمـاطِ القِـرطِ صـدغٌ معقـفُ   كما انعطفتْ في مهرقٍ[٣] نون كاتـبِ

وهذا يعكس اهتمام المرأة في هذا القرن بشَعرها، في ظلّ حضارة أتاحت لها أسباب التجمل والزينة الحضارية. ولم تكن أعين الشعراء بمنأى عن هذه الأشكال من التصفيفات، وإنما راحت ترصدها بكلّ شغف وحب؛ لأنها استثارت فيهم عواطف ورغبات سلبت ألبابهم.

وقال أبو محمد الحسن بن أحمد بن حِكّينا[٤]:

واسـقِ النـديم، تَعـد حـشاشَتَه[٥]   مـشمولةٌ[٦]، لَطُفَـتْ كمـا لَطُفـا
واعقِـد بِطَرفِـك صـدغَ ذي تَـرفٍ   لمـا أَلَـم بِخَـصرِهِ انْعطَفـا
كـالنّون منحنيـا، فـإن عبِثَـتْ   كَـف أحالَـتْ شَـكْلَه أَلِفـا
ذَهبـتْ بِـصرفِ[٧] الـراحِ نَخْوتُـه   فَطِفِقْـتُ محتَـضِنًا ومرتَـشِفا

فشعر صدغ هذه المرأة الترفة منحنٍ على شكل الحرف نون، إن عبثت به يد ذهب التواؤه فأصبح على شكل الحرف ألف. ولعلّ المرأة في القرن الخامس الهجري كانت تستعين بمن تصفّف لها شَعرها، فتجعله معطوفـًا أو ملتويا على شكل الحروف؛ رغبة منها في إظهار أجمل ما لديها من زينة.

وثمة إشارات إلى الأدوات التي كانت تستخدمها المرأة في تصفيف شعرها وتزيينه، كالمشط والعاج، يقول أبو الحسين أحمد بن محمد بن الدويدة[٨] [٩]:

كنـتُ أسـتعملُ الـسواد مِـن الأمــ   ـشاطِ، والشعر في سـوادِ الـدياجي

---

[١] ديوان الطغرائي، ص١٧٢.
[٢] دمية القصر، ج٢، ص٤٥٣.
[٣] مهرق: صحيفة. لسان العرب، مادة (مهرق).
[٤] خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص٢٤٣.
[٥] الحشاشة: بقية الروح في المريض والجريح. لسان العرب، مادة (حشش).
[٦] المشمولة: الخمر، أو الباردة منها. لسان العرب، مادة (شمل).
[٧] صرفها: خالصها. لسان العرب، مادة (صرف).
[٨] من شعراء الشام، كان في عصر بني صالح. انظر: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٥٣.
[٩] خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٥٣.

أَتَلَقّى بِه مِثْلاً بِمِثْلٍ، فلمّا صار عاجًا سرّحتُه بالعاجِ

فهي تستعمل الأمشاط السوداء لتزين شعرها الأسود، الذي ما إن شاب وصار أبيض حتى سرحته بأمشاط العاج.

ويقول الشريف العقيلي[١]:

حقًا لقد تَرك الفؤاد معذبا خَدٌ غِلالَتُه أرق من الصبا
لم يبد قط إلى العيون مفضضا إلا وعاد من اللحاظِ مذهبا
وإذا تكوّنتْ حيةٌ من شَعرِهِ يومًا أعادتْها المواشِطُ عقْربا

فالمشط أداة مهمة تصفّف به المرأة شَعرها وتزينه، وبه تشكّل الشعر أشكالاً عدة حسب رغبتها، فإما أن تسبله، وإما أن تجعله على شكل عقرب ذي التواء.

ويبدو أن بعض النساء كن يملن إلى صبغ شَعرهن؛ فيلونّه بألوان منها الذهبي، يقول الشريف العقيلي[٢]:

وأَصهب الشعر[٣] ما في خَصرِهِ غَضب إذا استُضيم ولا في ردفِهِ أدب
يبدو لنا خدّه من تحتِ سالِفِهِ كأنّه فِضةٌ من فوقها ذَهب

وفي هذا دلالة واضحة على ترف بعض النساء، اللواتي كن يمتلكن من المال والجاه ما يمكنهن من الاستمتاع بملذّات الحياة وأسباب الحضارة أكثر من غيرهن من النساء. وقد مر بنا سابقًا ما يؤكد هذا المظهر التجميلي في قول أبي الحسين ابن عضد الدولة.

وكان من تصفيفات الشعر تقسيم الشعر إلى نصفين، ويبدو أن هذا التصنيف مما كان يروق لعبد المحسن الصوري، الذي قال في جارية ناشرة شَعرها[٤]:

نَشَرتْ شَعرها نصيفًا فكانتْ في نصيفَين شَعرها والنصيفِ
غادةٌ أنكرتْ لحيي مماتًا ورأت ميتَتِي من المعروفِ

لقد تفننت المرأة في تزيين شَعرها وتصفيفه، ولعلّ هذا الأمر يشي بذوق حضاري ساد في القرن الخامس الهجري، ولم تكن المرأة لتتخاف عن مسايرة هذا الذوق حتى لا توصف بالتخاف في عصر تعددت معالمه الحضارية، ولا بالقبح وسط مجتمع آخذ بالحياة المدنية.

---

(١) ديوان العقيلي، ج١/ ص٦٣.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٧٠.
(٣) شَعر أصهب (ملون) مثل لون الذهب. لسان العرب، مادة (صهب).
(٤) ديوان الصوري، ج١، ص٣٠٥.

ج- الحلي

لا شك في أن انتشار الحلي والمجوهرات بين فئات المجتمع يعد دلالة واضحة على ما يشهده ذاك الجمع من ترف حضاري. ويزخر شعر القرن الخامس الهجري بذكر أنواع من الحلي والجواهر والأحجار الكريمة، ويكثر ذكرها في الوصف والغزل، الأمر الذي يدلّ على انتشار استخدامها والرغبة في اقتنائها. وسوف تأتي الدراسة على نماذج من الحلي والأحجار الكريمة، التي وردت في شعر القرن الخامس الهجري؛ بغية الكشف عن ولع المجتمع العباسي بها، وتأكيدا لتوافرها بكثرة بين يدي أبنائه، بحيث يكون استعمال المرأة لها أمرا طبيعيا في ظلّ ظروف أسهمت في وجودها حضارة القرن الخامس الهجري.

يقول الأرجاني مادحا[1]:

وجهـك عنـد الـشموسِ أَضـوؤها ... وفُـوك بـين الكـؤوسِ أَهنَؤها
ومـا رأى النـاس قبـلَ رؤيتهـا ... لآلئـًا فـي العقيـق مخْبؤهـا

فالشاعر ابن بيئته، وهي تؤثر فيه بحيث يصفها وصفًا دقيقًا، ويتمثل ما تحويه في شعره. وبذا، فإن الأرجاني بذكره اللآلئ والعقيق في سياق حديثه عن أسنان ممدوحه، إنما يصف ما تقع عليه عينيه في واقع حياته اليومية.

ويصف الأبيوردي فتيات رشيقات ذوات حلي كثيرة، ففي كلّ موضع تقع عليه نظرة يجد عقودا لهن من اللآلئ تحكي مباسمهن[2]:

وأوانِسٍ هِيـفِ الخُـصورِ إذا مـشَتْ ... ودتْ غُـصون أنهـن قُـدود
وبكُـل مرمـى نَظْـرةٍ مِـن وامِـقٍ ... تحكـي مباسِـمهن فيـهِ عقـود
خَـد وخـالٌ يعـشقان كأنمـا ... نُقِطَـتْ بِحبـاتِ القلـوبِ خُـدود

وما هذه الصورة التي وصفها الشاعر إلا انعكاس للوسط الحضاري الذي يعيش فيه، ذلك الوسط الذي كثر فيه الترف حتى بات سمة لطبقة من أفراد المجتمع في القرن الخامس الهجري، كانت تعيش في حواضر الدولة العباسية، وفي مدنها الرئيسة.

---

[1] ديوان الأرجاني، ج١، ص٨٤.
[2] ديوان الأبيوردي، ج٢، ص١٠-١١.

كما شاع لدى شعراء هذا القرن من الزمان ذكر الخلاخيل[١] من الذهب والفضة، وفي هذا يقول عبد المحسن الصوري متغزلاً بامرأة تزينت بخلخال صنع من الذهب والفضة، فبدا من شدة صفاء الفضة كأنه حشي بالحلي، يقول[٢]:

وذاتِ خَلخـــالٍ مـــن التبـــر غـــدا | من وضـح الفـضةِ محـشوا حلـى
كأنمــا قــضيب نُــورٍ دائــرٍ | بـدورهِ قـضيب نـارٍ قـد أضـا

كما وردت في شعر القرن الخامس الهجري ألفاظ أخرى للحلي، مثل الدر، وأسماء حجارة كريمة، مثل اللؤلؤ والعقيق، يقول عبد المحسن الصوري[٣]:

والطــل ينــشر كــل وقــتٍ | كيومنــا لؤلــؤًا فيهــا ســقيطا
وجــواهر الأنــوار تُطْلِــع | مــن زبرجــدِها خليطــا
فــإذا رأيــتَ الــدر أبــ | ـصرتَ العقيــقَ بــهِ منُوطــا

وقد كان شائعا في الشعر ذكر الأحجار الكريمة، وتشبيه الشعراء موصوفاتهم بها، ومنها اللؤلؤ الذي كان كثير الاستعمال في صناعة الحلي النسائية[٤].

وصور القاضي أبو سلم لقاءه بمحبوبته تصويرا رائعا شبه به دموع المحبوبة بالدر ودموعه بالعقيق؛ إذ يقول[٥]:

ولمــا تلاقينــا، وهــذا بنــارهِ | حريــقٌ، وهــذي بالــدموع غريــقُ
تَقَلــدتِ الــدر الــذي فــاض جفْنُهــا | فَرصــعه مِــن مقْلَتَــي عقيــقُ

وشبيه بالمعنى الذي قصده القاضي أبو مسلم معنًى قصده القاضي أبو يعلى، مصورا لقاء محبوبته ليودعها، مشبها دموعها باللؤلؤ ودموعه بالعقيق[٦]:

ولمــا التَقَينــا للــوداعِ، وقلبهــا | وقلبي يفيـضان الـصبابةَ والوجـدا
بكتْ لؤلؤًا رطْبـا ففاضـتْ مـدامعي | عقيقًا، فصار الكُل في نَحرهـا عِقْـدا

ومثلما تزينت المرأة بالخلخال، فقد اتخذت الخال ملمحا جماليا فتّانًا، فهذا مجبر بن محمد بن مجبر الصقلي يقع في حيرة بين خال المحبوبة وخلخالها، إلى أيهما ينظر[٧]:

تتــردد الأبــصار فيهــا حِيــرةً | في الحسن بـين الخـال والخلخـال
غــراء غرتْهــا الــشبيبةُ فاكتَــستْ | تيــه الــدلال وعِــزةَ الإدلال

---

[١] الخلخال: نوع من الحلي تلبسه المرأة في ساقها. لسان العرب، مادة (خلل).
[٢] ديوان الصوري، ج١، ص٥١.
[٣] ديوان الصوري، ج١، ص٢٦٨.
[٤] انظر: العلي، زكية، (١٩٧٦م)، التزيق والحلي عند المرأة في العصر العباسي، بغـداد، منـشورات وزارة الإعلام، ص١٠٤.
[٥] خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٤٠.
[٦] المصدر نفسه، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٦١.
[٧] خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٢، ص٨٢.

ووصف ظافر الحداد الخال على خد محبوبته بحبة من خرز أسود رصعت في صفحة كرة من العقيق الأحمر؛ إذ يقول[١]:

انْظُــر إلــى الخــال علــى خَــدها فــإن فيــه كــل معنًــى دقيــقْ

كوجــهِ زنجــي بــدا مــن خــلا ل النــار يــدعو بــالحريق الحريــقْ

أو حبــةٍ مــن ســبجٍ[٢] رصــعتْ في صفحةٍ مــن كُــرةٍ مــن عقيــقْ

أو الــسوادِ المــستَحب الــذي يلْمــع فــي حمــرةِ زهــر الــشقيق

فخالها الأسود يبدو على صفحة وجهها المحمر مثل وجه زنجي بدا من خلال النار، أو هو خرزة سوداء رصعت في صفحة كرة من عقيق، أو هو ذاك السواد الذي يختلط بحمرة زهر الشقيق.

ووصف الأرجاني محبوبته لذات الخال في غير موضع، يقول[٣]:

طَربــتُ لإلمــامِ الخيــال المعــاودِ ومسراه في جنْحٍ مــن الليــل راكِــدِ

وزورةِ ذاتِ الخال مــن غيــر موعِــدٍ فيا حسنَها لــو أننــي غيــر هاجِــدِ!

فهذا الخال موطن جمال تلك المرأة، وهو يزيدها حسنــًا يجعل الآخرين يتعجبون منه.

ويقول[٤]:

عجبــتُ لــذاتِ الخــال أنــى تقلّــدتْ دماء، وحمــلُ العِقْــدِ ممــا يؤودهــا

تَمــد أمــام الــسربِ للركــبِ جيــدها فللّــهِ مــن وحــشية مــا نــصيدها!

وطوقت المرأة عنقها بالعقود والأطواق[٥] من الذهب الأصفر، وفي هذا المعنى يقول ابن أبي حصينة[٦]:

لَــون المخــانِق[٧] والحلِــي يــدلنا أن المخــانِقَ مِثْلَنــا عــشّاقُ

لَو لَــم تَجِــد بِهــوى الأحِبــةِ وجــدنا ما اصــفَرتِ الأحجــالُ والأطْــواقُ

فلون المخانق الأصفر إنما هو دليل – حسب رأي الشاعر- على أن الحلي عاشقة، مثلها في ذلك مثل العاشق الذي يصفر لونه من أثر العشق وما يتبعه من لوعة واشتياق وسهر وفراق.

ويقول مشيرا إلى تلألؤ عقد محبوبته[٨]:

---

(١) ديوان ظافر الحداد، ص٢٢٣.
(٢) سبج: خرز أسود. لسان العرب، مادة (سبج).
(٣) ديوان الأرجاني، ج١، ص٣٢٣.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٢١.
(٥) العقد: الخيط ينظم فيه الخرز، لسان العرب، مادة (عقد). والطوق: حلي يجعل في العنق، لسان العرب، مادة (طوق).
(٦) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص٣١٧.
(٧) القلادة الواقعة على المخنق، لسان العرب، مادة (خنق). والمخنق هو الحلق، انظر القاموس المحـيط، مـادة (خنق).
(٨) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص٢١٩.

مـع كـل غانِيـةٍ كـأن رضـابها عسلٌ مـن الأشْـر العِـذابِ مـشار
بيضاء صِـيغَ مـن النجـومِ لِنَحرهـا عِقْد، ومـن قَـصفِ الهـلال سِـوار

ومن مظاهر تزين المرأة بالحلي في القرن الخامس الهجري لبسها الحِقاب، وهو حزام مطرز بالحلي تلفّه على خصرها. وثمة ذكر للحِقاب عند الشريف أبي جعفر محمد بن هبة ا العلوي الحسيني؛ إذ يقول[1]:

ولـم تُنـسِني عِفتـي غـادةٌ تَـزين المعاصـم منهـا الـسوارا
إذا انْقَبـتْ قلـتُ بـدر التمـا م لاثَ عليـهِ الغمـام الخِمـارا
ولا أغيـد الجيـدِ أمـسى يديـ ـر مـن طَرفِـهِ ويديـهِ العقـارا
إذا هـو أرعـفَ إبريقُـه كـستْ يـده كأسـه الجلنـارا
تخـالُ قَواقِعهـا لؤلـؤًا وهـى سِـلْكُه ودموعـا غـزارا
إذا المـاء عاتَـب أخلاقهـا رأيـتَ الـشقائقَ منهـا بهـارا
تـضيء لنـا فحمـاتِ الظـلا مِ من قبـل أن يقْـبس الفجـر نـارا
وبـين الوشـاحين منهـث القـضيب وتحـتَ الحِقـابِ نَقـًا حيـثُ دارا

فهي امرأة يزين السوار معصمها، وتلف حول خصرها حزاما مطرزا بالحلي، ما يدلّ على ترف اجتماعي عاشته بعض نساء ذلك الزمان. وبذا، فقد جمعت هذه الغادة ملامح المرأة الحضارية، التي ترفل في النعيم ولذّاته، حتى إن علامات الحسن والترف ظهرت عليها في غير موضع وعلى غير هيئة.

ويصف أبو كامل تميم بن المفرج الطائي[2] كيف تغص يدا محبوبته ورجلاها بالحلي، حتى إنه تكاد لا تكون هناك مسافة بين الأسورة والأخرى، فلا تتحرك بسهولة [3]:

ليـالِي فـي الخـدودِ محجبـاتٌ يـدعن القلـب مختـبلاً مـصابا
كعـين سـويقَةٍ حدقـًا ولكـن رأينـا ههنـا شَـنَبا[4] عِـذابا
وأعطافـًا إذا رمـن انعطافـًا أبـتْ أردافُهـا إلا جِـذابا
وأطرافـًا يحـار الحِلـي فيهـا فلـيس يكـاد يـضطرب اضـطرابا

وهذا من التشبيه المليح، الذي صور فيه الشاعر حسن محبوبته وزينتها.

ويصف الأرجاني كيف يجسد عقد محبوبته جيدها، فيقول[5]:

أَلَم صبحا وجمـر الحلْـي قـد بـردا وقد بـدا يخْطَـفُ الأبـصار متقِـدا

---

[1] خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج١، ص١٣٢.
[2] ذكره صاحب الدمية، وعدة من شعراء البدو والحجاز. انظر: دمية القصر ٦٨/١.
[3] دمية القصر، ج١، ص ٧٠.
[4] الشنب: البياض والبريق والتحديد في الأسنان. لسان العرب، مادة (شنب).
[5] ديوان الأرجاني، ج٢، ص٤٨٧-٤٨٨.

وشاحه حاسِـد فـي خَـصرِهِ هيفـً‍ـا والعِقْد في الجِيدِ منه يحـسد الجيـدا
مـضرج الخَـد، إن قربـتَ مقْتَبـسا من وجنَتَيهِ سراجا في الـدجى وقّـدا

فمحبوبته أكثر إشراقًا وجمالاً من الحلي، حتى إن وشاحها يحسد خصرها، وعقدها يحسد جيدها، وهي فوق ذلك تملك خدا أسيلاً جميلاً ووجنتين مضيئتين.

لقد تزينت المرأة في القرن الخامس الهجري بشتى أنواع الحلي والجواهر والأحجار الكريمة، بل يمكن القول إن التزين بالحلي كان أمرا دارجا زاد من افتتان الشعراء بالمرأة، وجمل الصور الشعرية التي تناولها هؤلاء الشعراء.

د- الخِضاب، والعِطر، والتطيب

تزايد الاهتمام بالعطور منذ القرن الرابع الهجري، وراجت صناعته[١]، وانتشرت الزيوت العطرية من البنفسج والنيلوفر والنرجس والكاردة والسوسن والزنبق والبادرنك والنارنج[٢]. وقد ازداد هذا الاهتمام في القرن الخامس الهجري، وثمة مبالغة في استعماله والشغف به في هذا العصر، ولعلّ في ذلك تماشيا مع روح العصر الذي ارتقت فيه معالم الذوق والفن والجمال.

وكانت المرأة كثيرا ما تحرص على الخِضاب، وقد رسم كثير من الشعراء صورا رائعة لمحبوباتهم وهن مخضبات، يقول الأرجاني في مليحة تصيب بسهامها الناظرين فتصرعهم حين تشير بأناملها المخضبة[٣]:

ودليــلُ فَرسِــك أن أشَــرتِ بأنْمــلِ مخــضوبةٍ أظفارهــا مــن أكْبــدِ

فهي تفعل بهم ما يفعل السيف والرمح، ودليل ذلك أنها حينما تشير بأناملها يظهر لون حنّاء أظفارها أحمر، وكأنها خضبت بدم الأكبد.

وقال ابن عبد الودود في حبيبته وقد اختضبت[٤]:

فــلا تظنــوه بالمرجــان منــتعِلا ولا تخــالوه بالحنــاءِ مختَــضِبا
وإنمــا فــاض دمعــي عنــد رؤيتــهِ فخاض من دمِ عيني بعض ما انـسكبا

فهو يجعل الحنّاء الذي اختضبت به محبوبته من دم عينيه الذي فاض عند رؤيتها، وفي ذكر الدم تأكيد لشدة احمرار الحنّاء.

---

[١] انظر: متز، الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢٥٧/٢.
[٢] انظر: المقدسي، محمد بن أحمد، (ت٣٨٠ هـ)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، (ط١)، (تحقيـق شـاكر العيبي)، دار السويدي للنشر، أبوظبي، ٢٠٠٣م، ص٣٦٦.
[٣] ديوان الأرجاني، ج١، ص٢٤٣.
[٤] خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٢، ص٥٤.

وصور القائم بأمر ا   عبد ا   بن عبد القادر با ، وكان أزهد الخلفاء، يوم الرحيل قائلاً[١]:

قـالوا: الرحيـل، فأنـشبتْ أظفارهـا   فـي خـدها وقـدِ اعـتلقْن خِـضابا
واخْــضر تحــتَ بنانهــا فكأنهــا   غَرســتْ بــأرضٍ بنَفْــسجٍ عنّابــا

ويطلب ظافر الحداد القصاص لنفسه من امرأة مخضبة قتله حبها، فيقول[٢]:

خـذوا بـدمي ذاتَ الخِـضابِ فـإنني   رأيـتُ بِعينـي فـي أناملِهـا دمـي

والكحل من مظاهر الزينة التي كانت شائعة في القرن الخامس الهجري، حتى إن كثيرا من الشعراء تغنّوا بالعيون الكحلى. يقول أبو علي الحسين بن سعد الآمدي[٣] في نسوة فوق الهودج [٤]:

مـن هاؤليـاء الظبـاء العِـين   حقــا فلــي شَــك بهــا ويقــين
وكأنّمــا تلــك الهــوادِج فوقهــا   صــدفٌ وهــن اللؤلــؤُ المكنــون
كحلى العيـون ومـا اكْـتَحلْن بِإثْمِـدٍ   يومــا ولا رمِــدتْ لَهــن جفــون

ووصف الأرجاني سبية أرقها السهر وكثرة البكاء، قائلاً[٥]:

شــبيه ســبِيةِ جــيشٍ غَــدتْ   تُــذيقُ الكَــرى مقْلَــةً لــم تَــنَم
جـرى الـدمع بالكُحـل مـن عينهـا   فَنَمــنَم جِلبابهــا إذْ ســجم

فدمعها الذي جرى من عينها مختلطـًا بالكحل، قد سقط على ثوبها تاركـًا أثرا.

وسبب الكحل في عيون المحبوبة سقما لعبد المحسن الصوري، الذي يقول[٦]:

وأكْحــلِ مــسقَمِ الأجفــان مقْلَتُــه   تُعـديك بالـسقْمِ لا تُعـديك بالكحـل
أحببتُــه بعــد عِلْــمٍ أن ســيقتُلني   وكيفَ خالفتَ عِلمي فيـهِ يـا عملـي
يلــومني أن يلومــوني فقلــتُ لهــم   كفوا فَذَنبي ذنوب الناس فـي عـذَلي

أما الأرجاني، فنظر إلى الكحل في عين محبوبته كأنه سِحر سبب له السهر؛ إذ يقول[٧]:

سكْرى اللّواحِظِ ما يفِقْـن مـن الـصبا   مــن كــل هيفــاءِ الموشــحِ رودِ

---

(١) خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج١، ص٢٤.
(٢) المصدر نفسه، قسم شعراء مصر، ج٢، ص١٤.
(٣) لغوي شاعر، عاش في بغداد والشام زمنًا، ثم استوطن أصبهان. انظر: معجم الأدباء ٢٩/٤.
(٤) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٤٦٢.
(٥) ديوان الأرجاني، ج٣، ص١٢٦٦.
(٦) ديوان الصوري، ج١، ص٣٨٩.
(٧) ديوان الأرجاني، ج٢، ص٣٨٨.

مكحولــةٌ بالــسحرِ منهــا مقْلَــةٌ   كُحِلَــتْ لهــا عينــاي بالتــسهيدِ

ويصف الأبيوردي فتاة تركية مكتحلة، فيقول(١):

وغِيــد (٢) مِــن التــركِ مكْحولَــةٌ   عيونُــا يقَلبهــا الربــرب

أما الطيب والمسك، فقد شاعا كثيرا في القرن الخامس الهجري؛ إذ هما من ثمار الحضارة آنذاك، وقد سجل الشعراء صورا رائعة لمحبوبات متطيبات أو متدهنات؛ فالأبيوردي يذكر البشام، وهو ضرب من الشجر دهنه أطيب الأدهان، وعوده يستاك بفرعه، يقول(٣):

تبــاكِر عــودا مِــن بــشامٍ تَعلــه   بِفيك – وما لاح الــصباح – شَــمولُ

ويصف الفقيه أبو المجد، قعدان بن كثير بن الحسين البالسي بدوية طابت الصحراء بطيبها، فيقول(٤):

وعَريــرةٍ إن ســل صــارم لحظِهــا   تيــه الــدلال ففــي القلــوبِ يــشام

بدويــةٍ لــولا تَــأَرج طيبهــا   مــا طــاب شِــيح بــالفَلا وثُمــام

والمسك مما حبب أبا علي هلال بن المظفر الزنجاني المعروف بالديوداري بمحبوبته؛ إذ يقول(٥):

إنــي ليعجبنــي العِــذار ممــسكًا   والصدغُ مطروحــا عليــه مزرقَنــا

ويــشوقُني ســحر العيــون المجتلــى   ويروقنــي ورد الخُــدودِ المجتنــى

ويــصيدني القَــد القــويم كأنــه   غُصن إذا عثَرتْ بــهِ الــريح انثنــى

وكان المسك والطيب معيارا لجمال المرأة، فإذا افتتن شاعر بالغ في وصف محبوبته حتى يجعل المسك والطيب دونها، وفي هذا المعنى يقول الأرجاني(٦):

بنفــسي حبيــب هــون البعــد طَيفُــه   علي، ولكن نَغــص القُــرب صــده

ومستَهزئٌ في الحــسن بالبــدر وجهــه   ومستهزئٌ في الطّيبِ بــالوردِ خَــده

وبالمِــسكِ صــدغاه وبالــدر ثَغْــره   وبــالظبي عينــاه وبــالخوطِ قَــده

وقد بولغ في استخدام الطيب والمسك، حتى إن الجو امتلأ بهما وأصبحت رائحته طيبة إذ تنفسهما، وفي هذا يقول الملك الأجلّ عمر بن شاهنشاه بن أيوب(٧):

---

(١) ديوان الأبيوردي، ج١، ص ٦١٠.

(٢) الغيد: جمع غادة، وهي الناعمة من النساء. لسان العرب، مادة (غيد).

(٣) ديوان الأبيوردي، ج٢، ص١٩٥.

(٤) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٢٢٨.

(٥) دمية القصر، ج١، ص٣٢٠.

(٦) ديوان الأرجاني، ج٢، ص٥٥٤.

(٧) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص١٠٦.

هـب النـسيم مِـن الميطـور آصـالا   فهاج لي منه عـرفُ المِـسكِ بلْبـالا
تَـأرج الجـو مِـن أنفاسِـهِ عبقًـا   كـأن نُـصرةَ جـرتْ فيـهِ أذيـالا

وصور الأرجاني محبوبته المتطيبة بالزعفران وهو ينظر إلى وجهها الضاحك المنير الجميل محدقـًا، فيجري الدمع في عينيه من غير حزن، قائلاً[١]:

وقـال رقيبانـا: دعـوا لَـوم نـاظِرٍ   ونـاظِرةٍ لـم تَنْـو سـوءا فتُحـرج
رعتْ هي روض الزعفران ومـا درتْ   وحدقَ ذا في الشمسِ عنـد التـوهج
فبـالطبع مجـاوب بكـاه وضـحكُها   بلا محـزنٍ، ممـا ظَنَنّـا، وممـبهج

إنها امرأة تنتمي إلى حضارة القرن الخامس الهجري، تطيبت بالزعفران حتى كأنها رعت روضة، فظهر وجهها مصفرا.

وذهب العقيلي إلى المبالغة حين قال إن رائحة محبوبته المتطيبة قد بغّضت الناس برائحة العنبر[٢]:

تاهـــتْ بوجـــهٍ أزهـــر   وزهـــتْ بِطَـــرفٍ أحـــور
رود كـــــأن بنانَهـــــا   قَـــصب العقيـــقِ الأحمـــر
قـــد بغـــضتْ أنفاســـها   للنـــاسِ ريـــح العنْبـــر

واستخدمت المرأة المندل الهندي، وهو عود طيب الرائحة، كما في قول أبي يعلى ابن الهبارية[٣]:

طَرقَـتْ وسـاريةُ النجـومِ هجـود   وسـرتْ وشـاردةُ الريـاحِ ركُـود
مهـزوزةٌ هـز القَـضيبِ، كأنمـا   في الريطِ[٤] غُصن البانةِ[٥] الأُملود[٦]
نَقَعـتْ مـساويك الأراكِ[٧] عَليلَهـا   بِرضـابِها، والهاشـمي صـدود
ما كنـتُ أعـرفُ، والحـدود ذريعـةٌ   أنّـي شَـقِي، والأراك سـعيد
والمنْـدلُ[٨] الهنْـدِي أولـى لـو درى   لـولا أحـاظٍ[٩] قُـسمتْ وجـدود

فهذه المرأة التي تطيبت بالأراك كان أولى بها التطيب بالمندل الهندي، الذي يفوق غيره طيبا.

---

(١) ديوان الأرجاني، ج١، ص٢٧٥.
(٢) ديوان العقيلي، ج١، ص١٦٧.
(٣) خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص٨٩-٩٠.
(٤) الريط: جمع الريطة، وهي الملاءة؛ أي الملحفة كلها نسج واحد وقطعة واحدة، وكلّ ثوب لين رقيق.
(٥) البانة: واحدة البان، وهو ضرب من الشجر سبط القوام لين، ورقه كورق الصفصاف، تشبه به الحسان في الطول واللين.
(٦) الأملود: الناعم اللين الملمس.
(٧) الأراك: شجر تتخذ منه المساويك، طيب الطعم في الفم.
(٨) المنْدلُ: العود الطيب الرائحة.
(٩) الأحاظي: كالحظوظ، جمع الحظ.

إن المرأة في القرن الخامس الهجري لم تدخر جهدا في الإفادة مما أتيح لها من وسائل وأدوات تجميلية لتظهر بالمظهر الأجمل، وفي هذا دلالة على رقي حضاري كبير عاشت المرأة في كنفه وحرصت على مسايرته ومواكبته.

الفصل الرابع

مظاهر الحضارة الاجتماعية الحضارية في شعر القرن الخامس الهجري، وتجلّياتها في:

أولاً: العادات والتقاليد

أ- الاحتفال بالأعياد

ب- الاحتفال بالمناسبات

ج- تبادل الهدايا (التّهادي)

د- الأطعمة، والأشربة

ثانيا: مظاهر اللهو والتسلية

أ- مجالس الخمر

ب- الغناء، وآلاته

ج- الشغف بالغلمان

د- الرياضات الذهنية، والجسدية

أولاً: العادات والتقاليد

إذا كانت الحضارة قد صبغت المجتمع الإسلامي العربي بصبغة نور المعرفة، وتغلغلت في العقول، ونفذت بأريج عطرها إلى جمهرة الناس فضلاً عن خاصتهم، فإن الشعر قد أخذ يرسم على منوالها ويحذو حذوها، وينفذ إلى أعماق حياة الناس لا مادحا أو هاجيا أو راثيا – فذلك أمر قديم معروف مألوف – وإنما معبرا عن حياتهم بجملة من العادات والتقاليد، بعدها جزءا من ثقافة المجتمع الإسلاميّ في القرن الخامس الهجري. بحيث تحول الشاعر إلى راصدٍ لعادات مجتمعه وتقاليده بأشكال جديدة منسجمة مع الواقع الحضاري لزمانه، وكأنه عالم اجتماع، غير أنه عالم شاعر ووصاف ماهر ومعاشر لبق.

ففي مسيرة الحضارة الإسلامية ينزع الشعر العربي في القرن الخامس الهجري – فيما نزع إليه من مواكبة مسيرتها – إلى أن يكون صاحب رسالة ترسخ لجملة من العادات والتقاليد التي ترسخت في موروثه الحضاري. وبعبارة أخرى فإننا نجد عددا من الشعراء الذين رزقوا في ذلك القرن ملكة الشعر، يجعلون من أنفسهم من خلال بعض موضوعات شعرهم الاجتماعي شواهد تنقل لنا صورا لعادات مجتمعهم وتقاليده، ممزوجة بأسلوب حضاري رفيع، تليق بحضارتهم، تمثلت في صور متنوعة، من مثل: الاحتفال بالأعياد والمناسبات على اختلافها، والتهادي في ما بينهم، ومن صميم خصوصياتهم مآكلهم ومشاربهم وموائدهم، وما يقدم فيها من أصناف الطعام والحلوى.

أ- الاحتفال بالأعياد

احتفل العباسيون في القرن الخامس الهجري بأعياد كثيرة، منها الأعياد الإسلامية، ومن أهمها عيدا الفطر والأضحى، اللذان كان يحتفل بهما في شيء من الأبهة والعظمة، خاصة في البلاد التي يكون فيها الشعور الإسلامي قويا؛ لِما لهذه المظاهر الاحتفالية من أثر في إظهار قوة المسلمين أمام أعدائهم من الروم في الثغور.

وقد عد هذان العيدان من محاسن الإسلام، حتى إن المدن الإسلامية، كبغداد في عهد العباسيين، والقاهرة في عهد الفاطميين، كانت تسطع في أرجائها الأنوار في ليالي هذين العيدين، وتُزين بالأعلام والأقمشة الحريرية ذات الألوان الزاهية، وتُضرب الطبول وتُدقّ الأبواق، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتكبير والتهليل، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل، وتتلألأ الأنوار الخاطفة للأبصار من قصور الخلافة؛ حيث يخرج الخليفة راكبا

لصلاة العيد، مرتديا أفخر الملابس وبصحبته كبار رجال دولته، بينما يقف العامة على جانبي الطريق لتحيته، وهم ينادون: السلام على أمير المؤمنين ونور الإسلام [(١)].

والشعر في هذين العيدين وغيرهما كثير وفير؛ إذ كان الشعراء يحرصون على حضور هذه المناسبات؛ كي يبثوا بشراهم بقدومها إلى ممدوحيهم، مهنئين ومتمنين لهـم حيـاة سـعيدة، وقاصدين- في الوقت نفسه - نوال عطاياهم وهداياهم. ومن هؤلاء الشعراء الأرجـاني، الـذي يهنّئ بعيد الفطر، قائلاً[(٢)]:

تأمـلْ بعينيـك العـشيةَ نـاظرا ... إلى جحفَل الفِطْر الجديـدِ الـذي زحـفْ
فقد مـد كـف الغَـرب زنْـدا مخَـضبا ... عليـه هـلالٌ كالـسوار إذا انعطـفْ
فـأومى بتَـسليمٍ عليـك مهنّئـا ... بعيـدٍ، وفـي كفيـه مـن يمنِـهِ تُحـفْ
فعـاد إليـك العيـد مـا هبـتِ الـصبا ... وما انتاب من بعدِ الدجى الصبح وارتَدف
وعاد إليـك الـصوم فـي ظِـل دولـةٍ ... بـألف افتتـاحٍ واختتـامٍ ومنْتَـصفْ
فصومك صوم عـن تُقًـى وهـو الـذي ... لـدى الـيـزداد المطيـع بـهِ زلْـفْ

فشهر رمضان قد انتهى، وبانتهائه جاء العيد، الذي يسلّم على الممدوح مهنّئا، ذاك الممـدوح التقي الذي يتمنى له الشاعر طول العمر والسعادة.

أما ابن الخياط، فقال مادحا القاضي جلالَ الملك أبا الحسين علي بن محمد بن عمار، ومهنّئـا إياه بالعيد[(٣)]:

لنـا كُـل يـومٍ منـك عيـد مجـدد ... صـبوح التّهـاني عِنْـده وغَبوقُهـا
وقَفْـتُ القَـوافي فـي ذُراك فلـم يكُـن ... سِـواك مِـن الأمـلاكِ ملْـك يروقُهـا
ومـالِي لا أُهـدِي الثّنـاء لأهلِـه ... ولـي منْطِـقٌ حلْـو المعـاني رشـيقُها
وإن تَـك أصـنافُ القلائـدِ جمـةً ... فمـا يتـساوى درهـا وعقيقُهـا

فأيام الممدوح كلّها أعياد، وأفراحه تتجدد تجدد الزمان والمكان. ولأنه أهل للثناء، فقد وقـف الشاعر قوافيه عليه مادحا ومهنّئا.

وفي السياق نفسه، الذي يفضل الشاعر فيه ممدوحه على العيد، يقول ظـافر الحـداد مادحـا الوزير الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي[(٤)]، ومهنّئا إياه بعيد الفطر[(٥)]:

---

(١) حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٥٢. وانظر: المصدر نفسه، ج٤، ص٦٤٣-٦٤٤، ومتز، الحضارة الإسلامية، ج٢، ص٢٩٨.
(٢) ديوان الأرجاني، ج٣، ص٩٥٠.
(٣) ديوان ابن الخياط، ص٤٨.
(4) الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي: وزير للفاطميين بعد أبيه، ولد في القاهرة، وكان حسن التدبير والرأي، قتل سنة (٤٩٢ هـ). انظر: وفيات الأعيان ٤٤٨/٢، الأعلام ٢٩٧/٧.
(5) ديوان ظافر الحداد، ص٨٠.

قَـتَهن هـذا العيـد فهـو مهنـأٌ بـورودِ زاخِـر فَـضلِك العجـاجِ
لـولا لقـاؤك مـا تَحمـلَ كُلْفَـةً فـي السير بـين مهامِـهٍ وفجـاجِ
لينـالَ فـي عرفـاتِ وجهـك وقْفَـةً يغـدو بهـا مـن جملَـةِ الحجـاجِ
فلنـا بوجهـك كـل يـومٍ مثلُـه عيـدان عنـد تَوجـهٍ ومعـاجِ
لا تَعـدمِ الأيـام ظِلـك إنـه عـون اللهيـفِ وملجـأُ المحتـاجِ

ففائض فضلك كثير، وهذا العيد لم يكن ليتحمل مشقة القدوم وعناء السفر لولا أنه راغب في لقائك، وطامع في أن يرى صفحة وجهك، فدم لنا سالما أيها الكريم الجواد.

ويهنّئ أبو الحسن التهامي ممدوحه بعيد الفطر، قائلاً[1]:

لِيهنـك عيـد قـد أطلّـتْ سـعوده وشـهر صـيامٍ ودعتْـك أواخِـره
وقـد كـسِبتْ أيامـه منـك رِفعـةً كذي المِسكِ يعدي ريحـه مـن يجـاوره

فالأيام الأواخر من شهر رمضان تودع ممدوحه طالبة له من ا السعادة والهناء، تلك الأيـام التي كسبت مثلك البركة والرفعة، كالمسك الذي يعدي ريحه من يجاوره.

ولما كان عيد الفطر يلي شهر رمضان، الذي ينماز عن أشهر السنة جميعها ببروز المشاعر الدينية، والبعد كلّ البعد عن مظاهر الانحراف الخُلقي، فقد قرن بعض الشعراء وصفهم هذا العيد بعودة ما كانوا يأنسون من لهو وطرب، وهذان مظهران من مظاهر الحضارة كانا يبرزان في الأعياد على نحو واضح، يقول ظافر الحداد[٢]:

لمـا تَجلـى هـلالُ العيـدِ عـاد بمـا قد كنتُ آنَس مـن لهـوٍ ومـن طَـربِ
يلوح فـي الأفْـق الغربـي مـن شَـفَقٍ كالنون خُطتْ على لـوحٍ مـن الـذهبِ

أما العقيلي، فيقرن تهنئته بالدعوة إلى اللهو، والتنعم بشرب الخمر؛ إذ يقول[٣]:

اسـحب أبـا عبـدِ الإلـهِ أذيـالَ أثـوابِ التبـاهي
واخْلَـع عِـذارك لاهيـا مـع كـل لاهيـةٍ ولاهِ
وانعـم بابنـةِ كرمـةٍ مـا افْتَـضها بالنـار طـاهِ
وتَهـن بالعيـدِ الـذي أيامـه غُـر الجِبـاهِ

وفي الدعوة إلى اللهو، وشرب الخمر يتضح أثر الحضارة؛ إذ يحيط بهذين المظهـرين مظاهر حضارية عدة كانت معروفة آنذاك. كما احتفل شعراء القـرن الخـامس الهجـري بعيـد

---

(1) ديوان التّهامي، ص٢٢٥.
(2) غرائب التنبيهات، ص١٥.
(3) ديوان العقيلي، ج٢، ص٢٩٥. وانظر للاستزادة: ديوان ابن الخياط، ص ٦٢، وديوان الأبيـوردي، ج١، ص ١٣٠، وديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص ١١٩، وديوان ظافر الحداد، ص ٨٠، وديوان التهامي، ص ٢٢٥.

الأضحى؛ فهنّؤوا ممدوحيهم ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة، داعين لهم بطول البقاء، وبالسعادة والسرور اللذين لا ينتهيان.

ولعلّ ابن أبي حصينة من أكثر شعراء القرن الخامس الهجري تهنئة بعيد الأضحى، ويكاد يقصر تلك التهاني على ممدوح واحد هو معز الدولة أبو علوان، يقول مهنئا العيد به؛ إذ هو سبب الفرح والسعادة، حتى إننا نتمتّع بجمال وجهه لا بالعيد(١):

هنيت بالعيد السعيدِ فإنّنا ... بجمال وجهك لا بِهِ نتمتع

ويقول(٢):

وهنيتَ بالعيدِ الذي أنتَ حسنُه ... كما أن حسن الدِّيلِ الدن عالِمُه

إذا ما مضى عام تَسربلْتَ سعده ... ووافاك بالإقْبال والسعدِ قابِلُه

يقول جاعلاً حسن وجه ممدوحه أبي علوان سببا في طلوع العيد؛ إذ هو الذي جماله لما برز(٣):

ما العيد لولا حسن وجهك طالعا ... فيهِ ولولا سنةُ الرحمن

جملتَه لما برزتَ معيدا ... فيهِ كأنك فيهِ عيد ثاني

فاسعد به لا زلْتَ حِلْفَ سعادةٍ ... وعلو مرتبةٍ ورفْعةٍ شان

وافْخَر فإنك في أوانِ أهلُه ... قد فاخَروا بك أهلَ كل زمان

ولا يكون هذا البروز في العيد إلا بحلّة جميلة، وكسوة زركشتها الحضارة بخيوطها. ولأهمية شهر رمضان الدينية، فقد هنّأ الشعراء ممدوحيهم به، ومن ذلك قول الغزي مهنئا، ومبرزا صفات ممدوحه الدينية(٤):

يا كعبةَ الكرمِ التي آمالُنا ... وصِفاتُنا وفْد لها وحجيج

البحر كفك والرياح مدائحي ... والبحر مِن عصفِ الرياحِ يموج

ورد الصيام بيمنِهِ فاسعد بهِ ... شَهر له دون الشهور أريج(٥)

واسلم لِدينٍ لم تَزلْ شَرفًا له ... فالفَضلُ أمر لو عقَلْتَ مريج(٦)

فهو شهر ينتشر فيه غير مظهر من مظاهر الحضارة الاجتماعية، منها ما له علاقة بالآداب والأخلاق، ومنها ما يتعلق بعادات الناس وتقاليدهم في المأكل والمشرب.

---

(١) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص٣٧.
(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٨٥.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢٥٢. وانظر للاستزادة: المصدر نفسه، ج١، ص ٢٦، ٤٥٦.
(٤) ديوان الأبيوردي، ج١، ص٣٢٩.
(٥) أريج: توهج ريح الطيب. لسان العرب، مادة (أرج).
(٦) مريج: عظيم. لسان العرب، مادة (مرج).

وفي مقطوعة أخرى يؤكّد ظافر الحداد عِظَم قدر ممدوحه الأفضل شاهنشاه، حتى إن شهر رمضان لو كان ينطق، لقال: هنّوني به، يقول(١):

بِجلال قَدرك تَفْخَر الأزمان | وأشَد مفْتَخِرٍ بِهِ رمضان
لو كان ينْطِقُ قال: هنوني بِهِ | لكن يخِل بِهِ فَم ولِسان
لولا سيوفُك ما استَقَر لنا بِهِ | صوم ولا نُسك ولا قُرآن
بركاتُك اشتملَتْ عليهِ فما خَلا | مِنْهن لا شهر ولا إنسان

ففي عهد الأفضل انتشر الأمن، وحلّ الأمان؛ فاستقر بذلك صوم رمضان، وأدى الناس نُسكهم، وتمت لهم تلاوة القرآن. وهذه مظاهر تمثلت فيها الحضارة على نحو ما.

ولم يقتصر احتفال العباسيين في القرن الخامس الهجري على عيدي الفطر والأضحى، كما لم يحصروا تهنئة ممدوحيهم فيهما وفي شهر رمضان؛ إذ احتفلوا بعيدي النيروز والمِهرجان، وهما من الأعياد الفارسية القديمة، التي اهتم بها الخلفاء فضلاً عن العامة، حتى إنهم جعلوا النيروز عيدا قوميا يتهادون فيه ويقيمون الولائم والاحتفالات. والنيروز مبدأ السنة الشمسية، أما المِهرجان فموعده بعد النيروز بمائة وأربعة وتسعين يوما، وكان يعد أول أيام الشتاء، وكان الناس يتهادون فيه كما يتهادون في النيروز، وفيه يكثر الهرج والملاهي واللعب والفرح والسرور(٢).

وقد شارك شعراء القرن الخامس الهجري الخلفاء وغيرهم في احتفالاتهم بهذين العيدين، وقالوا في ذلك شعرا أبرزوا فيه ما تخلل تلك الاحتفالات من جمال حضاري وترف مادي اصطبغت بهما حضارة مجتمعهم، فضلاً عن إبرازهم ما كان يشيع حينئذٍ من فرح ومرح وبهجة. وهم في ذلك كله سائرون على ما سنّت الفرس، وسالكون مسلكها في التهاني والتهادي، ومقتدون بها في عاداتها وتقاليدها الموروثة في هذين العيدين، يقول الأبيوردي مادحا، ومهنّئًا بالنيروز(٣):

وأسعد بِيومِك، فالإقبالُ مؤْتَنَفٌ | والشملُ مجتَمِع والشعب ملْتَئِم
قد سنتِ الفُرس للنيروز ما طَفِقَتْ | تَجري إليهِ على آثارها الأُمم

فهو يدعو ممدوحه إلى أن يسعد بهذا اليوم، الذي يكون فيه الإقبال مستأنفًا وجديدا، ويكون الشمل - أيضا- مجتمعا، والناس ملتئمين، وهذه جميعها مظاهر حضارية عاشها أُناس ذلك الزمان.

وكذا يدعو أبو القاسم بن أبي العباس الأسفراييني ممدوحه إلى السعادة في هذا اليوم، وإلى

---

(1) ديوان ظافر الحداد، ص٣٠٥. وانظر للاستزادة: المصدر نفسه، ص ١٩٣، ٢٨٩، ٣١٤، وديوان الأبيوردي، ج١، ص ٣٢٩، وديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص ١٨٥، وديوان ابن الخياط، ص ٢٦٢، وديوان الأرجاني، ج٣، ص ١٤٨٧، وخريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٢، ص ٥ – ٦.

(2) انظر: حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٥٣ وما بعدها، وانظر: متز، الحضارة الإسلامية، ص٢٩٣ وما بعدها.

(3) ديوان الأبيوردي، ج١، ص٦٣٨.

رفاهية العيش قائلاً[١]:

وأقبــلَ نَحــوكَ الإقبــالُ حتــى غــدا بــصرا وأنــتَ النــور فيــهِ
فَنَــورز ألــفَ نَيــروزٍ ســعيدا رفيــع الجــد فــي عــيشٍ رفيــهِ

ويؤكد الأرجاني المعنى نفسه؛ إذ يهنّئ ممدوحه بالنيروز، ويطلب إليه أن يزداد سرورا وسعادة في هذا العيد، قائلاً[٢]:

فَتَهن النّيــروز، وازدد ســرورا فهــو عيــد معظــم خُــسرواني
جــاء ذا الفِطْــر كالمــصلي مــع الــسا بــق شــوقًا إليــك يــستبقان
عجِمــي إمامــه عربــي قــد ألمــا، فَلْيهنــك الزائــران
وصــباح النيــروز أولــى صــباحٍ بالتهــادي لــدى الــورى والتّهــاني
فتقبــلْ هــديتي فهــي در كــل در ســواه فــي الأرضِ فــان
وابــقَ مــا وشــح الريــاض ربيــع حاكيــا ورده خــدود الحِــسان

فهو يهدي ممدوحه في هذا اليوم؛ يوم التهادي والتهاني هدية يرجو منه أن يتقبلها، ويدعو له بالبقاء، وما هذا إلا من أثر الحضارة التي عكست ظلالها على عادات أفراد المجتمع وتقاليدهم.

ولما كان النيروز يوما تتجمل فيه الطبيعة؛ فتكتسي حللاً زاهية، ويصفو الجو، وتنتشر رائحة الورود، فقد هنّأ أبو بكر أحمد بن محمد العنبري السجزي بعض الرؤساء قائلاً[٣]:

أقبــلَ النيــروز إقبــا لَ عــروسٍ تَتَكــسر
واكتــسى الــروض نباتًــا بــين وردٍ ومعــصفَر
وصــفَا الجــو صــفاء الــ ــهندواني المــذكر
وبــدتْ رائحــةُ الأنــ ــوار كالنــد المعنبــر
فعيــون المــزن فــي غيــ ــر بكــاءٍ تتقطــر
فتــرى فــي كــل روضٍ عنــدليبا تتمكــر
وتــرى كــل مكــانٍ مثــلَ ديبــاجٍ مــشجر

وهذه جميعها صور حضارية جميلة كانت ترافق النيروز في حلّه وترحاله، وتترك أثرها في حياة أُناس القرن الخامس الهجري.

وللطغرائي أبيات يمدح فيها مجد الدولة، ويهنّئه بالنيروز، يتضح فيها أثر الحضارة في هذا

---

[١] دمية القصر، ج٢، ص٣٢١.
[٢] ديوان الأرجاني، ج٣، ص١٥٠٣-١٥٠٤.
[٣] دمية القصر، ج٢، ص٢١١

العيد، يقول[1]:

أهنــئُ مولانــا بــأيمن قــادمٍ تَقَيــلَ فــي الإحــسان أفعالَــه الزهــرا
بيــومٍ أجــد الــدهر فيــهِ لِباســه وأبــرز مــن مكنــون زينتِــهِ الــذخرا
وقد حـل فيـهِ الـشمس بيـتَ سـنائِها كَطَلْعــةِ مولانــا وقــد مــلأ الــصدرا
وعــدلَ ميــزان الزمــان كأنّمــا تَعلــم عــدلاً منــه قــد ثَقِــفَ الــدهرا
ولان بــهِ قلــب الغَمــامِ علــى الثّــرى كرأفتِــهِ إذْ يطْــرد البــؤْس والفَقْــرا
وألبــسه وشْــي الثيــابِ محبــرا كمــا هــو يكــسوني أياديــه تتْــرى

فهو يوم أبرز فيه الدهر زينته، واكتسى جديد اللباس فرحا بقدومه، وأمطرت الـسماء الأرض فانتشر فيها الحب ونما الورد حتى بدت مثل الغادة تلبس وشي الثياب.

وانظر إلى الغزي يرسم للنيروز لوحة نشرها في معرضه الوصفي، يظهر فيها إلى جانـب الألوان أولئك الرسامون الذين يقومون على هذه اللوحة؛ فواحد يصبغ، وثانٍ يخلط الألـوان، وثالـث ينسق الخطوط وينظمها، ورابع يحرك يده بالريشة، وخامس وسادس كلّهم يعملون متساندين، يكمل كلّ منهم عمل الآخر، يقول[2]:

قــد أقبــلَ العيــد والنيــروز يتبعــه مبــشّرا بقــدومِ الــوردِ مطلعــه
أما ترى صفحاتِ الـروضِ قـد جليـتْ في معـرضٍ لـم يكـن حينًـا تدرعـه
تُزهــى بأخــضر لا صــنعاء تخلعــه علــى رباهــا بــل الأنــواء تــصنَعه
والمزن تبكـي علـى أطرافهـا سـحرا بعـارضٍ مـا يجـف الـدهر مدمعـه
والنور قد نَظَـم الأغـصان فـي نَـسقٍ يزهــى ويــبهج مــرآه ومــسمعه
إذا الــشّمالُ أصــابتْه شــمائلُها راحــتْ تُفَرقُــه طــورا وتجمعــه
والماء كـالراحِ فـي الأنهـار تُخْفِـضه أيـدي الريــاحِ كمـا تهـوى وترفَعـه

وكما تعم السعادة الناس يوم النيروز، فإن اللهو والأنس يكونان ملازمين فئـة مـنهم، يجـنح أصحابها إلى التمتع بهذا اليوم متّخذين لذلك غير وسيلة، وشاهد ذلك قول ابن الهبارية[3]:

(1) ديوان الطغرائي، ص١٤٨-١٤٩.
(2) ديوان الغزي، ص٥٢٦.
(3) خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص١٠٦

بـدتْ غُـرةُ النيـروز بـاللهو والأُنْـسِ ... فَقُم نَجلُ بنتَ الـدن حمـراء كـالورسِ
معتقــةٌ فــي دَنهــا قيــصريةٌ ... تَوارثَها قَـس مـن الـرومِ عـن قَـس

فالمعاني والألفاظ الحضارية بارزة في هذه اللوحة الجميلة، والصور الفنية فيها تكتـسي ثوبا صنعته أكفّ الحضارة، وجملته أناملها. فهو يدعو خليله في هذا اليوم إلـى احتـساء الخمـر المعتّقة، التي تجاب معها اللهو، ويتحقق بها الأُنس.

وإذا مدح العقيلي وهنّأ بالنيروز، فقد كان يعبر عن سعادته بهذا العيد بطلبه إلى الممـدوح أن ينعم فيه بشرب الخمر على ضفاف النيل، في مجلس تحفه مظاهر حـضارية عـدة حيـث المـاء والخضرة، يقول[١]:

أَنْعِــم بنَيــروزك يــا مــن إذا ... عــاشَ فأيــامي نــواريز
واشــرب علــى النيــل بقــاقُزةٍ[٢] ... مــع مــن تواتيــهِ القــواقيز
فَحــسن شــاذورانهِ[٣] أنّــه ... لــه مِــن المــوجِ أفــاريز

فالنيروز عيد السعادة، فيه تتزين الطبيعة أيما زينة، ويعم المرح واللهو، وقد أحسن الأرجاني وصفه إذ قال[٤]:

وأقبــلَ النيــروز مثــلَ الــوالي ... فــارتَجع الفَــضلَ مــن الليــالي
وبــشر النــاقص بالكمــال ... فعــادتِ الــدنيا إلــى اعتــدال
والــدين والــشمس لِــسعدٍ مؤْتَنِــفْ ... كُــلٌ بــهِ ا ُ انتهــى إلــى شَــرفْ
فأصــبح العــدلُ مقيمــا واعتكَــفْ ... وودع الجــور نميمــا وانــصرفْ
بالــشّرفين استَــسعد الشمــسان ... شــمس الــضحى وغُــرةُ الــسلطان
فــي أسـعدِ الأيــامِ والأزمــان ... مبــشرا بــالأمن والأمــان
فاعتــدلَ الأنــام والأيــام ... وأمِــن المــسيم والمــسام
مــذْ طَلعــا ونظــر الأنــام ... لــم يبــقَ لا ظُلْــم ولا ظــلام
نــورزيــسعدٍ دائمــا ومهــرج ... وابــقَ لنـا فـي ظِـل عـيشٍ سجـسج
مقومــا بــالرأي كُــل أعــوج ... وفاتحــا بالجــد كــل مــرتَج

فهو يوم كثير الفضل، تكتمل فيه السعادة، ويعم العدل، وينصرف الظلـم، وينتـشر الأمـن والأمان، ويحلو العيش.

وإن كان الأرجاني ذكر في أبياته عيدي النيروز والمهرجان، فقد ذكر أبو حنيفة محمـد بـن

---

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص١٨١.
(2) القاقزة أو القاقوزة: مشربة أو قدح أو الصغير من القوارير. لسان العرب، مادة (قز).
(3) الشاذوران: ستر عظيم يسدل على سرادق السلاطين والوزراء وعلى الشرفة من القصر والدار. لسان العرب، مادة (شذر).
(4) ديوان الأرجاني، ج٣، ص ١٥٨٤ – ١٥٨٥.

محمد الراميني الإسترابادي في سياق مدحية أعياد المسلمين والفرس قائلاً[١]:

يـــا خيـــر مـــن ولـــي مـــستَوزرا ملكـــه أشـــرفُ مـــن تَوجـــا
فلْـــيحظَ وليـــسعد بأيامِـــه عيـــد أو نَـــورز أو مهرجـــا

وقد يشترك عيدا الأضحى والمهرجان في التهنئة، ومن ذلك قول صردر يمدح عميد الدولة ابن جهير، ويهنّئه بهذين العيدين[٢]:

قَـــر عينـــا بِمهرجـــانٍ وعيـــدٍ أَتْحفـــا بالحبيـــبِ نفـــس المحِـــب
فَتَلَـــق الـــسرور مِـــن كُـــل وادٍ وتَمـــل النعـــيم مِـــن كُـــل شِـــعبِ

وقال أيضا في مدحه، وتهنئته بهذين العيدين[٣]:

ســـقى ا ُ دارك مـــاء النعـــيم وطَرزهـــا برِيـــاضِ البهـــاءِ
ودارتْ عليـــك كـــؤوس الـــسرو ر يغْـــرِفْن مِـــن متْرعـــاتِ مِـــلاءِ
وهنئـــتَ بالعيـــدِ والمِهرجـــان وســـعدهما ســـائقٌ بالهنـــاءِ

فهما عيدان يجتمع فيها السرور، ويكثر النعيم، وتتبدى الحضارة بأجلى صورها.

وفي المهرجان، كما في النيروز، تستبشر الأرض خيرا؛ إذ يرحل الخريف وتـستعد الربـى لاستقبال مطر السماء؛ لينتشر الخير الوفير من ثَم في ربوعها، وتكثر مظاهر الحضارة الطبيعية من رياض ونحوها في أرجائها.

فالمهرجان إذن يأتي ومعه السعود، وفي ركبانه يسير اليمن والبهجة، يقول ابن العواذلي[٤]:

تَلَـــق ســـعودا شـــارفتك ومهـــرج وأَيمِـــن بِعيـــدٍ ســـنه الفُـــرس مـــبهج
وفَصلٍ جلا فيهِ الخريـــفُ مـــن الربـــى فـــراديس تجلـــو نـــاظِر المتَفَـــرج

ومما يدلّ على ترف طبقة من مجتمع القرن الخامس الهجري، أن أفراد هذه الطبقة المترفـة يلهون ويتمتعون في يوم المِهرجان بينما لا يحظى أفراد طبقات أخرى فقيرة بمثل ذلك، يقول أبو سعيد الحسين بن أحمد الطبسي[٥]:

بـــالأمسِ مهـــرج نـــاس ولـــم يمهـــرج أُنـــاس
وكـــان حظـــي منـــه خُمـــولُ ذِكْـــرٍ ويـــاس
وقـــد نُـــسيتُ فمـــالي قِـــرى ولا إينـــاس
دعـــاهم إيـــسار وردنـــي إفـــلاس

فيذكر حاله يوم عيد المهرجان، وقد احتفل الآخرون في هذا العيد ففرحوا ولبـسوا وزينـوا

(1) دمية القصر، ج٢، ص٤٧-٤٨.
(2) ديوان صردر، ص٩٨.
(3) المصدر نفسه، ص١٢٢.
(4) دمية القصر، ج١، ص١٦٧.
(5) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٠٤.

حواليهم، بينما هو يائس منسي، وما ذاك إلا لأنّه فقير وهم ذوو مال.

وبذا، وصف الشعراء ليالي عيدي النيروز والمهرجان الاحتفالية وصفًا كشف عن ترف حضارة عصرهم المادية، تلك الحضارة التي اعتنى أصحابها بالمظاهر الاجتماعية الراقية من تهانٍ وتهادٍ واحتفال وتمتّع بمباهج الحياة، نمت جميعها عن ذوق مجتمعي عام رفيع، رسخت معتقداته الفكرية في التكوين الثقافي والحضاري لمجتمع القرن الخامس الهجري.

ب- الاحتفال بالمناسبات

حرص مجتمع القرن الخامس الهجري على الاحتفاء بمناسبات أخرى غير الأعياد، برز فيها أثر التطبع الحضاري، وكشفت عن الذوق الرفيع الذي اكتسبه أُناس ذلك العصر؛ حيث قدموا إلى بعضهم التهاني، وتبادلوا الهدايا، ومن تلك المناسبات الزواج، يقول ظافر الحداد مادحا الوزير الأفضل شاهنشاه، ومهنّئًا إياه بعرس ولده[١]:

فالخَلْقُ في عرسٍ يدوم سروره أبدا كأن الليلَ فيهِ نَهار
لم تَنْفَرد مِصر بهِ عن غيرها سِيان مِصر فيهِ والأمصار
كاد المقَطم أن يميد مسرةً لو لم يصبه مِن لَدنْك وقار

وفيها تبدو مظاهر الاحتفال الكبيرة؛ إذ أُضيئت المصابيح فبدا الليل نهارا، وعم السرور والفرح الأرجاء. وهذه كلها مظاهر حضارية خبرها مجتمع القرن الخامس الهجري.

ولظافر مقطوعة أخرى يهنّئ فيها الوزير الأفضل بالمناسبة نفسها؛ إذ يقول[٢]:

أيام ملْكِك أعياد وأعراس فيها المسراتُ أنواع وأجناس
لِ همتُك العلياء كم جمعتْ من خَلَقٍ عاشَ منها الفضلُ والباس
وعرس الفَخْر في العرسِ الذي عظُمتْ أوصافُه وجرتْ لي فيهِ أفْراس

فهو عرس حوى مظاهر احتفالية عظيمة، حتى إن وصفها لا يتأتّى لأحد.

وحينما عاد معز الدولة أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس، من الثغر، واحتفل بليلة عرس ولده هنّأه ابن أبي حصينة قائلاً[٣]:

حتى إذا نزلَ الرصافةَ شُيدتْ فيها قِباب حولَه وخِيام
ودنا من البيتِ الكريمِ وحولَه عرك لِفُرسان الوغى وزحام

---

[١] ديوان ظافر الحداد، ص١٥٢.
[٢] المصدر نفسه، ، ص١٧٠-١٧١.
[٣] ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص١٩٤.

والنـور قـد حسر الظـلام كأنّمـا عـدِم الظـلام فمـا يحـس ظـلام

فما إن وصل معز الدولة إلى الرصافة حتى بنيت فيها القباب والخيام، فدنا من بيتـه وحولـه جند كثيرون عادوا معه من الثغر، ورغم أن الظلام كان دامسا فقد حسرته أضواء القناديل والـشموع، التي كانت مظهرا من مظاهر الاحتفال بالزواج.

كما تبادل العباسيون التهنئة بمولود، وكانت هذه البشرى دلالـة واضـحة علـى المـشاركة الاجتماعية كمظهر حضاري دالّ على روح المحبة والتواصل في المجتمع، فضلاً عما كان يحـيط بمثل هذه المناسبة من مظاهر احتفالية، . يقول أبو المظفر الأبيوردي، مادحا المستظهر با أمير المؤمنين، ومهنّئًا إياه بمولود جاءه [(١)]:

أهـلاً بِمنْتَجِـبٍ سـرتْ بمولِـدِهِ مِـن هاشـمٍ خُلَفـاءُ ا والرسـلُ
أَغَـرُ مـستَظْهِري يستَـضاءُ بِـهِ تَـبلج الـسعد عنـه وهـو مقْتَبـلُ
تَثْنِـي الخِلافَـةُ عِطْفَيهـا بِـهِ جـذَلاً لا زالَ يـستَن فـي أَعطافِهـا الجـذَلُ
والخَيلُ تَمـرح مِـن عجـبٍ بِفارِسِـها والبيض تَبـسِم فِـي الأغمـادِ والأسـلُ

فهو يهنّئه بمولد كثير الخير، كريم الأصل، طيب الفرع، سيشار إليه بالأصابع، وسيكون لـه شأن عظيم، ذلك المولود الذي ما إن أتى حتى عمت الأفراح، وكان للاحتفال بمقدمـه مظـاهر حضارية عدة.

واستكمالاً لتهنئة العباسيين بعضهم بعضا بمناسبتي الزواج والميلاد، وتواصلاً مع المناسـبات ذوات العلاقة بهاتين المناسبتين، فإنهم يهنّئون بعضهم بمناسبة أخرى ذات صلة هي الطهور، ومن ذلك قول ابن الخياط يمدح القاضي فخر الملك أبا علي عمار بن محمد بن عمار، ويهنّئه بطهور ولده[(٢)]:

ألا هكـذا تَـستَهل البـدور محـل علِـي ووجـه منيـر
وجـد سـعيد ومجـد مـشِيد وعِـز جديـد وعـيشٌ نَـضير
ويـوم يـصِح الرجـاء العليـلُ بـهِ ويطـولُ الثنـاء القَـصير
دعـا شَـرفَ الدولـةِ المجـد فيـهِ فَلبـاه مِنْبـره والـسرير

فهذا اليوم يوم مشهود، يتيه فيه الملك، ويحلو العيش.

وقد كان يرافق مناسبة الطهور في ذلك العصر فرح وسرور وبهجة وتمتع، ويظهر ذلك فـي قول ابن الخياط في القصيدة نفسها[(٣)]:

---

(1) ديوان الأبيوردي، ج١، ص ٢٩١ – ٢٩٢. وانظر للاستزادة: ديوان ابن الخياط، ص ٣٠٣، ٣١٠، وديـوان ظافر الحداد، ص ٣٠٨ – ٣٠٩.

(2) ديوان ابن الخياط، ص٧٧.

(3) ديوان ابن الخياط، ص٧٨.

صباح صبيح بأمثالِه ... تَقَرُّ العيون وتشفى الصدور
شَربنا بهِ العِز صِرفًا فمالَ ... بنا طَربا وانتَشَتْنَا الخُمور
وما لذةُ السكْرِ إلا بحيثُ ... تُغَنّى المنى ويدور السرور

ولابن الخياط مقطوعة أخرى يهنّئ فيها الشريف أنس الدولة أبا جعفر عبد الله بن الحسن بن المحسن الجعفري بطهور ولده، يقول[1]:

فاسعد ودام لك الهناء بماجِدٍ ... طالتْ بهِ الآمالُ وهي قِصار
لم تلحظِ الأبصار يوم طَهورِهِ ... إلاّ كؤوسا للسرور تُدار

فهو يهنّئه بطهور ولده، الذي لم ترَ العيون في يوم طهوره إلا فرحا وسرورا، حتى إن مكارمه طالت الناس جميعا.

ولعيد الميلاد حظ من التهنئة في القرن الخامس الهجري، وشاهد ذلك أبيات للعقيلي يهنّئ فيها بهذه المناسبة السعيدة؛ إذ يقول[2]:

أيا ذا الحزمِ والعزمِ المكين ... وذا التدبير والرأي الرصين
تَهن بهذِهِ الأيامِ وانْعم ... قَرير العين مُنْقَطِع القَرين
وخُذْ فِي الشربِ بين عقيقٍ وردٍ ... ودر ندى وفضةِ ياسمين
وحاْي يضحك الترصيع منه ... إذا لَبِستْه أجياد الغُصون
وعِشْ أمثالَ عِيدِك ألفَ عيدٍ ... فَمِثْلُك لا يرى في ألفِ حين

ولما كان العقيلي شاعرا أحب الطبيعة، وحرص على تزيين شعره بها، فقد قرن وصفه لها بالتهنئة، وبذا تجتمع مظاهر الجمال والسحر والروعة بمظاهر الفرح والبهجة، يرافق ذلك كله احتساء الخمر، في مجالس تحفه الورود من كلّ جانب، فتكتمل حلقة المتعة، ويتحقق ما يسعى إليه من لهو وأنس وفرتها له حضارة عصره.

وقد يكون للاحتفال بمناسبة ما مظاهر حضارية أخرى غير التي مضت، ومن ذلك أنه لما تقلّد أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن علي بن إسحق الوزارة، وفتك الأتراك ببعض أعدائه، أنفذ إليه الأبيوردي قصيدة هنّأه فيها، وذكر الخمر والغناء محتفلاً، يقول[3]:

ولما أتاني أنّه قمع العِدا ... هتفْتُ بآمالٍ روازح[٤] لُغبِ[٥]
وقُلْتُ لِصحبي بادِروا الصبح نَبتكِر ... على بابلي[1] فِي الزجاجةِ أصهبِ

---

(1) المصدر نفسه، ص٢٢-٢٣.
(2) ديوان العقيلي، ج٢، ص٢٨٠-٢٨١.
(3) ديوان الأبيوردي، ج١، ص٥٣٢-٥٣٣.
(4) روازح: أي كان من الصعب أن تتحقق. لسان العرب، مادة (رزح).
(5) لُغّب: كثيرة. لسان العرب، مادة (لغب).

له مشْرقٌ في أوجهِ الشربِ بعدما تُصوب ما بين اللها نَحو مغْربِ
كأن الحباب المستَطير إذا طفا لآلئُ إلاّ أنها لم تُثَقَّبِ
وهِن أريحِياتي،[2] ولا راح نَشْوةٌ متى تَدر الكأس الرويةُ[3] أطْربِ
فَظَلْنا بِيومٍ قَصر اللهو طُولَه نَشاوى، ولم نَحفِلْ عِتاب المؤنِّبِ

إذ طلب إلى صحبه أن يبادروا إلى شرب خمر بابلية؛ احتفاء بالقضاء على أعداء الممدوح، تلك الخمر التي يشرق وجه شاربها محمرا كالشمس، حتى إن حبابها إذا طفا على وجهها لآلئُ غير مثقوبة، وهي خمر معتّقة لها نشوة إذا دارت في الكأس الممتلئة روت شاربها وأطربته. ولما كانت المناسبة سعيدة فإن الاحتفال بها يقتضي أن يرافق نشوة مجلس الخمر طرب، وهذا يتطلب قيانًا حِسانًا تضرب بأطراف أصابعها المخضبة المزاهر، فتبثّ في الحضور سرورا، وتدخل إلى قلوبهم المنتشية الحبور.

وتبدو روح التآخي والمحبة والتواصل واضحة في مجتمع القرن الخامس الهجري من خلال تهنئة بعضهم بالشفاء، وهي مناسبة سعيدة أشبه ما تكون بالعيد؛ إذ يعم الفرح، وتنتشر السعادة، يرافق ذلك كلّه مظاهر حضارية يعبر أفراد المجتمع بوساطتها عن ذوقهم الرفيع آنذاك، كما يعبرون من خلالها عن رقيهم الاجتماعي وفكرهم الثقافي تعبيرا يسمون به ويتمازون عمن سواهم. ومما قيل في مثل هذه المناسبة، أبيات لابن الخياط يمدح فيها شرف الدولة ابن فخر الملك أبا علي عمار بن محمد بن عمار، ويهنّئه بالبرء من مرضه[4]:

لنا كُل يومٍ هناء جديد وعيد محاسِنُه لا تَبيد
وعيشٌ يرف عليهِ النعيم وجد تَظاهَر فيهِ السعود
ودار يخَيم فيها السماح وباب تلاقى عليهِ الوفود
بِبرئِك يا شَرفَ الدولةِ استفاد سعادتَه المستَفيد

ومن ذلك أيضا، أبيات لابن أبي حصينة يهنّئ فيها معز الدولة أبا علوان ثمال بن صالح بن مرداس ببرء ولده شهاب الدين صالح من علّة نالته، يقول[5]:

نُهنيهِ لما بدا صالِح وذاك الهناء لِكُل الأمم
فَيا عجبا كيفَ يخْشَى السقام عليك وأنْتَ شِفاء السقَم
وقد كان قَطب وجه الزمان فَلَما بدا صالِح قَابتَسم

(1) بابل: اسم موضع في العراق ينُسب إليه السحر والخمر. انظر: معجم البلدان ٣٥٦/١.
(2) الأريحِي: الذي يرتاح عند الكرم والنّدى. لسان العرب، مادة (ريح).
(3) الروية: من الري، الممتلئة. لسان العرب، مادة (روي).
(4) ديوان ابن الخياط، ص٨٠.
(5) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص٦٤.

ومن المناسبات التي قدم الناس فيها التهاني إلى بعضهم، العودة من الديار المقدسة بعد أداء فريضة الحج، وقد كان العباسيون آنذاك يزينون البيت ومداخله احتفاء بقدوم صاحبه من الحج، وقد تمتد الزينة ومظاهر الفرح إلى أكثر من ذلك حسب مكانة الحاج، ولعلّ ذلك شبيه بما نصنعه في أيامنا هذه من حيث الزينة وما يتبعها من تقديم الهدايا وشرب ماء زمزم وأكل التمر والحلوى وغير ذلك، يقول الأبيوردي[1]:

هنيئاً، والسعود لها دواعٍ قدوم تستطيلُ به التهاني
لأروع حج بيت الله يطوي إليه نياط أغبر[2] صحصحان[3]

وقد احتفل أبناء القرن الخامس الهجري بمناسبات أخرى غير التي سبق ذكرها، فهنّأوا بعضهم بمناسبات من مثل: أول السنة، والفضل والملك، وتأسيس مدرسة[4].

ومما يلحظ في هذه المناسبات كلها، أن الشعراء أظهروا فيها صورا مشرقة من حضارتهم، تجلّت فيها معاني التآخي والتكاتف والترابط والمحبة والتسامح، فضلاً عن تجلّي المظاهر المادية وما يتصل بها من ترف عرفته بعض طبقات مجتمع القرن الخامس الهجري.

ج- تبادل الهدايا (التهادي)

أشاع الإسلام روح التواصل بين أفراد مجتمعه، وسعى إلى تعميق الروابط وتوطيد أواصر المحبة والتعاطف بينهم بأساليب مختلفة، كانت الهدية إحداها. ولأهمية التهادي؛ فقد حثّ عليه نبينا محمد، صلّى الله عليه وسلم، فقال: "لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت"[5].

وتكشف عادة التهادي، التي انتشرت في القرن الخامس الهجري عن مظهر آخر من مظاهر الرقي الحضاري الاجتماعي؛ إذ تبادل الناس- حينذاك- الهدايا في ما بينهم في مناسبات عدة لا تقتصر على الأعياد؛ فأهدوا إلى بعضهم بعضا ما غلا ثمنه أو قلّ.

وللهدية مكانة تعبيرية رمزية، وأثر إيجابي في نفس المهدى إليه، ومما يؤكّد ذلك وصف

---

[1] ديوان الأبيوردي، ج١، ص٤٤٢.
[2] أغبر: أثار الغبار، كناية عن السرقة. لسان العرب، مادة (غبر).
[3] صحصحان: قوي، لا عيب فيه. لسان العرب، مادة (صحصح).
[4] انظر شواهد ذلك في: ديوان ظافر الحداد، ص ٢٨٠، وديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص ٢٠١، ودمية القصر، ج٢، ص ٢٧٦.
[5] البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، (ت٢٥٦هـ)، مختصر صحيح البخاري، (مختصِر: محمد ناصر الدين الألباني)، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩م. ص٣٦٤.

ظافر الحداد ما لهدايا ممدوحه الأفضل أبي علي بن الأفضل شاهنشاه من أثر ومنزلة، فيقول[١]:

هـــداياه أهـــدتْ لأرواحِنـــا بإحـــسانهِ أنْعمـــا بعـــد بوســـا
فأحيـــا نُفوســـا، وأذهـــب بوســـا وأخلـــى حبوســـا، وأجلـــى مكوســـا

أما ابن أبي حصينة، فيهنّئ الأمير معز الدولة أبا علوان ثمال بن صالح بن مرداس بتـشريف وصله من الحضرة الفاطمية، قائلاً[٢]:

يـا سـاكِن القَـصر المجـدِدِ لِلعلـى يهنيـك إنعـام الإمـامِ مجـددا
قُـب مـن الخَيـل العِتـاقِ ضـوامِر قِيـدتْ محملـةً إليـك العـسجدا
أوهـى مناكِبهـا الحلِـي كأنمـا يمـشي الجـواد بمـا عليـهِ مقيـدا

فهي هدية مما غلا ثمنه، تحملها خيل عتاق ضوامر، وفيها دلالة واضحة على ما للذي أهدى وللذي أهدي إليه من مكانة.

وإن كان الناس يتهادون في ما بينهم في المناسبات وغيرها مما غلا ثمنه أو قلّ، فإن الأمـر وصل ببعضهم إلى أن يهدي الشعر بما يحمله من معانٍ وأحاسيس صادقةٍ، فها هو الأبيوردي يتغنّـى بالعرب الذين يهدون شعرهم كما يهدي العجم نفائسهم من المال، فيقول [٣]:

وقد تَطَلبتُ مـا أُهـدِي فمـا اقْتَـصرتْ علـى الـذي بلَغَتْـه الطَاقـةُ الهمـم
وإن فـي كِلمـات العـربِ شـاردةً أداء مـا شَـرطَتْه قَبلنـا العجـم
فأرع سمعك شِـعرا كـاد مِـن طَـربٍ إلـى معاليـك قبـلَ الـنظْمِ ينْـتَظِم
إن الهـدايا، وخَيـر القَـول أَصـدقُه تَفْنـى، ويبقـى، وتَبقَـى هـذِهِ الكَلِـم

فالهدايا تفنى مهما غلا ثمنها، أما الكلِم الطيب والمديح الصادق فيبقى حتى إن غيب الموتُ صاحبه.

ونجد في شعر القرن الخامس الهجري، ذكر أصناف كثيرة من الهدايا تتفاوت في قيمتها، فهذا ابن الخياط كتب إلى بعض أصدقائه يستهديه مسكًا، موضحا له أنه أهداه ذِكرا جميلاً في شعره، هـو نعم البديل عن هديته، يقول الشاعر[٤]:

أبـا المجـدِ كـم لـك مِـن طالـبٍ يـرى بـك أَوْفـضلَ مطْلُوبِـهِ
سـألتُك مِـسكًا ووجـدي بِـهِ كوجـدِ المحِـب بِمحبوبِـهِ
ولـو قـد ذكرتُـك فـي محفِـلٍ غَنِيـتُ بـذكرك عـن طِيبِـهِ
وذكـري لِمِثْلِـك نِعـم البـديلُ إذا ضـن غَيـرك عنـي بِـهِ

وتهادى الناس بالورد؛ لما يحمله من معاني المحبة والنبل والإخلاص، ومن هذا وصف ابـن

---

(1) ديوان ظافر الحداد، ص٣٤١.
(2) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص٦٨.
(3) ديوان الأبيوردي، ج١، ص٦٣٨. وانظر للاستزادة: ديوان الأرجاني، ج١، ص ٢٩٧، والمـصدر نفـسه، ج٣، ص ١٥٨٢ – ١٥٨٣.
(4) ديوان ابن الخياط، ص١٢٩.

الخياط طاقتين من نرجس وبنفسج، وتفاحةً حمراء، وهو في ذاك يمزج وصفه بمـديح أميـره، كمـا يمزجه بالغزل، فيقول[1]:

أهــدى الأميــر إليــك خَيــر تحيــةٍ ... هِــن خَيــر بــسامٍ أغَــر بــشُوشِ
عــضب لأكــرمِ دولــةٍ وبهــاء أشْــ ... ــرفِ ملــةٍ وزعــيم أي جيــوشِ
مــن نَــرجسٍ وبنَفْــسجٍ غَــض وتُفْــ ... ــفَاحٍ كوشــي الحلــةِ المرشــوشِ
جمــلٌ كمــا قُــضِيتْ مواعــد عاشــقٍ ... من ناصحٍ فــي الحــب غيــر غَــشوشِ
فكأنمــا وجــه الحبيــبِ إذا رنــا ... وبخَــدِهِ أثــر مــن التجمــيشِ[2]

ولم يجد الناس حرجا من التهادي بأطعمة ومأكولات؛ فهي هدية من محب، لذلك تقبلوها بكل سرور ورضا، فهذا عبد المحسن الصوري يصف عنباً أُهدي إليه مغطّى بورقهِ؛ فأعجـب بـه أشـد الإعجاب، فقال مستخدما صورا وتشبيهات مستمدة من حضارة عصره[3]:

جاءنــا منــك تحفــةٌ نحــن منهــا ... أبــدا فــي تــضاعفِ الــسراءِ
عنــب أســود كــأن عليــهِ ... حلــلاً مــن حنــادسِ الظلمــاءِ
خِلتُــه فــي خــلال أوراقــهِ الخُــضـ ... ــر ولــون اســودادِهِ والــصفاءِ
كتُمــوعٍ علــى أنامِــل خَــودٍ ... لُحــن مــن كُــم لاذةٍ خــضراءِ

ولما كانت الأقلام والمداد والقراطيس من أدوات الحضارة، يحتاج إليها الكتّـاب والـشعراء وغيرهم، فقد واكب شعر القرن الخامس وصفها، ولم يجدِ الشعراء حرجا من أن يستهدوها. ومن ذلك قول الطغرائي يستهدي مدادا[4]:

يا مــن إذا اجتمــع الكُتّــاب كــان لــه ... فــضلُ الإمــارةِ مقتــادا كتيبتهــا
شــكتْ إليــك دواتــي شــيب لِمتِهــا ... وأنــتَ أخلاــقُ مــن طَــرى شــبيبتَها

وفي قول صردر يستهدي بعض أصدقائه مدادا، بأسلوب شعري دقيق، ما يدلّ على ما نالتـه أدوات الكتابة من عناية الشعراء واهتمامهم، يقول[5]:

أيــا ابــن ودي انتــسابا مــا لَــه رحِــم ... إلاّ الذي فيك مــن فَــضلٍ ومــن خِيــرِ
إليــك أشــكو مــشيبا[6] لاح بارقُــه ... في فَــرعِ دهمــاء تجــري بالأســاطيرِ

---

[1] ديوان ابن الخياط، ص١٩٤.
[2] التجميش، والجمش: المغازلة، ضرب بقرصٍ ولعب. لسان العرب، مادة (جمش).
[3] ديوان الصوري، ج٢، ص١٢٢. وقد وردت هذه الأبيات أيضا في: نهاية الأرب، ج١١، ص١٥١. وانظـر للاستزادة: دمية القصر، ج١، ص ٣٢٥، وديوان العقيلي، ج١، ص ١٧١ – ١٧٢.
[4] ديوان الطغرائي، ص١٠٥.
[5] ديوان صردر، ص١٩٩-٢٠٠.
[6] مشيبا: يريد أن الحبر ابيض من كثرة خلطه بالماء، فكنّى عنه بالمشيب. لسان العرب، مادة (مشب).

كانَـتْ[1] مفارِقُهـا هِـسكًا مـضمخَةً | فمـا لهـا بـدلَتْ منـه بكـافور
ومقْلَـةً عهـدتْ كحـلاء مرههـا[2] | طُولُ البكاءِ علـى بِـيضِ الطـوامِير[3]
كانَـتْ تجـى حـسد الإصـباح لِمتَـه | فَجزهـا بحـسامٍ منـه مـشْهور
فكيـفَ لـي بِخِـضابٍ تَـستَرد بــهِ | مِـن الـشبيبةِ لَونًـا غيـر مهجـور

ولما ظلت أقلامه ترسل المطر دفعة تلو أخرى على الصحف، حتى تكسرت أطرافها وسقطت أسنانها، فقد فعلت بها المبراة كذلك فعلها من نحت وفلق إلى أن قصرتها، فلم يعد يملك تلك الأقلام التي تكشف عنه طوارق الأيام؛ لذا يستهديها، قائلاً[٤]:

قُـد إلـي جِيـادا مـن ضـوامِرِها | صـم الـسنابِكِ سـبطاتِ الظنابيـبِ

فكنّى عنها بالجياد صِلابِ أطراف الحوافر، لينات حروف السيقان.

وقال يمدح صديقًا له، ويذكر براعته في الكتابة والحساب، كما يشيد بفضائله التي أخصها مـا عنده من مداد أسود مثل لون الليل، ثم يستهديه أقلاما ومدادا[5]:

فزودنـي مـن الأنقـاسِ[٦] قـدرا | يقَـوتُني إلـى حـين المـآبِ
فـإن أسـعفتَ بـالأقلامِ منـا | فمـا يغنـي الطعـام عـن الـشرابِ

وقد يستهدي الآخر بأسلوب حضاري مرموق يكشف عن إجادة الوصف ورقته وحلاوته، مما يعكس ما وصلت إليه حضارتهم من إشراق، ومن هذا الشعر ما قاله العقيلي يستهدي قرطاسا وقد جنح إلى الفكاهة الضاحكة، يقول[٧]:

كما طالَ لَيلُ الحِبـرِ عنـدي ومـا لَـه | إلى الضوءِ مِن صـبحِ البيـاضِ سـبيلُ
وظلَّـتْ أنابيـب اليـراعِ طريحـةً | كمـا يتلـوى فـي الفِـراشِ عليـلُ
تشهى على كفّـي ولـو سـلْخَ أَرقَـمٍ[٨] | تَبخْتَـر فـي أعطافِـهِ وتجـولُ
وما أنـا بـاغٍ غيـر تـسعين ريطـةً[٩] | تكافـأَ عـرض عِنْـدهن وطُـولُ
نَواعم قـد أُفْـرغْن فـي قالَـبِ المنـى | فكُـلٌ لِكُـل فـي القَـوامِ عـديلُ

---

(1) كانت: أي الداوةُ.
(2) مرها: أخلاها من الكحل. لسان العرب، مادة (مره).
(3) الطوامير: جمع طامور، وهو الصحيفة. لسان العرب، مادة (طمر).
(4) ديوان صردر، ص٢٠١.
(5) المصدر نفسه، ص٢١٧.
(6) الأنقاس: جمع نِقس بكسر النون، وهو الحبر. لسان العرب، مادة (نقس).
(7) ديوان صردر، ص٢٠٣.
(8) أرقم: تشتهي الأقلام ولو سلخ ثعبان. لسان العرب، مادة (رقم).
(9) الريطة: الملاءة، والمراد بها الورق. لسان العرب، مادة (ريط).

صحائفُ لو شئنا لقلنا: صفائح ... فما منهما إلاّ أغرُّ صقيلُ
إذا صافحتْهن النواظِر عاقها ... شُعاع يرد الطرفَ وهو كليلُ
وإن زغْزغتْهن[1] البنان تضاحكتْ ... قهاقِهُ في ترجيعِهن صليلُ

أما ابن الخياط، فيستهدي مقلمة وأقلاما من الفقيه أبي الحسن علي بن أحمد بن منصور المالكي الغساني، وفي ذلك يقول[2]:

أبا حسنٍ أنتَ أهلُ الجميل ... فهلْ لك في مكْرمه
يفيد بها الحمد من نَفْسه ... متيمةٌ بالعلى مغْرمه
وما زلْتَ تَرفُلُ في بردِهِ ... وتَلْبس أثوابه المعلَمه
ثناءٌ يعز الورى جده ... كما عزك المِسك أن تَكْتُمه
ومن كان يبغي لديك النوالَ ... فلستُ بباغٍ سوى مقْلمه
تُرى وهي مسمنَةٌ ظاهرا ... ولكنها باطِنًا مسقَمه
كأن حشاها فُؤاد الخَلِيـ ... ـي لم يصلَ نار الهوى المضرمه
إذا أُهدِيتْ وهي صِفْر رأيـ ... ـتَ صورةَ متأفّةٍ مفْعمه
وإن جدتَ فيها بأقْلامِها ... جمعتَ الذوابِلَ في ملْحمه
فكم ثَم مِن زاعِبي تخالُ ... مكان المِدادِ بهِ لهذَمه
إذا ما طَعنْتَ بهِ مطْلبا ... سفَكْتَ بغير جناحٍ دمه
كمِثْل الكِنانَةِ يوم النضا ... ل أودعها نابلٌ أسهمه

فهو يستهديه مقلمة يرغب في أن تكون ممتلئة بالأقلام، تشبه كنانة أودع فيها النابل يوم القتال أسهمه، وهي أيضا إذا فُتحت وظهرت أقلامها تشبه الليث إذا فغر فاه. وبذا، يظهر أثر الحضارة واضحا في استهداء الشعراء أدوات الكتابة، التي هي في الوقت نفسه أدوات للحضارة، تسهم في نموها وتطورها.

وكان للخمر بروز في عادات التهادي عند شعراء القرن الخامس الهجري، وهذا ما كشفت عنه قصائدهم، ما يدلّ على أن استهواء الشعراء للخمر أصبح صورة حضارية من واقع المجتمع في ذلك القرن. ولما كان معلوما أن من استهوى شيئًا طلبه أو جلبه، فإن العقيلي يقول[3]:

---

(1) الزغزغة: تجميش في المغابن كالإبط وأخمص القدم، يحدث عنه انفعال يضطر إلى الضحك. لسان العرب، مادة (زغزغ).

(2) ديوان ابن الخياط، ص٢٩٦.

(3) ديوان العقيلي، ج١، ص٤٠.

يـا أخـا لا يمـر حلـو الإخـاء ... بهجـاء منـه ولا إقـصاء
بـي فقـر إلـى المـدام وإن لـم ... أك ممـن يعـد مـن الفقـراء
فتفـضل بمـا تيـسر منهـا ... فـهو نعمـاك مـا عـداك رجـائي

فهو يستهدي من أخ له خمرا في وقت تجلو فيه السماء نفسها في غلالة دكناء، وتبدو الربى طيبة الريح مكسوة بالنبات.

وفي قصيدة أخرى يستهدي راحا، فيقول[1]:

يـا مـن لـه المـنن النواضـر ... والأنعـم الغـر الزواهـر
أنعـم بـراح ريحهـا ... نـد وأكؤسـها مجـامر
بـين البـساتين التـي ... ثمراتهـا مثـل الجـواهر

ولابن الخياط قصيدة يستهدي فيها أحدهم خمرا، يقول[2]:

أبلـغ أبـا الفـضل الـذي شـهدت ... بالفـضل منـه البـدو والحـضر
أيجـوز فـي حكـم المـروءة أن ... أظمـا ودون سـماحك البحـر؟
فابعـث لنـا خمـرا يـراض بهـا ... فعـسى يـذلل صـعبه الخمـر
والـسكر قـد ضـمن الوصـال لنـا ... ولكـم وفـى بـضمانه الـسكر
سـارع إلـى كـرم يحـاز بـه الـشـ ... ـشكر الجميـل ويعـدم الأجـر

ففي الوقت الذي يشهد الشاعر لأبي الفضل بالفضل المعروف بين الناس، يستهجن عليه أن يظمأ الخمر؛ فيستهديه ما ينال به شكرا يضمن الوصال بينهما.

ومجمل القول إن ظاهرة التهادي الذي انتشرت بين الناس في القرن الخامس الهجري، كانت على جانب كبير من الرقي الحضاري الذي خلّفته الحضارة الإسلامية في ذلك القرن. وهي مع كونها ظاهرة حضارية، فقد كانت أيضا ظاهرة تمثلت فيها مقدرة شعراء القرن الخامس الهجري على نظم الشعر، الذي تمشّى مع كُنه حضارة عصرهم وجلالها وإشراقها.

د- الأطعمة، والأشربة

لكلّ قوم من الأقوام مآكل ومشارب تصنعها عاداتهم وتقاليدهم، وتكشف عن مستوى الوضع المادي والاجتماعي لطبقات المجتمع وفئاته. ولما كان العباسيون قد اختلطوا بالأمم الأخرى، وامتزجوا بحضارتها؛ فقد تأثروا بعادات تلك الأمم وتقاليدها، وانعكس هذا التأثر على

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص١٤٤.
(2) ديوان ابن الخياط، ص١٤١-١٤٢.

مناحي الحياة جميعها، ومنها الطعام الذي تفنّنوا في طهيه وتصنيفه وترتيب تقديمه على موائدهم، وكذا الشراب الذي أجادوا في صنعه.

وقد أولع الخلفاء والأمراء والقادة والميسورون في القرن الخامس الهجري بتنوع الطعام والإسراف في إعداده، وغصت موائدهم، التي اتّبعوا فيها رسوما خاصة، بأشهى ألوانه، وساعد على ذلك ما كان شائعا – آنذاك – من نشاط زراعي ورخاء اقتصادي؛ إذ كانت الأسواق تزخر بالأطعمة والفواكه، وكانت الاحتفالات الرسمية والمناسبات العامة والخاصة تقترن بالمآدب. فضلاً عما كان لظاهرة الجود والكرم من أثر في انتشار تلك الموائد، ومما قيل في ذلك " إن السلطان ألب أرسلان السلجوقي كان بارا بالناس، يطبخ في مطبخه كلّ يوم خمسون رأسا من الغنم، ما عدا المال الذي خُصص لسماط الخاصة والعامة والعسكر والأمراء وغيرهم " [١].

ولما كان الشعر مرآة تصف الواقع، وتعكس ما يحويه من أحداث ومواقف، فقد واكب شعر القرن الخامس الهجري هذا المظهر الحضاري؛ فنظم الشعراء أبناء بيئاتهم فيه أشعارا تصور الموائد، وتصف – في جانب منها – البذخ الذي رافق بعضها. ومن ذلك أن معز الدولة أبا علوان ثمال بن صالح بن مرداس، أولم في يوم طهور ابن أخيه، فأطعم خمسين ألفًا وسقاهم، حتى إن دماء عقائره، التي سالت على الأرض وتخلّلتها، كادت أن تصبغ لون ماء النبع بالأحمر، كناية عن كثرتها. فضلاً عن أن القدور التي طبخ بها اللحم كانت توقد بالعود الطيب الريح لا الحطب، وبيضت نارها الظلماء حتى إنها توهم الركب أن الشمس لم تغب. يقول ابن أبي حصينة [٢]:

خمسون ألفًا قراهم ثُمّ شرعهم ... معتقَ الراح لم تُقْطَب ولم
سدتْ عقائِره الغيطان أو تَركَتْ ... لون البرى لون ما فِي الحوضِ مِن ذَهبِ
حتى لكاد معِين الماءِ يصبِغُه ... ما شاع فِي الأرضِ منها مِن دمٍ سرِبِ
ظلَتْ وباتَتْ قُدور المجدِ راكِدةً ... تُشَب بالمنْدل الهنْدِي لا
ينتابها الناس أفواجا فَتَقْفَمهم ... طِيبًا وتُشْبِع جوعاهم مِن السغَبِ
قد بيضتْ نارها الظلماء أو تَركَتْ ... لون الدجى لون رأسِ الأشمَطِ الجربِ
تَسري الركاب وضوء النار يوهِمها ... ويوهِم الركْب أن الشمس لم

(1) انظر: حسن، تاريخ الإسلام، ج٤، ص ٦٣٧-٦٣٨.
(2) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص ١٥٦-١٥٧.

ومن أجمل الشعر الذي قيل في وصف الموائد، أبيات يصف الطغرائي فيها دجاجا ناضج الطهي، لذيذ الطعم، جذّاب الشكل، يغري الآكلين، يقول[1]:

وفوقَ المِنَصةِ مجلُوّةً ... علينا عرائس مِن سُكّر
بناتُ المؤذن ذاك الذي ... يؤَذن والصبح لم يسفِر
سبين وعرين من بعدِ ما ... ذُبحن فيا لك من منْكِر
فلما سلبن الثياب ابتُلين ... بسوداء موحِشَةِ المنْظَر
أصابعها الحجن مسنُونَةٌ ... نواشب منهن في المِنْحر
فزارتْ بهن سواء الجحيم ... تَرشح باللهبِ المسعِر
فمصلوبةٌ سمرتْ كفها ... إلى جيدِها وهي لم تَشْعر
ومنقوبةُ البطْن في جوفِها ... كُراتٌ مِن الذهبِ الأحمر
وأُخْرِجن منها إلينا يسقْـ ... ـن سوقَ العصاةِ إلى المحشَر
كأن تماثيلَ كافورِهِ ... تَضمخُ بالمِسكِ والعنْبر
لُجين إذا قَشرتْه الأكُف ... وتبر إذا هي لم تُقْشَر

إنّها أبيات خفيفة الروح، مليئة بالتشبيهات والصور البلاغية، وصف الشاعر فيها الدجاج منذ أن أعمل الطهاة السكين في أعناقها، مرورا بمراحل الطهي والحشو وحسن الإعداد، إلى أن قُدمت إلى الآكلين.

والقصيدة مثل على ترف الشاعر وترف عصره، وأحسب أن قائلها كان على معرفة بالطبخ وفنونه، حاله في ذلك حال كثير من شعراء القرن الخامس ممن وصفوا مآكل الناس ومشاربهم. ولعلّني لا أبالغ إذ أقول إن من يقرأ شعرهم يحسبهم طباخين، بل مهرة الطباخين والطهاة؛ كون شعرهم يدلّ على معرفة بكيفية إعداد الطعام.

ويذكر الطغرائي في قصيدة أخرى ألوانًا من الأطعمة؛ إذ يصف فروجتين ونصف جدي في وليمة دعا إليها أحد أصحابه، فينشئ قائلاً [2]:

يا سيدا أركان عليائِهِ ... في ذروةِ العيوق [3] مبنيه
عندي فَروجان ما منهما ... إلا ابن هندي وهنديه
قد عمِلَ الواحد تُبالةً ... وأصلح الآخر مصلِيه
وأَفْرخٌ ما بين سنْبوسج ... عليهِ أثواب خَلوقيه
ونصفُ جدي باردٍ أمه ... كما حكى الجلاّب حوفِيه

---

(1) ديوان الطغرائي، ص ١٧٨-١٧٩

(2) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(3) العيوق: نجم. لسان العرب، مادة (عيق).

وكي تكتمل لذّة هذا الطعام الشهي، ويزداد جمال تلك المأدبة التي تغري آكلها، فإنه لا بد من توافر مخللات وزيتون وجبن ومقبلات، يقول[١]:

ومجمع بين كواميخِهِ ... مخَلّلاتٌ غير سوقيه
ومن بناتِ البر دراجةٌ ... ومن بناتِ البحر بنيه
قد طُبختْ تلك وهاتيك قد ... جاء بها الطاهي مشْويه
في جونةٍ تهتز أعطافُها ... في حلّلِ للبقل جيزيه
يلوح فيها للفتى إن حدتْ ... به إلى رؤيتها نيه
زيتونةٌ صفراء قَيسيةٌ ... وجبنَةٌ بيضاء خِيسِيه

وقد عرف القرن الخامس الهجري مستوياتٍ متنوعةً من الأطعمة تتناسب والمستوى الحضاري لفئات المجتمع. ولعلّ ما يلفت النظر أن الشعر قد وصف تلك الأطعمة وصفًا حضاريا ينم عن مظاهر وآفاق واسعة غير محدودة من التطور الحضاري الذي بلغته تلك الحضارة الراقية، وهو ما سيلحظ في معظم شعر الطعام والشراب.

وثمة ما يؤكّد وصف الشعراء الأطعمة وصفًا حضاريا؛ إذ كانوا يشركون بهذا الوصف مظاهر حضارية أخرى تتناغم وما وصل إليه المجتمع العباسي – آنذاك – من رقي حضاري. ولما كانت مأدبة الطعام تزخر بما لذّ أكله وطاب شربه، فإنها تحتاج إلى أن تجتمع حين تناولها عناصر حضارية أخرى ومظاهر تتوافر فيها هذه اللذة وذاك الطيب، وإن كانت الحال كذلك فإن الرياض الغنّاء والمتنزهات الجميلة خير مكان يجلب إلى النفس الفرح والسرور.

ويعد العقيلي، بما أنماز به من ملكة شعرية في نظم (الروضيات)، شاهدا على اشتراك غير مظهر حضاري في شعر الوصف، ولعلّه واحد عصره في هذا الباب؛ إذ اقترن لديه وصف الأطعمة والأشربة بوصف الرياض ووصف مجلسي اللهو والشراب وما يرافق ذلك كلّه من غناء. وتكشف هذه التمازجات الشعرية لدى العقيلي عن تناول دقيق وعميق لإفرازات حضارية حفّت بها متع كثيرة متناغمة؛ فالطعام وما يرافق مجلسه من رياض وخمر وغناء أقرب ما يكون إلى لوحة حضارية تكاملية جمالية تصدر فيها الحضارة عن ثمارها وعن خبيء عطائها.

يقول العقيلي مخاطبا صديقًا له، وداعيا إياه إلى داره كي يتناول مأدبة[٢]:

عندي مِن الحوفيةِ الشقْر ما ... طبيخُه مِن شَيِهِ أصوب
إهابه أبيض مِن شَحمِهِ ... وعظْمه مِن لحمه أَرطَب
وأَفْرخٌ تُعملُ تِبالةً ... أَقْرب شيءٍ أمره يقْرب

---

[1] ديوان الطغرائي، ص ١٣٧.
[2] ديوان العقيلي، ج١، ص ٥٧.

وبطـةٌ إن ذُكّيـت تحتَهـا | جوذابـةٌ [1] فهـي التـي تُطّلب
وثـم طرذيـن وسنبوسـقٌ | إليهمـا فـي الشغـبِ المهـرب

فهذه المأدبة تحوي أصنافًا من الطعام تشتهيها النفس، كذلك الحلوى اللذيذة. ثـم إن دار الشاعر العقيلي، فضلاً عما تقدم، لا تخلو من بقل أخضر ينتشر في ساحاتها، وفراريج سِمان، وجبن مقدسي، وخمر معتّقة يصاحب شربها ضرب على العود وغناء، في جو من اللهو بين الشقائق والأقحوان، بينما الرعد يشدو والثرى منتشٍ والسحب تبكي والربى تشرب.

ويذكر العقيلي، في قصيدة ثانية، أصنافًا أخرى من الطعام، مثل: القنبريس، والشيراز، يتناولها المدعوون في مجلس تحفّ به أزهار النرجس، وتتوافر فيه خمر جيدة الصنع يحتسونها وهم يستمعون إلى غناء تُجلى به النفوس ويذهب الكمد، يقول[2]:

وثـم لونـان طبخناهمـا | مـا لهمـا نِـد سـوى النـد
وفـضلُه مـن قنبـريسٍ لهـا | فـضلٌ علـى الشيراز والزبـدِ
ومجمـع يجمـع مـا يـشْتَهى | مِـن سحـرٍ عبأتُـه وحـدِي
وقـد قلينـا لـك سنْبوسـجا | نُـورد منـه مـضعفَ الـوردِ
وبعـد هـذا فلنـا نرجـس | لـو كـان درا كـان فـي العِقْـدِ
وقهـوةٌ لـو أنهـا عنْبـر | لكـان منـسوبـًا إلـى الهنْـدِ
ومـسمِع تـشرب مِـن حـسن مـا | تَـسمـع منـه بـصفا سـعدِ

ويدعو في أخرى صديقًا إلى مأدبة، فيقول[3]:

عنـدي طَباهِجـةٌ [4] وجـدي بـارد | ومـضيرةٌ [5] كالفِـضةِ البيـضاءِ
ونقانـقٌ مـا منـه واحـدةٌ تُـرى | إلا كمِثْـل البـسرةِ الحمـراءِ
ومطَجـن عـذْب وفيـهِ دجاجـةٌ | اخْتَرتُهـا هِنْدِيـةَ الآبـاءِ
وبـوادر تجلـو عليـك سـليقَها | زبديـةٌ كالروضـةِ الخـضراءِ
وحواضِـر مِـن مـالحٍ ومخَلـلٍ | ممـا يوافـقُ صاحـب الـصفراءِ
ومدامـةٌ عِنَبيـةٌ إن شَـجها | سـاقٍ تكـدر صفْوهـا بالمـاءِ
وبنفـسج تـزداد زرقُ ثيابـهِ | حـسنًا ببـيضِ صنائـفِ الأنـدادِ
ومهفْهـفٌ يهتـز فـي حركاتـهِ | مثـلُ اهتـزازِ الـصعدةِ الـسمراءِ
لـم يولنـا قـط الجميـلُ غِنـاءه | إلا وجازينـاه بالإصغـاءِ

---

(1) الجوذابة: ضرب من الطعام يتّخذ من باب الخبز ويخلط باللبن والسكر واللوز. لسان العرب، مادة (جذب).
(2) ديوان العقيلي ، ج١، ص ١١٤-١١٥.
(3) ديوان العقيلي ، ج١، ص ٤٦.
(4) الطباهجة: طعام من بيض وبصل ولحم وبهار. لسان العرب، مادة (طبهج).
(5) المضيرة : مريقة لحم تطبخ باللبن المضير، وهو الحامض. لسان العرب، مادة (مضر).

فهي مأدبة تضم ما لذّ وطاب من الطعام والشراب، اعتنى صاحبها في إعدادها، وحرص على أن يتوافر فيها غذاء الجسد والروح معا؛ فتتخذ لها بيئة جميلة تـزدان بالبنفـسج، ومطربـا يتمايل في حركاته مهتزا، غناؤه يشنّف الآذان.

ولم تقتصر خبرة العقيلي في الأطعمة على معرفته أسماءها حسب، بل إعدادها أيـضا، ويتّضح ذلك في قوله يدعو صديقًا له إلى مأدبة[1]:

عنـدي لَـون طَبَخْتُـه بيـدي ... غيـر رقيـقٍ وغيـر منْعقِـدِ
وقـد أمرنـا مِـن الغـداة لنـا ... بِـشَي جـدي مـدور الجـسدِ
إلـى رخامِيـةٍ مـذاقتُها ... أطيـب مِـن عيـشَةٍ بـلا نَكَـدِ
وجـامِ لَـوزينجٍ (٢) كـأني قـد ... صـغْتُ لُجينـًا منـه علـى بـرِدِ
وزهـرةٍ فـي ذكـاءِ مخْتَبـري ... وقهـوةٍ فـي صـفاءِ معتَقَـدي
تجلـو عليـك المـدام أكؤُسـها ... معممـاتِ الـرؤوسِ بالزبـدِ
ومـسمِع مـا تكـاد تَـسمع مـا ... يـأتي بـهِ فِـي الغنـاءِ مِـن أحـدِ
إذا اجتمعنـا بِقُربـهِ أَمِنَـتْ ... نفوسـنا مِـن أذِيـةِ الكمـدِ

فهو يتقن فن الطهي، ويحسن اختيار أصناف الطعام، حتى كأن مأدبتـه لوحـة زاهيـة الألوان، أو امرأة جميلة ترفل بأجمل الثياب وتفوح منها رائحة العطر والطيب.

ويعبر العقيلي، في قصيدة أخرى، عن كرمه الملحوظ وجوده اللافت تجاه أحد أصـدقائه إذ دعاه إلى مأدبة[3]:

ولنـا أرؤس نِطـافٌ ظِـرافٌ ... كـل رأسٍ منهـا لَذيـذُ المـذاقِ
كُلمـا زفهـا الغُـلام جلاهـا ... فـي ثيـابٍ مِـن الرقـاقِ رقـاقِ
وبقُـولٌ للقَطْـرِ طَـرز علـى مـا ... لَبِـستْه مِـن سـنْدسِ الأوراقِ
ثُـم يأتيـك فِـي الـسكـارج خَـل ... حبـه مـا حييـتَ فِـي القلـبِ بـاقِ
وجبـن كالاحتمـال ومِلْـح ... كبيـاضِ الحنُـو والإشـفاقِ
وجميـع الـذي فَرغْنـا بليـلٍ ... منـه مِـن صـعتَرٍ ومِـن سـماقِ
ولنـا قهـوةٌ أرق وأصـفى ... مِـن دمـوعِ المحِـب يـوم الفُـراقِ
بنـتُ كَـرمٍ تختـالُ بـين النـدامى ... فـي ثيـابٍ فِـضيةِ الأطـواقِ
ولنـا مِـن هدِيـةِ الـروضِ ورد ... صبغُـه فـي نهايـةِ الإشـراقِ

---

(1) ديوان العقيلي ، ج١، ص ١١٢.
(2) اللوزينج: من الحلواء شبه القطائف، ويصنع من الخبز وماء الورد واللوز والسكر. لسان العرب، مادة (لزج).
(3) ديوان العقيلي، ج٢، ص ٢٢٤.

ولنـــــا نَـــرجس أُحيـــك منــــه بوجــــــوهٍ مفتوحــــةِ الأحــــداقِ
ولنـــا بعـــد ذاك مِـــن آل كِـــسرى مـــسمع حـــــاذقٌ مِـــن الحـــذّاقِ

فهي مأدبة تتزين بأصناف عدة من الطعام أحسن معدها ترتيبها، وأجاد فـي اختيارهـا. فضلاً عن أنها تحوي خمرا صافية، ويحيط بها ورد ونرجس غض مفتوح الأحداق. ثم إن هـذه المأدبة لا تخلو من مغن حاذق مجيد يحسن صنعته. وللعقيلي قصائد طوال قصرها على وصف الطعام، يقول في إحداها واصفًا مأدبة دعا إليها أحد أصدقائه[١]:

لـك عندي مينا مِـن الهلْيــــون [٢] حولَـه عـسجد مِـن الطـردين [٣]
وفـراخٌ منهـا المـصوص [٤] ومنهـا مـا عـدلنا بـهِ إلـى التـضجين [٥]
ورضيـــــع إذا أتيــــتَ أتانــــا منـــه طباخُنـــا برطـــبٍ ســـمين
في رداءٍ مِن صنْعـــــةِ النـار فيـهِ علَــم أخْـضر مِـن الطرخـون
ولنا مجمـع تـرى منــــه روضـا أبـيض الجـبن أسـود الزيتـون
لم يبـــــن فيـــــهِ بِنـةٌ [٦] قَـط إلاّ كـــان شِــبها للعنبـــر المعجـــون
ولنــــا خُـرم [٧] إذا مــا شَـربنا نَتَحـسى منـــه بأســمر جـــوني [٨]

فهي مأدبة حرص العقيلي على أن تضم طعاما متعدد الأصناف، استُخدم في إعداده لحم وسمك وغير نوع من النبات شهي الطعم جميل المنظر. ولما كان العقيلي معد هذا الطعام اللذيذ، فإن لذّته تحتاج – حسب العقيلي – إلى ما يكملها، يقول[٩]:

وعـروس كريمـةُ الكـرمِ بِكْـر مـا لهـا والـد سـوى الزرجـون
لـو أتانـا كانـون بـالثلج فيـهِ لَغَنينــــا بهــا عــن الكــانون

(1) ديوان العقيلي، ج٢، ص ٢٧٦. وانظر أيضا: المصدر نفسه، ج١، ص ٦٠-٦١، و ج٢، ص ٢٢٢-٢٢٣.
(2) الهليون: نبات له قضبان رخصة، ولونه أبيض. لسان العرب، مادة (هلن).
(3) الطردين: ضرب من الطعام. لسان العرب، مادة (طرد).
(4) المصوص: طعام من لحم الطير خاصة. لسان العرب، مادة (مص).
(5) التضجين: من الضاجن، وهو المقلاة. لسان العرب، مادة (ضجن).
(6) بنّة: نوع من السمك في نيل مصر. لسان العرب، مادة (بن).
(7) الخرم: نبات له زهر بنفسجي اللون، شمه والنظر إليه مفرح جدا. لسان العرب، مادة (خرم).
(8) الجوني: الضارب إلى سواد أو حمرة. لسان العرب، مادة (جون).
(9) ديوان العقيلي، ج٢، ص ٢٧٧.

وهذان: الطعام والخمر، لا تكتمل لذتهما ولا يستقيم حسنهما إلا إذا تُنوولا في رياض ذوات روائح عطرية، تحيط برباها ومروجها ورود أنيقة ونسيم رطب ومطر كثير متتابع، فكأنها جنة في الأرض، كثيرة الخير، عظيمة الفضل، ذات بهجة، يقول[1]:

فاعزمِ اليوم نَصطبح في رياضٍ كدكاكين باعةِ المدهون
وغِياض قد وشحتْ ببرودٍ عصبها في نهايةِ التلوين
وربى تُفْرشُ الطوارم منها كل يومٍ بالمخْمل القلموني
ومروجٍ غُر وزهرٍ أنيقٍ ونسيمٍ رطْبٍ ووبلٍ هتُون
وتمتع من النّدى بلآلٍ تتلالا في فضةِ الياسمين
وأقاحٍ ترنو إلى جلنارٍ وخُزامى تدنو إلى نَسرين
وبهارٍ من حول آسٍ وورد وشقيقٍ من حول آذَريون
وغصونٍ لها نجوم ثمارٍ وثمارٍ لها بروج غُصون
وعيونٍ قد أحدقتْ بخدودٍ وخدودٍ قد أحدقتْ بعيون

ولم ينس العقيلي في غمرة ما يشعر به من لذّة وفرح ونشوة أن يضيف إلى ذلك كلّه ما يبثّ في الروح والأذن سرورا، ويبعث فيهما طربا، فتراه يتّخذ مغنّيا حسن الصوت جميل المنظر بهي الطلّة، يقول[2]:

مع مغَن له سيوفُ لحاظٍ ينْتَضِيهن من جفون الجفون
ما ترى الجو فِي الثيابِ التي قد أذهب البرقُ خَزها الطاروني

وبذا، يتّضح جليا ما كان بين العقيلي والطعام من علاقة يمكن أن توصف بأنها علاقة حب وعشق بل هيام، وهي علاقة حضارية أفرزتها حضارة القرن الخامس الهجري. وإن كان العقيلي قد جاوز الحد في موائده؛ إذ غالى فيها إلى درجة الترف، فإن مبعث ذلك ربما يكون إكرام الضيف أو اتّباعا لسنن مجتمعه وعصره، ما يؤكّد حقيقة أن هذا المظهر الحضاري كان ثمرة من ثمار امتزاج الحضارة الإسلامية بالحضارات الأخرى.

وثمة قصيدة مزدوجة في ذم الغبوق ومدح الصبوح، اختتم بها العقيلي ديوانه، وهي مناقضة لقصيدة ابن المعتز التي يذم فيها الصبوح ويمدح الغبوق، يقول العقيلي [3]:

وجاء بالشراز [4] والبوراني [5] ضدين مثل الوصل والهجران

---

(1) ديوان العقيلي، والصفحة نفسها.
(2) المصدر نفسه، ص ٢٧٨.
(3) ديوان العقيلي، ج٢، ص ٣٥٥.
(4) الشراز: طعام يشتهى من الكرفس وبعض البقول. لسان العرب، مادة (شرز).
(5) البوراني: طعام يشتهى من الباذنجان المقلي المخلوط باللبن والثوم والملح. لسان العرب، مادة (بور).

كأنها ذاك بذا إذا خُلِطْ ... صبح مشيبٍ بدجى شَعرٍ وخِطْ
ثُم لنا جدي قريشٌ [1] مشرقُ ... كأنما إهابه مخلّقُ
ثُم لنا فَرخُ إوز مبتَهج ... في قِدرِ جوذابٍ [2] لها تصبو المهج
رطب نضيج فائقٌ لذيذُ ... يعوم فِي الدهن بِهِ السميذُ
شبهتُه بمرضعٍ في مهدِ ... عليهِ ثوب أحمر كالوردِ
وقد حكّتْ في قِدرها الجوذَابه ... سبيكةً مِن ذَهبٍ مذابه

فما إن يؤكل الطعام اللذيذ، حتى تأتي جوذابة طيبة الرائحة، ذات بهجة تسر الناظرين، نضجت على نار هادئة حتى أصبحت هشّة بين الأضراس.

ثم يقول[3]:

وبعد هذا نَرجسيةٌ سبتْ ... بحسنها عقلي لَما أن بدتْ
كأنها في زيها عروس ... قد فُتِنَتْ بحسنِها النفوس
شبهتُها لَما أتتْ في قِدرها ... بروضةٍ زاهِرةٍ بزهرها
كأنما الفستقُ واللوز معا ... فصوص بازهرٍ ودر جمعا
والبيض مفقوس بها منَجم ... كأنه لَما علاها أنْجم
أو أقحوان بالعيون تَسحر ... أو نرجِس في وسطِ زهرٍ يزهِر
ما بين زيتونٍ وعنّاب درج ... لاح لنا منه عقِيقٌ وسبج
والجبن لونان فقانٍ قد قُلِي ... وناصِع يبهر عين المجتَلي
مثلُ شوابير [4] لُجينٍ وذَهب ... نيطتْ بِشَرشيقٍ أنيقٍ كالرطَب

ولعمري، إن العقيلي قد تفنّن في وصف الطعام والشراب، وأبدع فيه كثيرا، وهذا إسهام منه ينضاف إلى ديوان الشعر العربي.

وقد كان اللحم عنصرا رئيسا في كثير من موائد القرن الخامس الهجري، ما جعل الشعراء يذكرونه في غير موضع من قصائدهم، ويجتهدون في وصفه. ومن ذلك قول العقيلي يصف صينية طعام [5]:

عندي مِن المدهون صينيّةٌ ... كأنها سفْرةُ ديباجِ
تبدي مِن الأصباغ ما لا ترى ... مِثْلاً له في جوهر التّاجِ

---

(1) القريش: المطبوخ الذي عمل فيه صباغ. لسان العرب، مادة (قرش).
(2) الجوذاب والجوازب: طعام يتّخذ من سكر وأرز ولحم ولوز، أو هو ضرب من القطائف. لسان العرب، مادة (جذب).
(3) ديوان العقيلي ، ج٢، ص ٣٥٦.
(4) الشوابير: ضرب من الفطائر كالقطائف، يذر عليها العسل أو السكر. لسان العرب، مادة (شبر).
(5) ديوان العقيلي ، ج١، ص ٩٤.

مِـن أحمــرٍ يلْمــع فــي أبيــضٍ	كأنــه الــبقم فِــــي العــاج

فهي صينية تشبه في منظرها الديباج، تحوي ألوانًا عدة من الطعام الشهي، وأصنافًا كثيرة من اللحم المحمر والمشوي.

ويصف ظافر الحداد الرؤوس المغمومة وصفًا جميلاً، فيقول [(١)] :

غَــدونا للغــداءِ غــداةَ قُــر	لأكــل رؤوسِ أبنــاءِ النعــاج

صِغار الــسن وافــرةٍ سِــمانٍ	تُريــك صــفاء ناعمــةٍ نِــضاجِ

كأغــشيــةٍ مبطنَــةٍ بقُطْــنٍ	مقَــدرةٍ علــى أدراجِ عــاج

وبينما كان في روض مع جماعة يتنزهون؛ إذ أُحضر الطعام وكان رؤوسا مغمومة، فقال[(٢)]:

ورؤوسٍ جــاءتْ بكــل رئيــس	قد تَناهــتْ فــي كــل معنًــى نَفــيسِ

كــل رأسٍ فــي طيلــسانٍ رقــاقٍ	دق عمــا يحــاك فـــي تِنّــيسِ

فــي ريــاضٍ كأنمــا نَــشَر الــرو	م عليهــا مــصبغاتِ عـــروسِ

صدرتْ عــن لَظًــى وقابلــتِ الجلــ	ــد فأبــدتْ تَبــسما فــي عبــوسِ

جــل مِقــدارها فأصــلح مـــا كــا	نــتْ هــدايا كِــسرى إلــى بِلقيــسِ

ويصف في قصيدة أخرى تلك الرؤوس، التي تمت محاسن أوصافها، فيقول [(٣)] :

غَدونـــا إلـــى أرؤُسٍ أُحكِمــتْ	وتَمـــتْ محاســـن أوصـــافِها

صِغـــارٍ لهـــا سِـــمن ظـــاهر	تَـــدل علـــى حِـــذْق علاّفِهـــا

حكَـــتْ قِطَـــع القُطْـــن ملفوفـــةً	كمـــا فارقَـــتْ كَـــف نَدافِهـــا

كـــأن تماثيـــلَ أشخاصِـــها	وأفواهِهـــا تحـــتَ آنافِهـــا

خَليـــع الطراطيـــرِ بِيـــضا وقـــد	تَفَتــقَ مــا فــوقَ أطرافِهـــا

أما أبو النصر ابن النحاس الحلبي [(٤)]، فيدعو صديقًا إلى تناول العجة، ويصفها له قائلاً[(5)]:

أبــا الحــسن استمع قــولي وبــادِر	إلى مــا تــشتهي، تَفْديــك نفــسي

فعنـــدي عجــةٌ تُزهـــى بِلَـــونٍ	كلَـون البــدرِ فــي عــشْرٍ وخَمــسِ

أجــادتْ فــي صناعتِهــا عجــوز	لها فِـــي القَلْـي حِـس أي حِـس

فلــم أر قبــلَ رؤيتهــا عجـــوزا	تصوغُ مِـن الكواكـبِ عـين شَـمسِ

فهي عجة ذات لون زاهٍ، أجادت في قليها عجوز حاذقة في فن الطهي.

---

(1) ديوان ظافر الحداد، ص ٧٥.
(2) المصدر نفسه، ص ١٧٣.
(3) المصدر نفسه، ص ٢١٦-٢١٧.
(4) من الشعراء المجيدين، عاصر ابن سنان الخفاجي. انظر: خريدة القصر، قسم شعراء الشام ١٧٨/٢.
(5) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص ١٧٨.

ويصف المرصع أبو المكارم الفضل بن عبد القاهر طعاما نُسقت قطع اللحم فيـه أيمـا تنسيق، فيقول[١]:

لـــم أَنْـــس دِســـتَ حكـــيمٍ — أبـــداه يومـــــًا لِقَـــصدِ
تـــــرى المباضِــــع فيـــهِ — قـــد نُـــضدتْ أي نَـــضدِ
كمِثْـــل أقــــــلامِ تِبــــرٍ — تُمــــــــد مِــــــــن لازوردِ

أما السمك، فقد كان له نصيب من الوصف لدى شعراء مصر خاصة؛ لتـوافر النيـل، يقول العقيلي [٢]:

عنـدي جعِلْـتُ فِـداك مِـن نَدمـان — راي[٣] قريـب العهـدِ بالغُـدران
يقْلى لنـا فِـي الوقـتِ حـين يجيئنـا — فيجيئنـا كـسبائِـكِ العِقْيــان
يـرد المقـالي وهـو أبـيض سـاطع — ويعـود منهـا وهـو أحمـر قـان
ولحبـذا كـافوره سيمــا إذا — مـا خَلقَتْــه حـرارةُ النيـران

فهو سمك طازج يحلو النظر إليه قبل القلي وبعده، ذو طعم لذيذ يجعل الـنفس تـشتهيه حينما يكون أحمر قانيا.

وكعادة العقيلي، فإن لذّة هذا الطعام لا تكتمل إلا إذا توافرت الورود الجميلـة والخمـر المعتّقة والمغنّي المجيد، يقول[٤]:

وانْعم بمـا يأتيـك مِـن نَـسرينهِ — متَرديـا بـشقائـق النعمـان
فاعـذُر فمـالي بعـده شـيء سِـوى — دســتيجةٌ مــلأى وسِــت قنــاني
مِـن قهـوةٍ تُجلَـى عليـك كُؤوسـها — ورؤوســها فــي أحــسن التّيجــان
وقـدِ اسـتَزرتُ مهفْهفًـا لِغِنائـهِ — حلَـلٌ يـزف بهـا مِـن الألحـان
فاجعـلْ لروحِـك راحـةً فـي يومِنـا — برواحِهـا للــراحِ والريحـان

أما ظافـر الحداد، فيقول وقد دعاه بعض أصدقائه إلى الجيزة، وقدّم له سمك الراي:

أيـا سـيدا نـالَ أعلـى الرتَـب — وحـاز الكمـالَ بأوفـى سـبب
أمالَـك فِـي الـراي رأي فـإن — لـه صِـفَةً أوجبـتْ أن يحـب؟
تربـى مـع النيـل حتـى ربـا — وصار مِـن الـشحمِ ضـخْما خِـدب
ولا حِـس للعظـمِ فـي جِـسمهِ — فليس علـى الـضرس منـه تَعـب
يـذوب كمـا ذاب شَـحم الكُلـى — إذا الجمـر قاربـه أو قَـرب

(1) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢ ، ص ١٠٣.
(2) ديوان العقيلي ، ج٢، ص ٢٨٧.
(3) الراي: سمك يعيش في نيل النيل، طيب الطعم، لونه أحمر.
(4) ديوان العقيلي، ج٢، ص ٢٨٧.

يروقُك نَيًّا وفي قَلْيِهِ … فتُبصِر من حالَتَيهِ العجب
نُصولُ السكاكين مصقولةٌ … وفي القَلْي تَمويهها بالذهب
كأن اللجين[1] الذي قد علا … وذاك النضار[2] الذي في الذنَب
لفائفُ قُطْنٍ لِطافٌ وقد … تَبدى بأطرافِها من اللهب
فيا حسنَه وهو في الشباكِ … وقد ظَل مشْتَبِكًا يضطَرب
كزرق الأسِنةِ بين الدروعِ … تَميلُ بِهن العوالي السلُب[3]

فهو سمك تربى في مياه النيل حتى نما، وصار حسن المنظر لذيذ الطعم، يروق للناظرين نيئًا، فإذا قُلي راق للآكلين طعما. إنها صفات أوجبت أن يحب هذا السمك حقا.

والبلْطِي نوع آخر من السمك معروف في مصر، يصفه العقيلي قائلاً[4]:

لنا مِن بناتِ الماءِ بيض ألذ من … هلالِك عدو أو نجاةِ صديقِ
إذا هي رقتْ في غلائل فِضةٍ … جلتْها المقالي في ثيابِ عقيقِ
وبلْطِيةٍ قد سكْبِجتْ[5] فإهابها … كحالةِ وشْي ضمختْ بخلُوقِ

وقد كان طعام الملوخية معروفًا في القرن الخامس الهجري؛ فهذا ظافر الحداد يدعو صديقًا له إلى أكلها، يقول[6]:

أيا سيدي وأخي لا تَغِب … فعِندي لك اليوم ما يستَحب
ملوخيةٌ سبقَتْ وقْتَها … وجاءتْ كهيئةِ خُضر الزغَب
وقد نُقيتْ قبلَ تقطيفِها … بِكفي لبيبٍ خبيرٍ درِب
وقد غادرتْها حدود المدى … كما غادر الصبر قلْبا محِب
وقد أُحكِمتْ بِفراخِ الحمامِ … ودهن الدجاجِ وصفْر الكُبب
إلى أن تحرر تركيبها … كما حرر الصيرفي الذهب
وكملها النضج حتى هدتْ … فليس لِعيبٍ إليها سبب
فبادر إليها فكُل إلى … قدومِك ملْتَفِتٌ مرتَقِب

(1) اللجين: الفضة. لسان العرب، مادة (لجن).
(2) النّضار: الذهب. لسان العرب، مادة (نضر).
(3) السلب: الطِوال. لسان العرب، مادة (سلب).
(4) ديوان العقيلي، ج٢، ص ٢١٥.
(5) سكْبجت: من السكباج، وهو مرق من الخلّ. لسان العرب، مادة (سكبج).
(6) ديوان ظافر الحداد، ص ٦١.

فالشاعر يصف الملوخية كيف نقّتها قبل تقطيفها كفا لبيب خبير درب عـارف بـصنعته ماهر في عمله، ثم يذكر كيف قُطّعت بالسكين، وأضيفت إليها في أثناء طهيها فـراخ الحمـام، والدجاج، وقطع اللحم، ثم كيف نضجت وبادر إليها الآكلون.

أما الحلوى، فقد تناول العباسيون في القرن الخامس الهجري أصنافًا منها على موائدهم، "وكانت تقدم أحيانًا قبل الطعام وأحيانًا بعده" [1]، وبرعوا في إعدادها وتـشكيلها براعـة مثّلـت الترف الحضاري آنذاك.

ولأهمية الحلوى، فقد منحها الشاعر في القرن الخامس الهجري عنايته؛ فذكر أصـنافها، وقدم لها صورا وصف فيها هيئتها على نحوٍ يؤكّد المستوى الحضاري الراقي الذي وصل إليـه هذا القرن.

والطغرائي أحد الشعراء الذين وصفوا الحلويات المختلفة؛ فاقتحم بشعره هـذا الميـدان، ووصف فأبدع في وصفه، يقول [2]:

وقـــــدم طباخُنـــــــا رزةً	عليهـــا لِثـــام مِـــن الـــسكر
بهـا احتجـب البـدر تحـتُ الغَمـامِ	فلـــم تَتَجـــل ولـــم تُـــستَر
تـرى للـدهان علـــى وجههـا	عيونـــًا تـــدور بـــلا محجـــر
وسِربـــًا نواعِـــــم مخلوقَـــةً	مِـــن اللـــوز والـــسكر العـــسكري
ثِقـالُ المـآزر قُـــب البطـو	ن غيـــر سِمـــانٍ ولا ضُـــمر
كـأن الفواقِـع قـد قُـصلِـت	عليهـا جلابيـــب لـــم تُـــزرر
تراهـــا لِرقـــةِ أبـــشارهـــا	تُخَبـــر عـــن حـــشْوها المـــضمر
شَـربن مِـن الـدهن حتـى رويـن	وغُـــرقْن فـــي لُجـــهِ الأخْـــضر
تـذوب إذا رفَعتْهـا الأكُـــف	قبـلَ الوصـــول إلـى الحنْجـــر

إنها حلوى أحاط بها السكّر مثلما يحيط اللثام بوجه الجميلة، تظهر وقد أحاط بها القطـر من كلّ جانب، ونُثر فوقها اللوز، يرى الناظر إليها حشوها لرقة ثوبها، حتى إذا رفعتها الأكـفّ إلى الفم ذابت فيه قبل ابتلاعها؛ من أثر ارتوائها بالدهن.

---

[1] ضيف، شوقي، عصر الدول والإمارات: الجزيرة العربية – العراق – إيران، ط٢، مصر، دار المعارف، ١٩٨٠م ، ص ٥٠٥.
[2] ديوان الطغرائي، ص ١٧٩-١٨٠.

ولعلّ الطغرائي، فضلاً عن كونه طاهيا بارعا، حلواني حاذق، وما ذاك إلا بفضل الحضارة الإسلامية التي فتقت الأذهان، وصقلت العقول، فجعلت حتى الحلوانيين مهندسين مبتكرين أحاطوا بسهم وافر في ميادين صناعة الحلوى.

والجوذابة حلو وصفه ظافر الحداد؛ فتجلّت في وصفه معرفة دقيقة بمكوناته، بل إنه تجاوز ذلك ليعرفنا خيارات إعداده، يقول[1]:

طَورا تكون بسكرٍ   في اللوز تحتَ الدهن راسِب
زهراء قد ستَر الزجا   ج شعاعها من كل جانب
والطيب يفشي سِرها   بين الأباعِدِ والأقارب
والرتبةُ الوسطى يقَد   مها تَبايعةٌ وحاجِب
مثلُ الخروفِ وجامةِ الـ   ـحلواءِ تأتي في العواقِب
وربما جاءتْ بجد   ي أو بجنْبٍ عنه نائب
وأقل ما تأتي إذا   حضرتْ بعصيانِ أطايب

فهي طعام يتخذ من سكر وأرز ولحم، يتصف بالحسن حتى إن الناظر إليه يشعر بالبهجة، وهو من الطيب بحيث لا يخفى على أحد سرها.

ووصف ظافر الحداد ضربا آخر من الحلوى تسمى القطائف، يقول[2]:

قطائفٌ لَطائفٌ روابٍ   لم تُحشَ بلْ صفتْ على اصطِحابِ
في المِسكِ والفُستُق والجلاّبِ   كأنّها ألْسِنَةُ الأحبابِ
في الشكْل والنكْهةِ والرضابِ   ملْمسها كوجنَةِ الكعابِ
وطَعمها كلَذةِ العِتابِ   من بعدِ صدٍّ طالَ واجتِنابِ
تَنْزلُ في الحلْقِ بلا حِجابِ   فَهي طَعام وهي كالشرابِ

فهي قطائف لم تُحشَ، بل صفّت في المسك والفستق وماء الورد، فكانت ذات شكل جميل ونكهة طيبة من أثر العسل والسكر، يبتلعها المرء من غير حاجة إلى مضغها، حتى كأنها شراب.

أما أبو اليمن الرشيد، ابن علي بن المهنا بن علي بن عبد القاهر، فيصف القطائف قائلاً[3]:

شفاء نفسي لو بهِ أُسعِفَتْ   قطايفٌ تعذُب في اللقْمِ

---

(1) ديوان الطغرائي، ص ٣٥٥-٣٥٦.
(2) ديوان ظافر الحداد، ص ٨.
(3) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص ١٠٦.

يـ ـشهد بالـ ـشهدِ لنـ ـ ـا ظـ ـاهر   وبـ ـاطِن فِـ ـي اللـ ـ ـون والطعـ ـمِ
كأنهـ ـا الإِسـ ـفِنْج فـ ـ ـي مائِـ ـهِ   غريقـ ـ ـ ـةً فـ ـي دهنِهـ ـا الجـ ـم

ومن أجمل الشعر الذي قيل في الحلوى وأطرفه أبيات لظافر الحداد يصف فيها الكنافـة وخبازها على هذا النحو الطريف الصوغ، الخفيف على السمع والخاطر [1]:

وحـ ـ ـ ـاذِقٍ محكِـ ـم كُنافَتَـ ـ ـه   لا تَـ ـشْبـ ـ ـع العـ ـين منـ ـه بـ ـالنظَر
كأنمـ ـا بـ ـسطُه العجيـ ـ ـن علـ ـى   أكـ ـ ـراهِ لمـ ـ ـا حفـ ـتْ بِمـ ـستَعِر
ينْـ ـسج غَيمـ ـا مِـ ـن الـ ـسحابِ علـ ـى   وامِـ ـ ـضِ بـ ـ ـرقٍ يكْـ ـتَن بـ ـالمطَر
كأنّـ ـ ـ ـه يفتـ ـ ـ ـح الفواقِـ ـع دا   راتٍ علـ ـ ـى راكِـ ـدٍ مِـ ـن الغُـ ـدر
فَهـ ـي كَمِثْـ ـل الـ ـسرابِ يعـ ـدم مِنْـ ـ   ـها اللمـ ـس، وهمـ ـا يلـ ـوح للبـ ـصر

وبذا، فقد مهر العباسيون في القرن الخامس الهجري في صناعة الحلـوى، مـا يؤكّـد المستوى الحضاري الذي وصل إليه هذا القرن.

أما الشراب، فقد عرف المجتمع العباسي على موائده شرابا سوى الخمر هو الفقّـاع [2]، الذي يكاد يقتصر ذكره على شعر ظافر الحداد، يقول في فقاعي[3]:

وافـ ـ ـ ـ ـ ـى بفُقّـ ـ ـ ـ ـاعٍ أرِج   يحيـ ـ ـ ـى بِنَكْهتِـ ـهِ المهـ ـ ـ ـج
شـ ـيخٌ مـ ـضـ ـتْ مِـ ـن عمـ ـرِهِ   فـ ـ ـي ذاـ ـك المعنـ ـى حجـ ـج
مزجـ ـتْ يـ ـ ـداه الطيـ ـب فيـ ـ ـ   ـ ـهِ، فكـ ـان أظـ ـرفَ مـ ـن مـ ـزج
وحـ ـشـ ـ ـا قلـ ـوب سـ ـذابِهِ   منـ ـ ـه بكـ ـ ـ ـل فـ ـمٍ حـ ـرج
فكأنّـ ـ ـ ـ ـه يحـ ـشـ ـو بـ ـهِ   قطـ ـع الزمـ ـردِ فـ ـ ـي الـ ـسبج

ويصف الفقّاع في قول آخر في صورة تشوقية، فمن رآه في تشوقه إلى شربه يظـن أن في أنال يده التي مدت إليه لقاحات عنبر، يقول[4]:

عِنْدنـ ـ ـ ـا كِيـ ـ ـ ـزان فُقّـ ـا   عٍ لهـ ـ ـ ـ ـا حـ ـسن ومنْظَـ ـر
كـ ـ ـ ـل كـ ـوزٍ قـ ـد تَزيـ ـ ـ ـى   وتَـ ـ ـ ـ ـردى وتَعطـ ـ ـ ـ ـ ـر
مـ ـن رآنـ ـ ـا نُـ ـورد الأيـ ـ ـ   ـ ـدي إليهـ ـ ـا ثـ ـ ـم نُـ ـصدِر

---

(1) ديوان ظافر الحداد، ص ١٣٢.

(2) الفقّاع: ضرب من الشراب الشعبي كان يصنع في مصر والشام، يتّخذ من الشعير، وقد سمي بذلك لما يعلوه من الزبد. قال الغزولي: والفقاع يتّخذ من أصناف الحلاوات؛ يتّخذ من السكر البياض النقي بأن يحلّ بالماء والماء ورد ويطيب بالمسك ويوعى ويبرد بالثلج ويستعمل، ويتّخذ من العسل، ويتّخذ من ماء الزبيب الحلو السمين، ويتّخذ من الدبس (العسل الأسود)، وغير ذلك، ومن الناس من يطيبه بالزنجبيل أو الفلفل أو القرنفل مع المسك وماء الورد. ومن الناس من يحلّ شراب التفاح ويصبه في كيزان الفقّاع ويبرده ويستعمله. انظر : علام، عبدا (١٣٠٠هـ)، مطالع البدور في منازل السرور، ج٢، القاهرة، ص ٨٩.

(3) ديوان ظافر الحداد، ص ٧٥. وانظر: غرائب التنبيهات، ص ١٥٨-١٥٩.

(4) ديوان ظافر الحداد، ص ١٥٤-١٥٥. وانظر: غرائب التنبيهات، ص ١٥٠.

ظَـ ـن فـ ـ ـي أَنْمِلنـ ـ ـا لـ ـ ـ ـ ـ ـشم تفّاحـ ـ ـ ـ ـاتُ عنْبـ ـ ـر

فشراب الفقّاع الذي حلّ ثم صب في كيزان، له طعم لذيذ، وهو ذو منظر أنيق، حتى إن أصابعنا بتناوله تصبح حمراء يظنّها الرائي تفاحات عنبر.

وتتكرر الصور في ألوان الطعام والشراب، فهذا غيض من فيض مما قاله الشعراء فـي القرن الخامس الهجري، غير أن ذلك الشعر الذي قيل في الأطعمة والأشربة كان مـن الإجـادة والروعة بحيث خلّد وخلّب ألباب الدارسين على مدى العصور المتتابعة. ومهما كان الشأن فـي أشعار هذا القرن سواء ما كان في الأطعمة أو الأشربة، فإنها كانـت معبـرة عـن المـستوى الحضاري الراقي الذي بلغه المجتمع الإسلامي العربي في القرن الخامس الهجري، فكان شعرهم في الأطعمة والأشربة دلالة على التطور الصريح والخلق والإبداع الذي بنيت بـه حـضارتهم، وكان - فضلاً عن ذلك - سجلاً للمظاهر الحضارية الكبرى في ذلك القرن.

ثانيا: مظاهر اللهو والتسلية في شعر القرن الخامس الهجري

أ- مجالس الخمر

شعر الخمر، أو ما عرف في ما بعد بالخمريات، وضعي موجود منذ القدم؛ فقـد كـان منتشرا في أبيات قليلة ضمن قصائد مختلفة، لم يقصد أصحابها إلى وصف الخمر. ولقد تطـور هذا الشعر في القرون: الثاني والثالث والرابع؛ بسبب الانفتاح والحياة الحضرية، وخيـر مثـال على ذلك خمريات أبي نواس. بيد أن هذا التطور قد ساعدت عليه مشكلات الحياة وآلامها؛ ذلك أن تلك القرون اتّصفت – في أحايين كثيرة – بسوء الإدارة، واضطراب الأحـوال الاجتماعيـة والاقتصادية.

وإذن، فليس الأمر منوطًا برغبةٍ في اللهو أو المجون حسب، وإنما هو مردود أحيانًا إلى شعور بالظلم والضنك والحرمان، فكان – من ثَم – البحث عن متنفّس يخفّف وطأة ذاك الشعور، ولعلّ في شعراء البصرة، مثل: أبي الحسين الطاهر البصري[1]، وأبـي عاصـم البـصري[2]،

(1) شاعر بصري من شعراء اليتيمة. انظر يتيمة الدهر ٣٥٠/٢

(2) بصري، من شعراء اليتيمة. انظر: يتيمة الدهر ٣٤٩/٢.

والحسين بن علي النميري[1]، والقاضي التنوخـي[2]، والمحسن التنوخي[3]، وغيرهم ... دلـيلاً صراحا على هذا.

وقد حفل شعر القرن الخامس بذكر وفير للخمر؛ صفتها وآنيتهـا وسـقاتها ومجالـسها، وأبدع شعراء كثر في إيداع أحاسيسهم في قصائد دارت حول الخمر، وكان لبعضهم نصيب وافر جدا في هذا الضرب، ويقف على رأس هؤلاء الشريف العقيلي، والصوري، والأبيوردي.

١- الخمر: صفتها، وآنيتها، والتغزل بسقاتها

يقر في ذهن مستقري أشعار القرن الخامس أن العقيلي انماز بـشعر الخمـر، ولعلّـه نواسي العصر من غير منازع؛ فلقد دارت الراح في ديوان العقيلي من أوله إلى آخـره، حتـى هلكت كؤوسها، وفرغت دنانُها، وزال مديرها وشاربوها. على أن المشابهة بين العقيلـي وأبـي نواس لا تصح ولا تلتقي إلا في تصوير الخمر ومجالس الشراب، ذلك أن أبا نواس قد اتّخذ مـن الراح فلسفة روحية، وتعمق المعاني الخمرية فاستغرق بما وراء الكلام والوجود، أما العقيلـي، فكان تصويره ماديا ملموسا ممزوجا بالفكاهة والملحة والدعابة، وإنه ليعد مـن أبـرز شـعراء الطبيعة في أدب العرب، وهم قلّة على اختلاف العصور، وهو في هذا؛ أي حب الطبيعة وتعشّق جمالها والفتون بها، شبيه إلى حد كبير بابن خفاجة الأندلسي.

وللعقيلي قصيدة خمرية تعد من أجود ما يمكن أن يؤثر في هذا الباب، وقد صاغها على الطريقة النواسية، يتحدث فيها عن شدة ولعه بالخمارات، يقول[4]:

وخمارةٍ نَبهتُهـا بعــــد هجعــــةٍ ... وجنْح الدجـى حيران كالقـارِ مـسود
يشُق جلابيب الـدجى بــــي عمـرد ... أقَب الحشا عبلُ الشوى جرشُـع نَهـد
سريع الخُطى لا يدرك الطـرفُ لونَـه ... إذا شاء شَدا كان طَوعــًا لـه الـشد
فلو أنـه والبـرقُ يومـا تَـسابقــا ... لَقَدمه مشْيـًا وخَلَفَـــه بعــــد
جواد جـــواد لا يــــرد عِنانَـه ... إذا انهزمتْ بالصيدِ يوم الوغى الجـرد

---

[1] من شعراء اليتيمة، كان من صدور البصرة في الأدب والشعر، توفي سنة (٣٨٥هـ). انظر: يتيمة الدهر ٣٤٠/٢.

[2] أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم التنوخي الأنطاكي، كان عالما بأصول المعتزلة والنجوم، ومن أعيان أهل العلم والأدب، توفي سنة (٣٤٢هـ). انظر: يتيمة الدهر ٣١٨/٢، وفيات الأعيان ٣٦٦/٣، معجم الأدباء ١٨٧٢/٤

[3] أبو علي المحسن بن علي بن أبي الفهم، كان أديبا شاعرا، توفي سنة (٣٨٤هـ). انظـر: يتيمـة الـدهر ٣٤٦/٢، وفيات الأعيان ٤٤٥/١، النجوم الزاهرة ١٦٨/٤، شذرات الذهب ١١٢/٣.

[4] ديوان العقيلي، ج١، ص ١١٦-١١٧.

ولي صاحب ماضِـي الفِـرار مخَـدم | صقيلٌ بهِ تُزهى على العــربِ الهنْـد
يظل إلى خَلْـفِ الطـلا متَطَلعـــــًا | كذي ظَمأٍ حيـران لاح لـــه ورد
وأي فَتًى لاقـــاه للحيـــن حـده | ثناه وأشداقُ الوحـــوشِ لـه لَحـد
تَقَلدتُـــه والليــلُ داجٍ رواقُـه | وقد ضمه ما بـين أحـشائـهِ الغِمـد

فمن شدة ولعه بهذه الخمارة، يمتطي إليها جوادا سريعا يسبق البرق، ويتقلّد سيفًا هنـديا صقيلاً. وثمة – في القصيدة نفسها – حوار جميل بينه وبين الخمارة، يقول فيه:

فوافيقتُها وهنًا فقالـتْ: مـن الفتـى | فقد نالَ منـك الـسير لا شـك والكَـد
فقلتُ لها: قِـرم همـام غَـضنفَـر | تكاملَ فيـهِ البـأس والجـود والمجـد
صبور على الأهوال كهفٌ لمـن لجـا | إليـهِ وعضب لـيس ينبـو لـه حـد
فقالتْ: وما تبغـي؟ فقلـتُ: مدامـةٌ | تُشَتـتُ شـملَ الهـم أولَ مـا تبـدو
وجاءتْ بهـا راحـًا كـأن إناهـا | إذا مـــا تَبـدى درةٌ حـشْوها ورد
لهـا حبــب لمـا أُريقَــتْ كأنـه | مِن الـدر طَـوقٌ للزجاجـةِ أو عِقْـد
وإن مزجـتْ لاحـتْ كَوجنَـةِ عاشـقٍ | وفاحــتْ لنا مِـسكًا يخالِطُـه نَـد
وجـاءتْ بممـشوقِ القـدامِ رضـيتُه | نـديما، إذا دارتْ أباريقُنـا، يـشْدو

فلهذه الخمر، بما تتماز به من صفات، مكانة أثيرة، وهذه المكانة تفرض على شاربها أن يكون فتًى قويا، تجتمع فيه صفات الجود والمجد. وله قصيدة شبيهة بهذه القصيدة، يصف فيهـا إسراعه إلى خمار في الليل، وقد سار إليه على ناقة سريعة. وفي القصيدة أيـضا، حـوار مـع الخمار؛ إذ يسأله الخمار عن نفسه وعن مبتغاه، فيجيب العقيلي بأنه ضيف كريم يبتغي الراحـة بالخمر، فأجابه الخمار إلى طلبه، وقدم له الخمر غلام أهيف غض، يقول[1]:

وخمـارٍ دخلـتُ عليـــهِ لـيلاً | وجـنْح الليـل مـسود الجنــاح
علـى هوجـاء تنـشر فِـي الفيـافي | لُغامـا فِـي الغُـدو وفِـي الـرواحِ
إذا وخَـدتْ تخـالُ الـريح تحتـي | وإن كانـتْ تُخـالُ مِـن الريـاحِ

ويلحظ، في ما تقدم، أن العقيلي استعار من القصيدة الجاهلية رحلة الصحراء؛ إذ كـان الشاعر الجاهلي يركب ناقة تتّصف بالقوة والسرعة؛ ليصل بها إلى ممدوحه أو محبوبتـه، أمـا العقيلي، فيركبها ليصل بها إلى معاقرة الخمر، ما يدلّ على عظم مكانة الخمر عنده.

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص ٩٨.

فقالَ: مـن الفتـى ؟ فأجبـتُ: ضـيفٌ تـسربلَ بالمكـارمِ والـسماحِ
فقالَ: ومـا تريـد، فَـدتْك روحـي؟ فقلـتُ لـه: أرح روحـي بـراحِ
فقـام إلـى دنـانٍ مترعـاتٍ معممـةٍ بكافـورٍ رباحـي
وفَـض ختـام أقدمِهـا فلاحـتْ علـى الظلمـاءِ أنـوار الـصباحِ
وأبرز منـه فـي الإبريـق راحـا أَلَـذ إلـى الأسـير مِـن الـسراحِ
كـأن حبابهـا طَـل تبـدى علـى وردٍ جنـي فـي أقـاحِ
وجـاء بـأهيفٍ عـذْبِ الثنايـا دقيـق الخَـصر غرثـان الوشـاحِ
تـراه يتيـه مِـن أدبٍ وظَـرفٍ ومِـن عجـبٍ علـى الغيـدِ المِـلاحِ
يقـولُ إذا رآه كـل لاحٍ مجِبـك مـا عليـهِ مـن جنـاحِ

فهو فتًى ذو خُلق كريم، يطلب الخمر، فتُقدم إليه معتّقة، لذيذة، ما إن يفض ختامها حتى تنشر في الظلماء أنوار الصباح.

وبذا، يظهر أن العقيلي اتّبع في قصيدته الأسلوب القصصي السردي الذي يقـوم علـى السؤال والجواب، ما يجعل القارئ أو المستمع يستوحي تلك الصورة في مخيلته وكأنها حاضرة أمامه.

وكأن الإسراع إلى الخمارات بالخيل أو الأبل، أصبح مقدمة لخمريات العقيلي؛ إذ يصف في قصيدة ثالثة مشابهة إسراعه إلى خمار ممتطيا جوادا قويا، فأجابه الخمار وقد بزغ الفجـر، إلى مبتغاه، وجاءه بخمر معتّقة ممزوجة مضافًا إليها البهار، يقول مستخدما الأسلوب القصـصي نفسه[1]:

ألا رب خَمارٍ طرقـتُ تَعـسفـًا علـى جرشُعٍ سامي التليـل عمـردِ
وقد لاح لألاء الـصبـاحِ كـصارمٍ علـى قِمةِ الليـل البهيـمِ مجـردِ
فقـام وقـد أقْلَقْتُـه مـن منامِـهِ إلى البـابِ يمشي كالأسيـر المقَيـدِ
ينادي من الـساري إلـي ومزعِجـي؟ فقلـتُ: جـَواد ذو محـل وسـؤْددِ
حسام علـى الأعـداءِ مـاضٍ غِـراره ومِلْـك لـدى ذي الخُلـةِ المتَـوددِ
أَتَيتُك أطـوي الأرض شـرقًا ومغربـا على ضامر الأحشـاءِ كالبرق أجـردِ
فقالَ: وما تَبغـي؟ فقلـتُ: مدامـةٌ تُشَتتُ شَملَ الهـم عن كـل مكْمـدِ

فهو شجاع يمتطي جوادا قويا، يتجشم عناء السفر طاويا الأرض شرقـًا وغربـا، لا لشيء إلا لأنه يطلب خمرا تُشتت الهم، وتُذهب الحزن، وهي فوق ذلك:

[1] ديوان العقيلي، ج١، ص ١١٣-١١٤.

فقالَ: نعم عنـدي سلافـــةُ كرمـةٍ كوجنَةِ معشـوق الـشمائـل أغْيَـدِ
وأبرزها عذراء أحلـى مِـن المنـى كشمس الضحى أو كاللظـى المتَوقـدِ
إذا مزجتْ أبـدتْ حبابــًا كأنّـه مِن الدر طَوقٌ في غِلالـةِ عـسجـدِ
فَسِرتُ بها وهـي الحيـاةُ لروضـةٍ تروح عليها الغاديـاتُ وتَغْتَـدي
كأن البهار الغَـض فيهـا مـداهِن مِن التبر صيغَتْ فـي غصون زبرجـدِ
كأن انتشار القَطْـر والزهـر زاهِـر على الوردِ دمـع فوقَ خَـد مـوردِ
وتُزهى بِمنْثـورٍ يلـوح كجوهــر على نَمطٍ بيـن الرياض مبــددِ
وأطيارهـا تُغْنِـي النـديم إذا شَـدتْ على الأيكِ عـن شَدو الغَريض ومعبـدِ
ونَرجِـسها بـين الـشقائق شـاخِص يردد لَحـــظَ المستَهـامِ المـسهدِ

ولما كانت هذه الخمر تجمع تلك الصفات، وبذل لأجل الحصول عليها كلّ ذلك الجهـد، فإنه لا بد له أن يحتسيها حتى الثمالة، يقول:

فما زلْـتُ بـالإبريق أقـبض روحهـا مِن الدن ما بين الربــى يتَمـــردِ
وأشـربها حتـى انْثَنَيـتُ مجــدلاً صريعا على شَدو الحمــامِ المغَـردِ

إنها خمر تحوي صفات حميدة عدة، تستأهل أن يكون شاربها جوادا ذا محـلّ وسـؤدد، قويا شجاعا مهابا.

ويلحظ في ما سلف من قصائد قالها العقيلي في الخمر، أن هذه الخمـر كانـت وسـيلة الشاعر إلى تشتيت الهم الذي يعانيه، وطريقته الفضلى إلى إراحة الروح، فهي إذن المتنفّس الذي ينفث فيه المرء همومه، ويتخلّص بوساطته من ضنك الحياة، ما يدعونا إلى القـول إن العقيلـي واحد من أولئك الذين تكالبت عليهم هموم الحياة، وأحاطت بهم مصاعبها. غير أن قراءة عجلـى في سيرة حياة العقيلي تُنبئنا بأنه كان واسع الرزق، وأنه كان يمتّع نفسه في رياضه أيما متعـة، وهذا ما تؤكّده قصائده التي وصف فيها الرياض، وألوان الطعام والشراب، فلعلّ العقيلي –إذن- كان في وصفه الخمر على هذا النحو، مقلّدا؛ إذ إنه رغب في أن يتّبع سنّة سار عليهـا شـعراء عصره، فنظم شعره في الخمر على هذه الشاكلة.

ولقد كان العقيلي يقع صريع الخمر، فكأنها ثأرت للعنب منه، وكان يلتهم الخمـر فـي دنانها، من غير أن يجد من يعذله سوى الساقي وهو فتى غر، يقول[1]:

ومستَهامٍ بِـشُربِ الـــراح باكرهـا عذراء في جيدِها طَـوقٌ مِـن الـذهبِ

---

[1] ديوان العقيلي، ج١، ص ٥٢.

فغادرتْه صـريعا لا انقيــاد لـــه — كأنمــا أخَــــذَتْ بالثــأر للعِنَــبِ
واستأسرتْ عقلَه حينًـا كمـا أُسِـرتْ — في دنها حِقَبا مــن غيـر مـا سـببِ
فحين أضـحى طليقًـا أعقَبَتْـه علـى — ما كان فيهِ مِــن الأفـراح واللعـبِ
داء تقـوم مقـام الأســـر سـورتُه — دواؤه عود مـا قد كـان مِـن طَـربِ
فقـام يذهب ذاك الــداء عنـه بهـا — ما بين زهرٍ كيـاقوتٍ علـى القُـضبِ
وظــل يــشـرب درا تَحتَـه ذَهـب — رطْب على دررٍ يبـسِمن عـن ذَهـبِ
وليس يعذِلُه فِـي الـراح غيـر فَتًـى — غِرٍ يغَـدر صروفِ الـدهر والنـوبِ

والخندريس اسم من أسماء الخمر اشتهر في هذا القرن، وأجودها ما كـان معتّقًـا مـن زمن، وهي حين تُصب كأن لها روحا وجسدا، يقول العقيلي[١]:

وعِنْدنا خندريس فِـي الـدنان لهـــا — من قبلُ أن تُعرفَ الأزمـان والحقَـب
عذراء لم تَسم هِمـاتُ الخُطـوبِ لهـا — ولا تَخَطَـــتْ بسوءٍ نحوهـا النـوب
الماء من قبلُ أصـلٌ فـي تَجـسمِهـا — والشمس والظـل والأهـواء والعِنَـب
تكاد من لُطْفِهـا تَخْفـى إذا انـسكبـتْ — عن الذي هِي فيــــهِ حـين تَنْـسكِب
كأنها وهي فـي كـأس المديــر لهـا — روح وجسم، فـذا نــور، وذا لَهـب
يشَتتُ الهـم والأحـزان منظرهـــا — عن كل صب براه الهــم والوصـب
تلوح إن مزجـتْ كالــــوردِ بـاكره — طَل إذا طَلّها فـي كأسِهــــا الحبـب

والدستيجة والبلسقية، من أسماء آنية الخمر في القرن الخامس الهجري، ذكرهما العقيلي؛ إذ يقول[٢]:

لــك عنــدي دســتيجه مختومــــه — وبلْــسقيةٌ لهـــا ألـــــفُ قيمـــه
مِـــن كُـــرومٍ كريمـــةٍ ومحـــالٌ — أن تكـــون الكُـــروم إلاّ كريمــــه
وكُـــؤوس منهـــا النحيفـــةُ تُجلَــى — بأكاليلهـــا ومنهــــــا الجـــسيمه

وقد يسمى إناء الخمر إبريقًا؛ إذ يقول العقيلي واصفًا خمرة صافية تجعل ظلمة الليل ضياء[٣]:

وصـــافيةٍ لهـــا حبـــب تـــراه — فتَحـــسبه علـــى الإبريـــق تاجـــا
إذا الخَمـــار عـــاج بهـــا علينـــا — أعـــادتْ آبنـــوس الليـــل عاجـــا

وكذا كان للخمر طاسات، كان يحلو للعقيلي فَتْحها بين أغصان تهتز كأنهـا حلـل مـن حرير، يقول[٤]:

---
(1) ديوان العقيلي، ج١، ص ٦٢-٦٣
(2) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٦٠
(3) المصدر نفسه، ج١، ص ٩٢.
(4) المصدر نفسه، ج١، ص ٨١.

قُـم نَـصطَبِح بأبـاريقٍ وطاسـاتِ ... بِكْـرا تُفَـتح أبـواب المـسراتِ
وانْعم بهـا بـين أغـصانٍ معاطِفُهـا ... تَهتَـز فـي حِبـراتٍ سنْدِسِـياتِ

ولقد شاع في هذا القرن آلة تسمى المِبزل، وهي من البزل؛ أي ثقب الزقّ لإخراج مـا فيه من الخمر، يقول العقيلي(١):

راح إذا جلِيـتْ فِـي الليـل معتكِـرا ... أَعادتِ الليـلَ صـبحا حـين تَنْـسكِب
تكـاد منهـا يـد الـساقي إذا بزلَـتْ ... لولا المِـزاج مِـن الأنـوار تلتهـب

والكؤوس الزجاجية، من آنية الخمر التي كانت شائعة، يقول العقيلي(٢):

وقَهـوةٍ كَخَلُـوقٍ ... يفْتَـر عـن كـافور
كأنهـا حـين تُجلَـى ... فـي أكْـؤُسِ البِلـور
جـسوم نـارٍ عليهـا ... غَلائِـلٌ مِـن نَـور

وكذا، شُربت الخمر بأقداح وقنانٍ كانت تقدّم للشاربين على صوانٍ، يقول(٣):

عنـدي سـماواتٌ مِـن الـصواني ... نجومهـا الأقـداح والقنـاني
وطَلْعـةٌ كأوبـةِ الأمـان ... وأَوجـه مِـن نَـرجِسٍ ريـان
أعينُـه فِـضيـةُ الأجفـان ... كَمِثْـل كـافورٍ وزعفـران
وغـادةٌ مِـن حاجـةِ الأمـاني ... مليحـةٌ مليحـةُ الأغانـي

والجامة قدح للخمر من الفضة، ذكره العقيلي في قصيدة تغزل بهـا بالـساقي كـالظبي ينسدل شعره على خديه، يقول(٤):

وظبـي مـن شَـرى مِنـه وِصـالاً ... بِنَقْـدِ خُـضوعِهِ أمِـن الخَـساره
كـأن الـصدغَ فـوقَ الخـد منـه ... بنَفـسجةٌ تعانـقُ جلنـاره
سـقاني جامـةً مزجـتْ فكانـتْ ... فواقِعهـا كَطَـل فـي بهـاره
فـصار العـيشُ حلْـوا فـي لَهـاتي ... كأنّـي لـم أذُقْ منـه مـراره

ولقد تنوعت أوصاف الخمر عند العقيلي على نحو يشي بأنه كان رجلاً ذا ذوق عـالٍ، وخبرة رفيعة في أنواع الخمور؛ يقول(٥):

سقنيهـا مدامـةً ... تُـذْهِب الهـم والكمـد
بِنـتُ كَـرمٍ كأنهـا ... وهـي فِـي الكـأسِ تَتقِـد
ذَهـب ذاب فـي إنـا ... ءٍ مِـن المـاءِ قـد جمـد

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص ٥٣.
(2) المصدر نفسه، ج١، ص ١٧١.
(3) المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٨١.
(4) المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٦
(5) المصدر نفسه، ج١، ص ١٠٧.

دمهـا حـين يخـرج الـمـاء أحـشاءها بـرد

فهي في اتّقادها في الكأس مثل الذهب المذاب.

ويصف الخمر بشدة الصفاء، حتى كأن إبريقها يبدو فارغًا، فيقول[1]:

ومدامـةٍ يبـدو إليـك جنينُهـا وعليـه تـاج لـم يـصغْه صـائِغُ

راح لها مِـن ريحِهـا الـشرك الـذي لـولاه لـم يـصدِ الـسرور الرائِـغُ

تَخْفـى لِفَـرطِ صـفائِها فكأنمـا إبريقُهـا المـلآن منهـا فـارغُ

ويصورها وقد تطاير منها شرر لشدة إحمرارها، فيقول [2]:

ويكْـرٍ تطـوفُ بِيكْـرٍ لهـا عقـود تُـزف بهـا فِـي البكـر

عقـار تـرى حُمـر نيرانِهـا تُطَير فِـي الكـأسِ منهـا الـشرر

أَلَـذ مِـن البـرءِ بعـد الـضنى وأشـهى مِـن الغُمـضِ بعـد الـسهر

وكثرت أوصاف الخمر في شعر عبد المحسن الصوري، واقترنت بعض هذه الأوصاف بذكر آنية الخمر، واقترن بعضها الآخر بالتغزل بالساقي، يقول في خمر صفراء قـدمها سـاقٍ جميل الوجه[3]:

ومدامـةٍ صـفراء مـد شعاعهـا فرأيـتُ كُـلاً فـي قمـيصِ أصـفَرِ

شـقراء تَجمـع فـي أواخـر جريهـا مرحـا فكـم مِـن راكِـبٍ متَقَطـر

الـراح رائحـةٌ بِلَيـلِ مـشْمِسٍ ومـديرها غـادٍ بـصبـحٍ مقْمِـر

وله في خمر حمراء مغرقة في العتق، تعاطاها لينسى همه[4]:

وحمـراء كـالِمريخِ لونًـا وقِدمـةً أتَتْ عينُها لمـا مـضـى عربونُهـا

فجاء بها القِـسيس يوصـي بِـصونِها وما أبتغي ما كنـتُ مِمـن يـصونُها

لها حبـب ينْبيك عـن طـول عمرهـا ألستَ تراها كيـفَ شـابتْ قُرونُهـا

أقولُ لِساقيهـا علـى الظـن إنّهـا تدور وقد رقـتْ فمـا أَسـتَبينُها

ألا عدها عنّـي حيـاء فـإنني أراها ترانـي والحبـاب عيونُهـا

يلَقحهـا الـشاوي وإن لـم يمـسها فَينْشو سـرورا فِـي النفـوسِ جنينُهـا

طَرقْتُ بها دار الهمـومِ وكيـفَ لـي هي الأرض جمعـا أو تكـاد تكونُهـا

ولكننـي أحبـو عقـولاً يـشْربهـا فَتَنْسى نفوس كيـفَ تجـري شـؤونُها

---

[1] ديوان العقيلي، ج٢، ص ٢٠٣.
[2] المصدر نفسه، ج١، ص ١٧٤.
[3] ديوان الصوري، ج١، ص ٢٠٠.
[4] المصدر نفسه، ج٢، ص ٤٧.

فهي خمر تشبه كوكب المريخ في لونها الأحمر، كما تشبهه في قدمها؛ إذ إنها ممتدة في العمر زمنًا طويلاً، وهي – فضلاً عن ذلك- تطرد الهموم، وتجلب السرور، ما يجعلها تـستحقّ أن تُصان.

ويطلب من ساقييه أن يسكبا له الخمر الحمراء في قدح أبيض، ويحذرهما عند مزجهمـا الخمر بالماء من مغبة ما ترميه من شرر كالشهب، فيقول[١]:

واسقيا في حمـراء كالنـار فـي أبـ ـ ـيض كـالنور مِـن جمـادٍ وسـكْبِ
وإذا مـ ـ ـا مزجتماهـا احـذراها فهـي ترمـي مِـن الحبـابِ بِـشُهبِ

والصوري يحن كثيرا إلى الخمر في شهر رمضان، الذي تمتنع عن تعاطيها فيـه أمـة الإسلام، في حين تظلّ أمم أخرى تعاطاها، ولكنها تستجير بشهر شوال الذي يصوره متعثرا من سرعة مقدمه، يقول[٢]:

وقَهوةٍ قـام شـهر الـصومِ يطردهـا عن مِلةٍ فانْـضوتْ منهـا إلـى مِلَـل
حتـى اسـتجارتْ بـشوالٍ فأنجـدها وكـاد يعثُـر شـوالٌ مِـن العجـل

وقرن الصوري الخمر بالساقي؛ فهي قد أخذت مذاقها الجميل ولونها منه، وعندما حـرم هذا الساقي على نفسه صبها، حرمها الصوري على نفسه، ثم عاد وأحلّها عندما أحلّها الـساقي، يقول[٣]:

وكأسٍ عليها مسحةٌ مِـ ـ ـن مـديرها مذاقـ ـ ـًا وتـشبيها بِريـقٍ ووجنَـةِ
إذا عب فيهـ ـ ـا قابلَتْـ ـه تَـصفحـًا فَصح لها مِـن وجهـهِ مـا اسـتَمَلتِ
وقد كان قبل اليـومِ حـ ـرم وصـلَها فَحرمتُهـ ـ ـ ـا والآن حـ ـل فَحلـ ـتِ
فهاتِ اسقنيها وانـسني النـاس أنْـسهم إذا اقْتَطَعتْنـ ـي نَـشوةٌ بعـ ـد نـشوةِ

وللأبيوردي نظم كثير في صفة الخمر، وفي آنيتها، وساقيها، فهي عنده طـارده اللهـم، تجلو بضوئها الليل، وكأن الحباب على الكأس بعد أن تُمزج لآلئ مغروسة في الـذهب، تـذهب بالأبصار، يقول[٤]:

الخَمـ ـر مـ ـا أكْـ ـرم أكفاءهـ ـ ـ ـا فَأبعِـ ـ ـ ـدِ الهـ ـ ـ ـم بِإدنائِهـ ـ ـا
وهاتِهـ ـا قَالـ ـديك مـ ـستَيقِـ ـ ـظٌ والـ ـشهب قَـ ـد همـ ـ ـتْ بِإغْفائِهـ ـا
والليـ ـ ـ ـلُ إن وآرتْـ ـك ظَلْمـ ـاؤه قَـ ـالراح تَجلـ ـ ـ ـوه بِأَضـ ـوائِها
تَـ ـرى علـ ـى الكـ ـأس إذا صـ ـفقَتْ والحبـ ـب الطّافـ ـ ـ ـي بأرجائِهـ ـا

---

(1) ديوان الصوري، ج١، ص ٦٩.
(2) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٨٠.
(3) المصدر نفسه، ج١، ص ٧٦.
(4) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٣٤-١٣٥.

لآلئـــ ـًا فِـــ ـــي التبـــر مغْروســـةً   تَـــستَوقِـــفُ العيـــ ـــن بِلألائِهـــا
فَهـــي دواء الـــنفس فـــي شُـــربِها   مـــا تَـــشْتَهيهِ، وهـــي مِـــن دائِهـــا

فالخمر تبعد الهم، وتكشف الغم، وهذا معنًى يكاد يكون مشتركـًا لدى الشعراء؛ إذ عدها العقيلي كذلك، وكذا فعل الصوري، والأبيوردي، وغيرهم.

والخمر تزداد طيبا متى ما خُزنت في الزقّ القديم (ذي الرقاع)، وهي بهذه الصفة تجعل شاربها ذاهب العقل، إذا صحا عاد له بكاء من غير انتخاب، فتناول السربال، وهو الدن، مـرة ثانية، يقول الأبيوري[١]:

مولـــ ـــه كنَزِيـــفٍ بـــز ثَروتُـــه   بِـذي رِقـاعٍ لِـصفْوِ الـراحِ مجـاجِ
إذا صـــحا عاودتْـــه نَـــشْوةٌ فَثَنـــى   يـدا علـى أسـحمِ الـسربالِ نَـشّاجِ

وقرن الأبيوردي الخمر بالساقي غير مرة؛ إذ ذكر ساقيا جميلاً استأثر بالحـسن كلّـه، جاءه بكأس خمر كأنها الذهب الذائب، وكأن ما يعلو الكأس من الحباب فضة، يقول[٢]:

وأَغْيـد يحـوِي وجهـه الحـسن كُلّـه   وينْكِـــ ـــر أَن البـدر فيـهِ شَـريكُه
أتاني وفـي يمنـاه كـــأس كأنّهـا   مِـن التبـر يعلـى بِـاللجين سـبيكُه

وفدى ساقيا بأبيه؛ فهو ذو وجه صبوح وشعر أسود، قمر وكأس الخمر في يـده كأنهـا الشمس، تتراقص الحباب عليها طربا[٣]:

بأبـــ ـــي ريـــم تَـــبلج لـــي   عـــن رضـــى فـــي طَيـــهِ غَـــضب
وأرانـــ ـــي صبـــ ـــح وجنَتِـــ ـــهِ   بِظَـــ ـــلامِ الـــصدغ ينْتَقِـــ ـــب
وســـ ـــقى بالكـــ ـــأسِ مترعـــ ـــةً   كَـــضِـــرامِ النّـــ ـــارِ تَلْتَهـــ ـــب
فَهـــي شـــمس بِيـــدي قَمـــرٍ   وكِـــلا عِقْديهمـــ ـــا الـــشهب
ولهـــا مِـــن ذاتهـــ ـــا طَـــرب   فِلهـــذا يرقُـــ ـــص الحبـــ ـــب

أما ابن الخياط الدمشقي، فشبـه خمرا صفراء بالنار ذات اللهب، بيد أنها لا تحـرق، يقول[٤]:

يـــا حـــسنَها صـــفراء ذاتَ تَلَهـــبٍ   كالنّـــارِ إلاّ أَنهـــ ـــا لا تَلْفَـــ ـــح
عاطَيتَنيهـــا والمـــزاج يروضـــها   وكأنهـا فِـي الكـأسِ طِـرفٌ يجمـع
وتَـــضوعـــتْ مِـــسكِيةً فكأنهـــا   مِن نَـشْرِ عِرضِـك أو ثنائِـك تَـنْفَح

---

(1) ديوان الصوري، ج١، ص ٢٩٥.
(2) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٧-٣٨.
(3) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٢١.
(4) ديوان ابن الخياط، ص ١٣٢. وانظر: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص ٢٢٠

ويختلط عشق الخمر بعشق الساقي عند ابن الخياط، يقول[(١)]:

قُلْــتُ للــساقي وقـــد طـــافَ بهـــا | قَهــوةً مـــصبوغَةً مِـــن وجنَتَيـــهِ
أَتُـــــرى مِـــن دنـــهِ أَتْرعهـــا | أَم تُـــرى أَتْرعهـــــا مِـــن مقْلَتَيـــهِ
أَم تُـــــراه شـــاربا مِـــن ريقِـــهِ | ضِعفَ مــا يــشْرب قَــوم مِــن يديــهِ
فـــــأَرى أَعطافَـــــه شـــاهِدةً | أَنــه قَــد جــارتِ الكــــأس علَيــهِ
مــن يكُــن هــام مِــن الوجــدِ بــهِ | فَلَقَــد ذُبــتُ مِــن الــشــوق إليــهِ

وقال أبو يعلى ابن الهبارية في وصف ساقٍ [(٢)]:

جهـــرتُ وقلـــتُ للـــساقي: أَدِرهـــــا | فقـــد عـــزم الظـــلام علـــى الزيـــال
وقد ثَمِلَـــتْ غـــصون البـــان سكـــرا | وغَنّـــى الطّيـــر حـــالاً بعـــــد حـــال
وطـــاب الوقـــتُ، فَازفُفْهـــا عروســـا | تريـــد صِـــبا علـــى هـــرمِ الليـــالي
ســـقانيها هـــضيم الكَـــشْحِ طَفْــــــلٌ | رخـــيم الحـــسن محبـــوب الـــدلال
أَغَـــن، مهفهـــفُ الأعطـــافِ، يثنـــي | عقـــولَ النـــاسِ طُـــــرا فـــي عِقـــال
على شـــكوى هـــوى ونـــوى ووجـــدٍ | وتجمـــيشٍ وميـــلٍ واعتـــــــدال
شـــربتُ مـــع الغزالـــةِ والغــــزال | جِهـــارا قهـــوةً كَـــدمِ الغــــزال

فهو يطلب الخمر في آخر الليل، فيقدمها إليه ساقٍ ضامر ما بين الخاصرة والـضلوع، ناعم رقيق، حلو منطقه، في صوته غُنّة.

وللشيخ أبي نصر الحسن بن أسد الفارقي [(٣)] في ساقٍ عمره أربع عشرة سنة يدير عليه الخمر في أوقات مفعمة بالفرح والسعادة [(٤)]:

ووقْتٍ غَنِمنـــاه مـــن الـــدهر مـــسعِدٍ | معـــارٍ وأوقـــاتُ الـــسرور عـــواري
معانيـــــهِ ممـــا نبتَغيـــهِ جميعهـــا | كـــواسٍ وممـــا لا نريـــد عـــواري
أدار علينا الكـــأس فيـــهِ ابـــن أربـــعٍ | وعـــشْرٍ، لـــه بالكـــأسِ أَي مـــدار
تناولهـــا منـــــه يكَـــــــف كأنّمـــا | أناملُهـــا تحـــتَ الزجـــاجِ مـــداري

(1) ديوان ابن الخياط، ص ٢٩٩. وانظر: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص ٢٢٢-٢٢٣

(2) خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص ١٣٨-١٣٩.

(3) أبو نصر الحسن بن أسد بن الحسن الفارقي. والفارقي نسبة إلى ميافارقين من مدن الجزيرة المشهورة، وهو حسن القول، بليغ اللفظ، بديع المعنى، كان زمان نظام الملك الوزير وملكشاه السلطان. قتل بحران سنة (٤٨٧هـ) انظر: خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ٤١٦/٢، معجم الأدباء ٥٤/٨، بغية الوعاة ٢١٨، شذرات الذهب ٣٨/٣.

(4) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص ٤١٩.

وصور أبو القاسم، الحسن بن عبد ا الفراء، كأس خمر، قائلاً(١):

وكأسٍ كلَّـون الأرجـوان شَربتُهـا	علـى رغـمِ لاحٍ أو عـذولٍ مفنّـدِ
إذا هي شُجتْ جَلْـتَ عكـس شُـعاعِها	تَلَألُـؤَ بـرقٍ فـي سـحابٍ منَـضدِ
كأن حباب المـاءِ فـوقَ مِزاجهـا	شـآبيب دمـعٍ فـوقَ خَـد مـوردِ
سقاني بهـا ظَبـي كـأن بنانَـه	أنابيـب در قـد أُحِطْـن بعسجدِ

فحباب الماء على هذه الكأس ممزوجة بقطرات من الدموع فوق خد وردي، وقد سقاه الكأس ساقٍ رشيق كأن أصابعه أنابيب من الدر المحاط بالعسجد.

ويدعو أبو مسلم الشيرازي إلى معاقرة الخمر؛ فالدنيا لا تستحقّ أن تُرصد فيها الأخطاء. لذا، تسعده الخمر الصفراء الممزوجة إذ يديرها ساقٍ جميل ذو دلال، يقول(٢):

اشرب على طَربٍ صـهباء يرقِـصها ... در الحبـابٍ جلاهـا فاتِـن غَـزلُ
ولا تُر الدهـر إلا شاربـًا ثَمِـلاً ... فالدهر أحقَـر أن يحـصى لـه زلَـلُ

ويستذكر محمد السرخسي ابن كلثوم صاحب المعلّقة، في وصفه خمرا صفراء يدور بها ساقٍ حسن الوجه، وكأن جمال خديه قد ارتد في القدح(٣):

مشعـشعةً صـفراء كـالحص مثلمـا ... يقولُ ابـن كلثـوم لنـا فـي ألا هبـي
يـدور بهـا سـاقٍ ملـيح كأنّمـا ... سنا وجنَتيـهِ قـد تنـاثر فِـي القَعـبِ

ويرفض القاضي المرتضى عذل العذّال في شرب الخمر، ويتمنّى خمرا حمراء تتراقص فرحا، وهي معتّقة لم يسبقه إليها أحد، ولو فُتحت في ظلماء الليل لبددت ظلمته، يقول(٤):

يـا نـديمي قـربِ القَـدحا ... إن سـكْر القـومِ قـد طَفَحـا
اسقِنيهـا مِـن معادِنهـا ... ودعِ العـذّالَ والنـصحا
قَهـوةً حمـرا مشَعـشَعةً ... رقَـصتُ فـي كأسِهـا فَرحـا
لـم تُـدنس بـالمزاجِ ولـو ... بزلَـتْ فِـي الليـل عـاد ضحى
والـذي كانـتْ تـراوده ... نفـسه بالـشح قـد سـمحا
كـان مـستورا فحـين دنـا ... كأسـها فـي كفـهِ افتُـضِحا

ويصف صردر خمرا معتّقة فُتح دنها، فكأنها الذهب المرصـع بالعـسجد الإبريـز؛ أي بالجوهر الخالص، يقول(٥):

---

(1) دمية القصر، ج٢، ص ٤٧٨.
(2) المصدر نفسه، ج١، ص ٣٣٨.
(3) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٥٩.
(4) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص ٣٢٠.
(5) ديوان صردر، ص ١٥٣.

وســـلافةٍ برزَتْ فأبرز دنهـــا ذَهبـــا يرصـــع عســجدا إبريـــزا
خَيْـــر النـــدامى فِعلُهـــا فـــإذا بـــهِ كالمـــال يرجِـــع بالـــذّليل عزيـــزا
فتناهبوهـــا غيـــر شَـــك، إنهـــم وجـــدوا بهـــا مِـــلْء الـــدنان كُنـــوزا

وفي خمر حمراء يجلب لقاؤها السرور، ويورث فراقها الحزن والبكاء، يقول أبو طاهر البغدادي ذاكرا أحد آنية الخمر وهو الراووق[١]:

ومدامةٍ كَـدمِ الـذّبيح، سخابهــــا للـشـــربِ مِـــن لَهواتـــهِ الإبريـــقُ
رقتْ، فَراقَ بها الـسرور، ولـم تَـزلْ نُطَفُ الـسرور تَـرق حـين تـروقُ
حتـــى إذا اضحك الزجـــاج لِقُربهـــا منـــه، بكـــى لِفُراقِهـــا الـــراووقُ[٢]

ويعاقر الملك الأجل تقي الدين عمر بن شاهنشاه خمرا صفراء كأنها الذهب المذاب، وقد بالغ في وصف قِدمها فهي معتّقة جدا منذ أيام آدم، يقول[٣]:

هـــاتِ اســـقِني قَهـــوةً مشَعـــشَعةً فـــي كأسِـــها ذائِـــب مِـــن الـــذهبِ
إن ناسبوهـــــا كيمـــــا تُجيـــــبهم قالَـــتْ: ســـلُوا آدمـــا عـــن النـــسبِ

وتكتسب قِداح الخمر ألوان الخمر، فتارة تبدو ذهبية، وتارة تبدو فضية، وفي هذا إشارة إلى أنها أقداح بلورية شفافة، يقول أبو محمد علي بن الأزهر عمرو بن حسان في هذا المعنى[٤]:

وَأفُـــض اوعيـــةَ المـــدامِ وَأجتلـــي ألـــوانَهن مـــذَهبا ومفَضـــضا

والبراني[5] من آنية الخمر التي شاعت في القرن الخامس الهجري، وقد ذكرها صردر قائلاً[٦]:

قَتِلْـــك بـــرانِ أم مخـــازِن جـــوهرٍ حشِين فَريـدات مـن العنْبـر الـوردِ؟
إذا قَلبـــتْهن الأكُـــف تَعجبـــــا تَوهمهـــا الـــراؤون تَلْعـــب بـــالنردِ

وترسم ابن مكنسة الإسكندري صورة غاية في الجمال؛ إذ يصور إبريق الخمر، الـذي تُدار منه الخمر في القدح، بالأم التي ترضع ولدها، أو بعابد مجوس تخيل القدم شعلة نار، فسجد لها[٧]:

إبريقُنـــا عـــاكفٌ علـــــى قَـــدحٍ كأنـــــه الأم تُرضِـــــع الولَـــــدا

---

(1) خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص٢٢٠-٢٢١
(2) الراووق : الباطية، إناء الخمر. لسان العرب، مادة (روق).
(3) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص ٨٨.
(4) دمية القصر، ج١، ص ٩٠
(5) جمع برنية، وهي وعاء من خزف. لسان العرب، مادة (برن)
(6) ديوان صردر، ص٢١٥
(7) غرائب التنبيهات، ص ١٣٧

أو عابِد من بني المجوسِ إذا ... تَوهم الكأس شُعلةً سجدا

ووصف ابن أبي حصينة خمرا حمراء مشعة تعاطاها في حناك[1]، وفي حاس[2]، وهي رقيقة زرجونة (الكرم) يحار ناظرها فيها: أهي في الكأس أم أن الكأس من أصلها، يقول[3]:

أيام قُلْتُ لذي المودة سقني ... من خَنْدريس حناكِها أو حاسِها
حمراء تُغْنينا بِساطِع نُورِها ... في الليلةِ الظلماءِ عن نبراسِها
وكأنّما حبب المِزاجِ إذا طفا ... در تَرصع في جوانِب طاسِها
رقتْ فما أدري أكأس زجاجِها ... في جِسمِها أم جِسمها في كاسِها
وكأنّما زرجونةٌ جاءتْ بِها ... سقِيتْ مذاب التبر عند غِراسِها
فأتتْ مشعشعةً كجذْوةِ قابِسٍ ... راعتْ أكُف القَومِ عند مساسِها

وصور ابن أبي حصينة خمرة حمراء الشعاع، معتّقة كأن حبابها قُمص الأفاعي، يقول[4]:

وشارب قهوةٍ عَلِبتْ عليه ... من الحِريال حمراء الشعاعِ
مقدمةٌ لها من عهدِ عادٍ ... كأن حبابها قُمص الأفاعي

ويدعو الغزي إلى شرب معتّقة هي في رقّتها كدمعة اليتيم، تزيل الهم وتطرد الشكوك، والحقّ أن هنا وقفة تستأهل المدارسة؛ فالغزي لا يدلّ شعره على أنه رجل تخذَ اللهو سبيلاً، ولعلّ ما قاله جاء لتبيان شاعريته ومقدرته على الإتيان بصوره مبتكرة، يقول[5]:

قم نَفْتَرِعها كأنها الذّهب ... بِكْر أبوها وأُمها العِنَب
أرق من عبرةِ اليتيم ومن ... عِبارةِ الصب قلبه وصِب
مدامةٌ تَصقُلُ القلوب إذا ... رانتْ عليها الهموم والريب
كؤوسها أنجم تُضِل بها ... لا يهتدي من تُضِله الشهب
لا قَدم فينا ولا قِدام لها ... عروس دن عقودها الحبب

ومما يزيد هذه الخمر حسنًا، أن ساقيها فتًى حسن، بهي الطلعة، ذو خد مورد أكثر ما يكون شبها بالخمر وهي تلتهب في قدحها.

مِن كَف من كَف حسنُه صِفَتي ... فما إلى وصفِ حسنِهِ سبب
تَبسم السحر في لواحِظِه ... لما بكا الناس منه وانتحبوا

---

[1] حناك: بالضم، حصن مكين كان بمعرة النعمان. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص ٣٠٩-٣١٠.
[2] حاس: بالسين المهملة، في أرض المعرة. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص ٢٠٥.
[3] ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص ٣٥٦.
[4] المصدر نفسه، ج١، ص ٢٠٨.
[5] ديوان الغزي، ص ٤١٥.

واخضر في وجنتيه خطهما بحافة الماء ينبت العشب
يدير منها كخده قدحا يجتمع الماء فيه واللهب

٢- الخمر في مجالس اللهو والغناء

أسهب الشعراء في الحديث عن الخمر في مجالس اللهو والغناء، ورسموا صورا توحي بعلاقة حميمة جدا بينهما، ولقد أفاض في هذا المعنى الشريف العقيلي، الذي يكاد يكون أغزر شعراء بني عصره نظما في الخمر، كما تقدم؛ فقد صور في أحد مجالس الخمر ساقيا يجاب له ولندمائه الخمر، التي كنّاها " ببنت كرم "، ولا يحلو له معاقرة الخمر إلا إذا صاحبها غناء، والمغنّية هنا قينة جميلة الوجه، ساحرة، تضرب على العود[1]:

وقد عمرنا قطر ميزاننا ببنتِ كرمٍ ثغرها أشنب
يزفها في قمص كاساتها من زقه من ريقه أطيب
مقرطق تبدو على كفه كواكب يحملها كوكب
والرأي أن نلتذ في يومنا بصبحةٍ من عمرنا تحسب
مع مسمع في خده وردةٌ تحرسها من صدغه عقرب
لثامه ينحط من وجهه عن سحرٍ من فوقه غيهب
يضرب أعناق صباباتنا حين يجس العود أو يضرب
يظهر من يهواه منه بما فيه له المضرب والمطرب
فرد بنا اللهو الذي ماؤه في لهواتِ العيش مستعذب
بين شقيقٍ صدغه حالك وأقحوانٍ ثغره أشنب
والرعد يشدو والثرى منتش والسحب تبكي والربى تشرب

فالعقيلي لا يحلو له معاقرة الخمر إلا إذا صاحبها غناء، تؤديه حسناء تسحر بجمالها الألباب، وتمتّع الحاضرين بجسها العود أو ضربها. فضلاً عن أن مجلس الخمر هذا في روض ممتلئ بالشقائق والأقحوان، وفي جو يشدو فيه الرعد، وينتشي الثرى، ويبكي السحاب، وتشرب الربى.

وله في مجلس خمر في غناء، استوى فيه هو وأصحابه على مراتب ينتظرون الساقي، يقول[2]:

---

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص ٥٨.
(2) المصدر نفسه، ج١، ص ٨٣.

عندي مِن الزط ظَبي صـاده شَـركي | لَمـا بـدا سانحـاً روض خِلْعتِـهِ
له غِناء يهز القلـب مِـن طَـربٍ | إن هـز أعطافَـه فـي ثـوبِ نَغْمتِـهِ
ومن إذا مـا اسـتَوينا فـي مراتِبنـا | وافـى إلينـا بـراحٍ مثـل وجنَتِـهِ
يـديرها وعلـى لَبـاتِ أكْؤُسِهـا | مثـلُ الـذي دار مِـن دريلَتِـهِ
ونحن في مجلـسٍ كحلْـي خُرمِـهِ | مـا إن أشَبهـه إلا بِطُرتِـهِ
يحفه نَرجِـس طابـتْ روائحـه | فلـيس يـصلُح إلا أخْـتَ نَكْهتِـهِ

ولا غُنية للشارب، عند العقيلي، عن الغناء، بل إن الشرب من غير غناء كأكل الخبز من غير إدام، يقول[1]:

لا تَـصطَبِح مـا اسـتطعتَ إلاّ | بمـسمعٍ فيـهِ حـسن فَهـمِ
فَـشُرب راحٍ بـلا غِنـاءٍ | كأكـل خُبـزٍ بِغَيـرِ أُدمِ

ويركن العقيلي، في حديثه عن الخمر والغناء، إلى مفـردات مـن المـوروث الـديني، يقول[2]:

قُم فانْحرِ الـراح يـوم النحـرِ بالمـاءِ | ولا تُضح ضحـى إلا بـصهباءِ
أدرك حجـيج النـدامى قبـلَ نَفْـرِهِم | إلى مِنى قَصفِهم مـن كـل هيفـاءِ
وعج علـى مكـةَ الروحـاءِ مبتكـرا | فَطُفْ بها حولَ ركْـن العـودِ والنّـائي

فالنحر الحقيقـي إنّما هو معاقرة الخمر، والحجيج هم الندامى الذين يطمح إلى اللحوق بركبهم.

وكان يحلو له مجالس الشرب التي تحتضنها الطبيعة، ويبدو أنه كان ذا ذوق خاص جمع عشق الطبيعة والخمر والغناء، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، يقول[3]:

غِناء وضرب، بين ذاك وذا زمـر | وماء وعـشْب، بيـن ذاك وذا زهـر
فَقُم واجلِبِ الأفراح مِن ضرعِ صـبحةٍ | فقد در مِن ضرعِ الـسماءِ لنـا القَطْـر
ولا تَخْشَ أن يلقـاك لـوم فحولَنـا | مِن الوردِ ما فيـهِ لِمـصطَبحٍ عـذْر

ويكاد الغناء يكون شرطًا من شروط التلذّذ بالخمر، يقول العقيلي[4]:

ألاهاتِها راحا لهـا ريـج عنْبـر | على جِـس طنبـورٍ وإيقـاعِ مِزهـر

---

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص ٤٦.
(2) المصدر نفسه، ج١ ص ٣٧.
(3) المصدر نفسه، ج١، ص ١٦٠
(4) المصدر نفسه، ج١، ص ١٤٢.

ويبدو أن العقيلي غدت له عادات صاحبت معاقرته الخمر؛ إذ كان يسبق احتساء الخمـر تناول ما لذّ وطاب من الطعام، يقول وقد جيء له بالراي والأبرميس، وهما من أنواع السمك في نهر النيل[1]:

أجـيء وإن كـان يـوم الخمـيس ... بـدلّي فـي الـراي والأبـرميس
وأشـرب مـن قبـلُ أن أقتَـضى ... ولا أتَعـدى مـراد الجليـس
فمـا أرتـضي العـيشَ لـي كُـسوةً ... إذا لـم تكُـن مِـن نـسيج الكـؤوس

وكما استعار مفردات من الموروث الديني ليصف مجالس خمر، على نحو ما ذُكر قُبيـل قليل، يستعير العقيلي مفردات خاصة بأدوات الكتابة ليصف مجلسا آخر، يقول[2]:

قد عنْـون الـروض ويـك بالخُـضر ... وسـجي العـود ويـك بـالوتر
وابتَـدرتْ أغْـصن دفاتِرهـا ... فيهـا خطـوطُ النـوار والثمـر
فاشرب علـى كاتـبِ الـسحابِ فقـد ... أعجـم بـالقَطْر أحـرفَ الزهـر
فمـا لـه فـي دواتِـه قلَـم ... يـنْقُطُ حرفًـا إلا مِـن المطَـر

ولعلّ هذه الصورة التي أوردها العقيلي، من الصور النادرة في شعر الخمر، وقد أحسن فيها إذ وظّف أدوات الكتابة في رسم صورة حضارية لمجالس خمر تحفّه الرياض، ويضرب فيه على العود.

وثمة ملمح لطيف يمكن تتبعه في وصف العقيلي مجالس الخمر؛ إذ لأحوال الجو وقـع غريب على نفس هذا الشاعر، ولقد بات معروفًا عند كثير من علماء النفس المحدثين أن أجـواء الشتاء بما فيها من غيوم وبرق ومطر، ولزوم الناس بيوتهم، يبعث علـى شـيء مـن الحـزن والكآبة، ويبدو أن العقيلي قد عانى هذا الأمر، ولم يكن له ملتجأ يقيه وطأته إلا الخمر. وقد يكون الأمر خلاف ذلك، فقد تبعث هذه الأجواء في نفسه شيئًا من التفاؤل لاقترانها بـشرب الخمـر، فالأمران كلاهما وارد، يقول[3]:

الجـو يلمـع برقُـه ... فـي غَيمِـه والقَطْـر يجـري
كـسلاسِـلٍ مِـن فِـضةٍ ... قـد دليـتْ مِـن سـقْفِ تِبـر
فاشـرب بنـا ذَهبـا علـى ... ذَهبـين مِـن بـرقٍ وزهـر

---

(1) ديوان العقيلي، ج٢، ص ١٨٢.
(2) المصدر نفسه، ج١، ص ١٦٨.
(3) المصدر نفسه، ج١، ص ١٧٠-١٧١.

والأديرة أمكنة محببة لاحتساء الخمر، عند العقيلي، يقول[١]:

وراحٍ فــــي لطافتهــــا كحِــسي | نَعمــتُ بــشُربها فــي ديــر قَــس
على النــاقوسِ إذ هــو عنــد سـمعي | أحــب إليــهِ مِــن ضــربٍ وجــس
فيا لَكِ مِــن بنــاتِ الكَــرمِ بِكْــرا | تلالــــم فــي كرامتِهــا لنفــسي
إذا افتُرعــتْ رأيــتَ لهــــا حبابــا | كعِقْــدِ كواكــبٍ فــي جيــدِ شــمسِ

فاحتساء الخمر في ذلك الدير نعمة وأي نعمة! حتى إن صوت الناقوس يصبح أحب إلى الشاعر من صوت آلات الطرب.

وكان دافع الصوري إلى معاقرة الخمر، طرد الهموم؛ إذ هو يستجير بالخمر من أجـل قتل تلك الهموم، وكذا كان يفعل جماعة الشرب الذين ما كانوا ليفيقوا من السكر، يقول[٢]:

ولقــد أَطــرقُ الحوانيــتَ والهــ | ـــموم مثلــي لمثلِهــا طَــراقُ
مــستجيــرا بِعــانِسٍ ذاتِ بيــتٍ | طالمــا جهــزتْ إليــهِ الزقــاقُ
زرتُهــا فــي عِــصابةٍ كلمــا أظْــ | ــلَم ليــلٌ بــــدا لهــم إشــراقُ
فاستثــارواِ مِــن الهمــومِ بكاســا | تٍ دمــاء الهمــومِ فيهــا تُــراقُ
صبحتْهــــم فأســكرتْهم وولــتْ | ثــم عــادتْ بهــا وهــم مــا أفــاقوا
تَتْبــع الــسكْرةُ أُختَهــا فتــرى الــ | أيــام نُطْــوى كأنهــا أوراقُ

ولا يذهب الهم والحزن، عند الصوري، بالخمر والنديم حسب، بل يتمم الأمـر طـرب وغناء[٣]:

مــا لِكأســي أصــبحتْ تُمــزج لــي | دون نَــدماني بِهــم وحــــَزن
ونَــديمي وده مِــــــن طَــربٍ | وســرورٍ أن تكــون الكــأس دن
غيــر مــذمومٍ عليهــــا إنّمــا | ينْــصفُ الخِــل بإنــصافِ الــزمن

ويؤكّد ما قيل توا هذه الدعوة التي يطلقها الصوري للندامى ليلتموا، ويحتسوا مـا فـي الدنان من خمر، ويستمتعوا بالشرب والغناء، يقول[٤]:

قُــم يــا غــلام قَنَبــــه | للكــــأسِ قومــــا رقــــودا
وعــــوضِ الليــــلَ مــــنهم | تلــــك الــــدنان القُعــــودا
مــــضى النهــــار فــــأطْلِع | منهــــا نهــــارا جديــــدا
وقــــلْ لــــساقٍ وشــــادٍ | أحــــــسنتُما فأعيــــــــدا

---

(1) ديوان العقيلي، ج٢، ص ١٨٤.
(2) المصدر نفسه، ج١، ص ٣١٨.
(3) المصدر نفسه، ج٢، ص ٧٧.
(4) المصدر نفسه، ج١، ص ١١٠

والندامى أناس محببون جدا لدى صردر؛ فهو يحبهم سواء أجاؤوا بخير أم بـشر، ومـا ذلك إلا لعشقهم الخمر التي تكون بأيديهم كأنها كواكب تجري، يقول[١]:

فـإنني أهـوى النـدامى ومـا	يـأتون مـن خَيـرٍ ومِـن شَـر
وأعـشقُ الكـأس، وسـلطانُها	يأخُـذُهم بالنهـي والأمـر
كأنمـا الـراح براحاتِهـم	كواكـب فـي فَلَـكٍ تجـري
منتظمـو الأيـدي بأدوارهـا	كنَظْمِـك الأحـرفَ فِـي الـسطْر
ياقوتُهـا الأصـفر أفواههـم	ينْبُـتُ فيهـا زهـر الـدر

وشهد ابن الخياط مجلس شراب، وقد أُحضر سبع من ورد، ووضعت وردة حمراء فـي فمه دون جسده، فأنشأ [٢]:

لنـا أَسـد ورد سـبانا بـهِ الهـوى	وما كان يهوى قبلَـه الأسـد الـورد
يحبـب لي مـن أجلِـهِ كُـل ضـيغَمٍ	هصورٍ وتُصبيني إلـى قُربِهـا الأسـد
لـه وردةٌ حمـراء فـي فيـهِ غَـضةٌ	يرى عادِيا منهـا وإن كـان لا يعـدو
كلَيـثٍ قَريـبٍ بالفَريـسةِ عهـده	فَباقي دمِ المفْـروسِ فـي فَمِـهِ يبـدو

وهذه الأبيات تؤشّر على مدى عناية مجتمع القرن الخامس الهجري بمجـالس الخمـر، ومدى احتفائهم بها واهتمامهم بتزيينها، ولعلّ دافعهم إلى ذلك حضارة عصرهم، التـي ظهـرت آثارها في مناحي الحياة جميعها.

ووصف ابن الخياط مجلس لهو يعاقر فيها الندامى الخمر، يـدور بهـا الـسقاة بيـنهم، فيتغزلون فيهم، ويغنّى مغنّيان، فيستمتع القوم بغنائهما ويطربون لصوتهما طربا يخفّ له الحلـيم ذو النهى، يقول[٣]:

وحِلْفَـين مثلهمـا يـصطفى	ليـومِ المـدامِ ويـستَخْلَص
رسـيلَين معناهمـا فِـي الغنـاءِ	أدق ولَفْظُهمـا أَلْخَـص
يظَـل الحليـم إذا غَنيـا	كـأن قَرائـصه تُقْـرص
وبـين الـسقاةِ مـريض الجفـون	يـسوم القُلـوب فَيـستَرخِص
غَنِـي بألحاظِـهِ لَـو يـشاء	عـن الكـأسِ لكِنـه أحـرص

[١] ديوان صردر، ص ٢٠٤,
[٢] ديوان ابن الخياط، ص ٢١١
[٣] المصدر نفسه، ص ٢١٠.

والغناء والخمر يصرفان الهم وينفيانه، ولا سيما إن كان ذلك في مجلس قدح حاضروه الخمر، يقول الشيخ أبو نصر الحسن بن أسد الفارقي في هذا المعنى[١]:

لا يصرفُ الهم إلاّ شدو محسنةٍ ... أو منظر حسن تهواه أو قدح
والراح للهم أنفاها فخُذْ طرفًا ... منها ودع أُمةً في شُربها قدحوا
بِكْر تَخالُ إذا ما المزج خالَطها ... سقاتُها أنهم زنْدا بها قدحوا

وصور ابن الخياط كيف اقترن شرب الخمر بالغناء في مجلس شراب، فقال[٢]:

وما يكاد يدير الفِكْر أكْؤُسه ... إلا بحيثُ يدور اللهو والقَدح
والنّاي كالنأي في قلْبِ المحِب وللْـ ... أوتار في كل سمعٍ ألْسن فُصح
ومسمِعين إذا مرتْ لهم نَغَم ... كادتْ لهن قُلوب القومِ تَنْجرح

ومن مجالس الشراب ما كان يفرش بالنرجس؛ إذ مدح ابن أبي حصينة معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس، وقد حضر مجلس شرابه، قائلاً [٣]:

عِشْ للمكارمِ يا كريم المغْرس ... واسلَم سلِمتَ مدى الزمان الأتْعس
واشْرب هنيئًا طيبا في مجلِس ... مذْ قُمتَ فيهِ للعلى لم تجلِس
أنْبت فيهِ روضةً من نَرجسٍ ... أزرتْ نضارتُها بِروضِ الأوعس
فكأن قُضبان الزبرجدِ حملتْ ... أعلا ذوائِبها نُجوم الحِنْدِس

والساقيات كن يجعلن مجالس الشرب أكثر متعة وإيناسا، فأبو الحسن التهامي تعلّق بساقية كانت تقدم الخمر له ولجليسه، وقد كانت فاتنة الجمال مكحولة العين، أضاء نورها المكان، يقول[٤]:

تطوفُ علينا بالمدامِ سبِيةٌ ... لها جفْن عينٍ قد تكحلَ بالسحر
بدتْ تحتَ أوراق الظلامِ كأنما ... تواجهني مِن وجهها ليلةُ القَدر

---

(1) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص ٤٢٦.
(2) ديوان ابن الخياط، ص ٢٣٢-٢٣٣.
(3) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص ٧٢.
(4) ديواني التّهامي، ص ٢٣٥.

وللرئيس أبي الحسن علي بن مسهر الموصلي [1] نظم في مجالس خمر، يقول[2]:

يا خليليّ أين مصطَبح   فيه لِلّذّاتِ مصطَحب
وثُغور الزهر ضاحكةٌ   ودموع القَطْر تَنْسكِب
ولنا في كل جارحةٍ   من غِنا أطيارِهِ طَرب
اسقِنيها بنتَ دسكرةٍ   وهي أُم حين تَنْتَسِب
خَندريس دون مدتِها   جاءتِ الأزمان والحِقَب
طافَ يجلوها لنا رشَأٌ   قَصرتْ عن لحظِهِ القُضب
أوقَدتْها نار وجنَتِهِ   فهي في كفيهِ تَلْتَهب
ولها من ذاتِها طَرب   فلهذا يرقُص الحبب

ففي هذا المجلس أزهار وغناء وساقٍ جميل غض الإهاب، وهذه كلها تبعث في نفس أبي الحسن السعادة والنشوة.

٣- الخمر والطبيعة والربيع

تعد معاقرة الخمر تارة ترفًا تفرزه الطبيعة، وتعد – في أحيان أخرى – هربا من واقع مر أليم. وأيا كان الأمر، فإن مما يزيد المعاقرة لذّة وبهجة أن تكون بين أحضان الطبيعة، وهذا المعنى نجده شائعا إلى حد كبير في أشعار القرن الخامس الهجري، ومرة أخرى نجد الشريف العقيلي أفضل من تصدى لهذا المعنى، وخير من تعاطاه تعبيرا وصورا.

تغنّى العقيلي بالرياض التي كانت تُتّخذ مجالس للهو والشرب، وتنتشر في هذه الرياض غيطان الماء وأنواع مختلفة من الزهور والفاكهة، وتعبق برائحة زكية، يقول[3]:

لأحسن من مصافَحةِ الصفاح   ومن وقْع الرماح على الرماح
بِقاع ترقُص الأمواج فيها   على النغماتِ من زمر الرياح
وأغصان يذهبها بهار   وغِيطان يفَضضها أقاحي
وأنداء إذا سالتْ عليها   سيوفُ البرق تُبطَح في البِطاح
وكاساتٌ تدور على الندامى   بأجسامٍ لها أرواح راح

---

(1) شاعر مداح من الأعيان، تنقل في أكثر ولايات الموصل، وعاش طويلاً. انظر: خريدة القصر،قسم شعراء الشام ٢٧١/٢، وفيات الأعيان ٣٦١/١، الأعلام ٢٩٠/٤.

(2) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص ٢٧٤-٢٧٥.

(3) ديوان العقيلي، ج١، ص ١٠٠-١٠١.

وساقيــةٌ تَحــض علــى انْتِحــابٍ ... وملْهيــةٌ تَحــث علــى اقتــراحِ
وأنهــارٌ تُنَضَّــد لاغتبــاقٍ ... وفاكهــةٌ تُجــدد لاصــطباحِ

وأحسن ما يكون الشرب، والأرض تزدهي بوشاح من الزهور، يقول[1]:

مطايــا الــسحبِ فــي آل الــصباحِ ... يقــود قطارهــا حــادِي الريــاحِ
فَعَــذ العيــشَ إمــا باغتبــاقٍ ... تَلَــذ بــهِ وإمــا باصطِبــاحِ
فأحــسن مــا تكــون الأرض زيــا ... إذا انتَقبــتْ بِفِــضي الأقــاحي

والشرب في الرياض، ولا سيما إبان الربيع، يبعث الفرح والسرور في النفس الحزينة المكمدة [2]:

اشْـرب علـى زهـرِ البنَفْـسجِ قهـوةً ... تُهدِي السرور إلـى الحـزين المكْمـدِ
فَكَأنـه قَــرص يخَــد مهفْهــفٍ ... أو أعــين زرقٌ كُحِلْــن بِإثْمِــدِ

وقال في روض سقاه فيه ساقٍ رشيق أسود الشعر خمرا صافية[3]:

لنــا روض يقَــصر عنــه شَــرحي ... وأنــداء حبائــلُ كــل سمــحِ
وصــافيةٌ يطــوفُ بهــا غــزالٌ ... لــه صــدغٌ كلَيــلٍ فــوقَ صــبحِ
فــلا تَقْعــد علــى العــيشِ المهنّــا ... ولا تــدفع بِخُلْقِــك صــدر نُــصحي
فــإن الزهــر غُــرةُ كــل وَصــفٍ ... كمــا التــشبيب غُــرةُ كــل مــدحِ

واحتسى العقيلي الخمر في روضة غنّاء ترقص فرحا إذ تستقبل قطرات المطر، يقول[4]:

الـروض فـي فَرحـةٍ وفـي طَـربٍ ... والجـو فـي تَرحـةٍ وفـي كُـربٍ
ينثُــر مــن دمــعِ سحبــهِ دررا ... علــى بهــارٍ يلــوح كالذهــبِ
فاشْــرب علــى جلّنــارةٍ وعلــى ... شــقيقةٍ بــالكبير وانْتَخِــبِ
مــن ينْــتِ كــرمٍ كأنهــا لهــب ... تَــشْربه منهمــا علــى لهــبِ

وقال في روضة غنّاء كساها الربيع ورودا صفراء وحمراء، وقد وصفها بالجنة السراء[5]:

الـروض فـي ديباجـةٍ خـضراءِ ... والجـو فـي فَرجيـةٍ دكْنـاءِ
والأرض قد نَظَم الربيــع لجيـدِها ... عِقــدا مــن الــصفراءِ والحمــراءِ
والراح ينثر في مــذاب عقيقهـا ... درر الفواقــعِ جــوهري المــاءِ

---

[1] ديوان العقيلي، ج١، ص ٩٩.
[2] المصدر نفسه، ج١، ص ١٠٨.
[3] المصدر نفسه، ج١، ص ١٠٠.
[4] المصدر نفسه، ج١، ص ٥٣.
[5] المصدر نفسه، ج١، ص ٢٦.

فاقْصِد رضى رضـوانها بالـشربِ إن ... أحببـتَ سـكْنى جنـةِ الـسـراءِ

وقال في روضة في برزة [(1)]:

والروض يـضحك والأزهـار زاهـرةٌ ... وقد أتى النرجس البـرزي بالعجـب
كأنـه لؤلـؤٌ رطْـب تَـشَقَقَ فـي ... غصون فيروزجٍ عن خـالصِ الـذهبِ
كأنما الطل فـي أخفافِهـا سـحرا ... دمع تَحير فـي آفـاق مجتَنَـبِ
فاشرب عليهِ ولا تَغْفَـلْ ولَـذ وطِـب ... فمـا تدوم لِحـي غَفْلَـةُ العطَـبِ

وقد يصاحب شرب الخمر في الرياض غناء غير محوج إلى زمر[(٢)]:

أنـداؤنا يقَـقٌ ودر ... ونباتُنـا مِينـاً وتِبـر
وخمورنـا لوجوهِهـا ... مِـن نَـسج كـف المـاءِ خَمـر
فـانْعم بهـا فـي روضـةٍ ... لِنـسيمها طـي ونَـشْـر
ولنـا غنـاء فـي غِنًـى ... عـن أن يكـون عليـهِ زمـر
فـرواء يومِـك فيـهِ مِـن ... ساعاتِـه بلْـقٌ وغُـر

وقال في مجلس شراب، ذي ماء وفير وزهر كثير منتشر[(٣)]:

المـاء منْبـسِطٌ والزهـر منتـشِر ... والـروض ملْتَحِـفٌ والجـو معتَجِـر
فانْعم بشمسٍ لهـا مِـن كأسـها فَلَـك ... مِن كف ساقٍ لنـا مِـن وجهـهِ قَمـر
فللأقـاحي قِبـاب كلهـا ذَهـب ... مِـن حولهـا شُرفـاتٌ كلهـا درر

ويحيل الورد ظلماء الليل نورا وضياء، وتبدو الخمر في الكؤوس كأنها عروس، ويـتم الأمر حسنًا صوت مغن جميل[(٤)]:

الـورد فـي ليـل الـضبابِ شُـموس ... والراح في حلَـل الكـؤوسِ عـروس
ولنـا مغَـن جِجـره العـرشُ الـذي ... طُنْبـوره مِـن فوقِـهِ بلقيـس
فـالغيم فاختـةٌ تَلَـذ بـصوتِهـا ... والجـو وكْـر والثـرى طـاووس

وله في روضة تَخذها مجلس شرب، انتشرت فيها الأزهار بوفرة [(٥)]:

أقْبِلْ علـى اللهـوِ ودع مـن فَنـدا ... وحلـل الهـم إذا تعقّـدا
في روضةٍ قـد خُرطَـتْ زبرجـدا ... وألبـستْـه فِـضـةً وعـسجـدا
واشرب على الغـيمِ الرقيـق والنـدى ... مـا دام سـبطُ المـاءِ قـد تجعـدا

---

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص ٤٩. وبرزةُ: قرية من غوطة دمشق. انظر: معجم البلدان، ج١، ص ٢٨٢-٢٨٣

(2) المصدر نفسه، ج١، ص ١٣٥-١٣٦.

(3) المصدر نفسه، ج١، ص ١٣٥.

(4) المصدر نفسه، ج٢، ص ١٨٦.

(5) المصدر نفسه، ج١، ص ١١٨.

وقد ترفل الرياض ثوبا صوفًا ورداء أسود، وتفتر أغصانها عن النّرجِسِ فتفوح رائحتها الزكية [(١)]:

قـــــد أَقْبَـــلَ النبـــتُ بأســـماطِه ... مِـــن مِمطَـــرٍ منـــــه ومِـــن برِكـــان
وافْتَـــرتِ الأغـــصان عـــن نَـــرجِسٍ ... مخْـــتَلِطِ الكافـــــــور بـــالزعفران
فاســـتَلِبِ الـــشمس إذا مـــا عَـــدتْ ... تُطْلِعهـــا منهـــا بـــــــروج الـــدنان
والمـــاء قـــد فـــاض علـــى روضِـــنا ... فـــصار كالـــشربِ علـــى المِهرجـــان

وصور قضبان الأشجار وأعوادها، في مجلس للشرب، كأنهـا نايـات وأعـواد حقيقيـة، يقول[(٢)]:

الـــروض مثـــلُ ســـوالفٍ وخـــدودِ ... والزهـــر مثـــلُ مخـــانِقٍ وعقـــودِ
والغُـــدر قـــد لمعـــتْ جواشِـــن مائهـــا ... مـــا بـــين بوقـــاتٍ وبيـــن بنـــودِ
والناي مثـــلُ النـــاي فـــي يـــدِ هـــذهِ ... والعـــود فـــي يـــدِ هـــذهِ كـــالعودِ
فـــانْعم فقـــد عقَـــد المِـــزاج حبابـــه ... تاجـــا لِمفْـــرقِ ابنـــــةِ العنقـــودِ

وكان العقيلي إذا أطلّ عليه الربيع، جاس بين صفوة من صحبه ينعمون بمفاتن الطبيعة، وقد استغرق هائما في مباهجها وبدائعها، فجاء بصور عديدة أودعها أحاسيسه، يقول في مجلس للشراب في الربيع[(٣)]:

نحـــــن فـــــي روضٍ نـــــضيرٍ ... بـــــين بـــــسطٍ مِـــــن حريـــــرِ
بـــــين ســـــحبٍ مِـــــن كـــــؤوسٍ ... وبـــــــروقٍ مِـــــــن خُمـــــــور
وشـــــقيقٍ مِـــــــــن خـــــدودٍ ... وأقـــــــــاحٍ مِـــــــن ثُغـــــــور
ونـــــدى مِـــــن مـــــــاءِ وردٍ ... وضبـــــــابٍ مِـــــن بخـــــور
نُزهـــةٌ مـــن كـــــــان فيهـــا ... كـــان فـــي ظـــــل الـــسرور

وكان الربيع مبعثـًا للعقيلي يحفّزه إلى الشرب، فعندما تكتسي الأرض حللاً من الزهر، فإن هذا مثيرا قويا، عند العقيلي، للشرب[(٤)]:

قـــــد ضـــحكتْ غُـــرةُ الـــصباحِ ... وانـــدفع الـــديك فِـــي الـــصياحِ
وطـــافَ بـــالراحِ كـــــــل ســـاقٍ ... رضـــابه فـــوقَ كـــــــل راحِ
فاشْـــرب علـــــــى فِـــضةٍ ودر ... مِـــن ياســـمينٍ ومِـــــن أقـــاحِ
فـــالأرض قـــد أصـــبحتْ عروســـا ... تُجلَـــى مِـــن الزهـــرِ فـــي وشـــاحِ

---

(١) ديوان العقيلي، ج٢، ص ٢٧٩.
(٢) لمصدر نفسه، ج١، ص ١٢٧.
(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ١٣٧.
(٤) المصدر نفسه، ج١، ص ٩٩-١٠٠.

ووصف الأبيوردي مجلسا للخمر في روضة حلو نسيمها، وكان قد وعد بخمـر معتّقـة محوجة إلى ما يقال تهيجها، يصير فيها، من طربه ونشوته، خفيف الوقار، يقول[(١)]:

وعـدتِ، والخِـل مـوفي لـه، زقـرا ... بابـن الغَمامِ مـشُوبا بابنَـةِ العِنَـبِ
فَجِئْـن يـا سـاقِياتِ الخَمـر صـافِيةً ... بهـا قُبيلَ ابتِسامِ الفَجرِ عـن كثَـبِ
فـإن دغْدغَـةَ الأقـداحِ مهديـةٌ ... إلـي تَعتَعـةً لِلسكْرِ تَعبـثُ بـي
وأنْتِ يا علْـو شـيمي اللحـظَ إن لَـه ... فِي القلبِ وقْع شَبا المـأثورةِ القُـضبِ
ضحِكْتِ ثُم بكـى الإبريـقُ منْتَحِبـا ... فَالريقُ والثغْرِ مِثْلُ الـراحِ والحبـبِ
ونحن في روضـةٍ جـر النـسيم بهـا ... ذيلًا بـه بلّلٌ مِـن أدمـعِ الـسحبِ
إذا ذَكَرتُ بهـا نَجـدا وسـاكِنَه ... وضعتُ حبوةَ حِلمـي في يـدِ الطـربِ

ويتذكّر يوما شرب فيه الخمر في روض تتمايل أزهاره، فيقول[(٢)]:

سقى الله يومـا قـصر اللهـو طُولَـه ... وظَلَـتْ خياشـيم الأبـاريق تَرعـفُ
بروضٍ تَمـشى بـين أزهـارِهِ الـصبا ... فَتَحـسبها مـذْعورةً حـين تَرجـفُ
وقد مزجـتْ ظميـاء بـالريق راحهـا ... فلـم أدرِ مِـن أي المـدامين أرشُـفُ

وللطغرائي في روضة فيها غناء، وغلمان، ولهو وشرب[(٣)]:

فَديتُـك قـد تنبهنـا لِـدهرٍ ... عيـون صروفـه عنّـا نيـام
وجـاد لنـا الزمـان بجمـع شَـملٍ ... تَـألفَ بعـد مـا انقطَـع النّظـام
مـدام تُـشبِه التفّـاح ذوبـا ... وتُفّـاح كمـا جمـد المـدام
ومِـن نَـسجِ الربيـع محبـراتٌ ... تَـأنقَ فـي حواشـيها الغَمـام
وأصـواتُ المثالـثِ والمثانـي ... كمـا سـجعتْ علـى الأيـكِ الحمـام
وريـان الـصبا للحـسن فيـه ... بـدائع لا يحيـطُ بهـا الكـلام
له مِن قَتْلِ صدغيهِ نجـاد ... ومِـن ألحـاظِ عينيـهِ حـسام

ووصف أبو يعلى ابن الهبارية ليلة احتسى فيها الخمر المعتّقة، وما فيها مـن غـصون مائلة وألحان الطير على الشجر، فقال[(٤)]:

---

(1) ديوان الأبيوردي، ج٢، ص ٢٥٦-٢٥٧.
(2) المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٤.
(3) ديوان الطغرائي، ص ٣٥٤.
(4) خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص ٩٧.

اسقنـــــــي يـــا ضـــرةَ القَمـــر   واسأُــــبِ اللّـــذّاتِ وابتَـــــدِر
قهـــوةً حمـــــــــراء صـــافيةً   تَخْـــضِب النـــدمان بالـــشـــرر
سبقَـــــتْ نُوحـــــًا فلـــو نَطَقَـــتْ   أُـــروتْ مـــا مـــر فِـــــــي الـــسير
وغـــصـــون البـــــان مائلـــةٌ   طربـــــــًا مِـــن شـــدةِ الـــسكُر
ولحــــــون الطيـــــر عاليـــةٌ   والـــصبـــا تختـــالُ بالـــشجر
اسقنـــــــي يـــا ضـــرةَ القَمـــر   واسأُــــبِ اللّـــذّاتِ وابتَـــــدِر
ليلتـــــــي لا عيـــب فيـــكِ ولا   خِلْـــتُ أن تـــشني ســوى القِـــصر

وكان مجلس شرب أبي محمد الحسن بن أحمد بن حكّينا في حقول العنـب، يـشقّ بهـا الدنان ويفض ختومها، في دلالة مباشرة على عتقها، يقول[١]:

أدِرهـــا مدعدعـــةً يـــــا نـــديمي   بمـــاءِ الكُـــرومِ وبـــين الكُـــــرومِ
وكُـــن أرقَـــقَ النـــاس تحـــتَ الظـــلا   مِ بيـــزل الـــدنان وفَـــض الختـــومِ
إلـــى أن تُريـــك طلـــــوع الـــصبا   ح فـــي حبـــبٍ كانقـــضاض النجـــومِ

ووصف محمد بن سلامة الكناني الدمشقي خمرا احتساها فـي روضـة تمايلـت فيهـا الأغصان، وأدار الخمر ساقٍ عزت أوصافه، يقول[٢]:

كأن أباريـــقَ المدامـــــةِ بيننـــــا   مِن المنْظر الأعلى ظِبـــــاء رواعِفْ
يدير علينـــا الـــراح رطْـــــب بنانُـــه   وصيفٌ جفَتْ فِي الشكل عنه الوصائفْ
فَعاورنا مِـــن راحتيـــــــهِ وطَرفِـــهِ   كـــؤوس لأسبـــابِ القلوبِ كواشفْ
ورحنـــا وما مـــاء اللـــذاذةِ غـــائض   لديهِ، ولا وجـــه المـــروءةِ كاسِـــفْ
ومالتْ فـــروع البـــان بـــين ثيابنـــــا   وجـــرتْ علـــى وجـــهِ الريـــــاض
فما مثلُ هذا اليـــومِ لـــولا انقـــضاؤه   وما مثلُنـــا لـــو أخطأتنـــا المتـــالِفْ

وبذا، يظهر جليا أن شعر القرن الخامس الهجري حفل بذكر الخمر؛ إذ أكثر الشعراء من القول فيها، حتى إن بعضهم كان ذا نصيب وافر في ذلك، من مثل: الشريف العقيلـي؛ ذلـك أن الخمر كانت وسيلة للهو والتسلية، ساعدت عليها مواسم اللهو والعبث، ومجالس المجـون التـي انغمست بها فئة من مجتمع القرن الخامس الهجري آنذاك، وكانت أيضا وسيلة إلى تشتيت الهم، وإراحة الروح. فضلاً عن كونها تعبيرا عن الشعور بالظلم والحرمان.

---

(1) خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص ٢٣٩- ٢٤٠.
(2) دمية القصر، ج١، ص ١٥٣- ١٥٤.

غير أن استقـراء شعر الخمر مـن جهـة، وتعـرف أحـوال شـعرائها: الدينيـة، والاجتماعية، و...، من جهة ثانية، يدعوان إلى إضافة مسوغ آخر إلى ما سلف ذكره، ولعلّه أن دافع بعض هؤلاء الشعراء إلى ذلك كان تقليد من سبقوهم، وإبراز مقدرتهم على النظم في هـذا الضرب، وقد فعلوا، وأجادوا في وصفهم الخمر وآنيتها وسقاتها ومجالسها إجادة تظهـر جليـةً واضحة.

ب- الغناء، وآلاته

تغري البيئة الاجتماعية في القرن الخامس على نحو ما تبين في صـفحات سـابقة، بـالغزل والتشبب بالغلمان، وقد لاحظنا كيف كانت الخمر ملمحا حاضرا في المشهد الثقافي، ولعلّ هذا قاد إلى أن تكون تلك البيئة تربةً خصبةً للغناء؛ لذا كثرت مجالس الغناء، وكثرت القيان، وتفنّن الـشعراء فـي وصف تلك المجالس وما تجلبه لهم من مسرات، وتجليه عنهم من هموم.

غير أن المتتبع للأشعار التي عنيت بالغناء: مجالسه ومؤديه وآلاته، يلمح أن القصيدة العربيـة لم تتغير بنيتها غالبا على وفق ما يتطلبه الحديث عن الغناء؛ إذ لا تزال أكثر المعاني قوية مـصقولة، ولا تنفك أغلب الألفاظ جزلة غير بسيطة أو رقيقة، وكأن الشعراء أرادوا التباري والتنـافس وإظهـار القدرة الشعرية في هذا الشأن، فنَحوا إلى المحافظة على نهج انتهجوه في أغراض شعرية أخرى. عدا ذلك، فإن ما قيل عن الغناء إنما قيل في وصف المجالس أو المغنين أو الآلات، ولم يقل ليغنّى؛ إذ لـو كان الأمر كذلك لرقّت الألفاظ وسهلت المعاني على نحو ما نجد في الموشحات الأندلسية مثلاً.

ولقد شاعت في هذا القرن آلات موسيقية عديدة، منها ما هو وتري كالعود، ومنها مـا هـو هوائي كالمزمار والناي. وفي حين نجد في القرون السابقة للقرن الخـامس الهجـري أسـماء لآلات موسيقية كثيرة، مثل: السنطور، والنزهة، والكنارة، والرباب، والجوزة، غابت هذه الأسماء في أشعار القرن الخامس الهجري، وكأن بأذواقهم قد ألفت العود والطنبور والناي والمزمار.

وبهدف رسم صورة واضحة للغناء في القرن الخامس الهجري، فإن الحديث في الـصفحات اللاحقة سيتمحور في شقين: وصف مجالس الغناء والقيان والمغنين، وآلات الغناء.

١- مجالس الغناء، ووصف القيان والمغنين

ثمة ما يلفت الانتباه إذ نطالع ما قاله شعراء القرن الخامس الهجري في مجالس الغناء، وهـو أن هذه المجالس ترتبط ارتباطًا عضويا وثيقًا بالخمر وبالتغزل بالغلمان، ولا غرابة فـي هـذا؛ إذ لا يكتمل مجلس الغناء إلا بالعنصرين الأخيرين، وكذا الأمر معكوس؛ فمن عنده شغف بالغلمان، مثلاً، لا

يعفّ عن شهود مجلس غناء، أو عن معاقرة الخمر، وهكذا فإن هذه الظواهر الثلاث تشكل ثالوثًا غير منفصم العرى.

ولابن الخياط نظم في مجلس غناء شهده عند الأمير عضد الدولة، يقول فيه إن هذا المجلس طارد للهم، جالب للمسرة والفرح، يشدو فيه الغلمان بالغناء، وتدور فيه الخمر الرائعة، وفوق هذا كلّه، فإن المجالس محفوف برياض كأنها كواكب صغيرة[١]:

لنـا مجلِـس مـا فيـهِ للهـم مـدخَلٌ	ولا منـه يومـا للمسـرةِ مخْـرج
تـضمن أصـنافَ المحاسِـن كُلهـا	فلـيس لبـاغي العـيشِ عنـه معـرج
غِناء إلـى الفتيـان أشـهى مِـن الغِنـى	بـهِ العـيشُ يـصفو والهمـوم تُفَـرج
وروضا كـأن القَطْـر غـاداه فاغتـدى	يـضوع بِمِـسكِي النـسيمِ ويـأْرج
تـرى نُكَـتَ الأزهـارِ فيـهِ كأنّهـا	كواكـب فـي أُفْـقٍ تُنيـر وتُـسرج
ونـار تُـضاهيها المـدام بِنُورهـا	فَتَخْمـد لكِـن المـدام تـأَجج
كـؤوس كمـا تَهـوى النفـوس كأنهـا	بِنَيـل الأمـاني والمـآربِ تُمـزج
كـأَن القَنـاني والـصواني لِنـاظِرٍ	نجـوم سـماءٍ سـائراتٌ وَأَبـرج

ومجلس الغناء لا يعد مجلسا للهو إلا إذا دارت فيه الخمر، وغنّى فيه المغنون والقيان؛ إذ بهذا يكتمل الفرح، ويعم السرور، ويفوز الحاضرون بجائزتي: نشوة الشرب، ولذة الطرب. وإذا كان التزويج لا يتم، ولا يصح إلا بحضور شاهدي عدلٍ، فكذا مجالس اللهو لا يكتمل إلا بالشرب والغناء، يقول صردر في هذا المعنى[٢]:

زوج اللهـو بابنـةِ العنقـودِ	خاطبـا بالبـسيطِ أو بالنـشيدِ
وتمـام الإمـلاكِ فـي شـاهِدي عـد	لٍ همـا فـي حـضور نـاي وعـودِ
فـإذا مـا جمعـتَ ذاك فقـد فُـز	تَ بعقـدٍ يـسود كـل العقـودِ

وكذا صور الأرجاني مجلسا للغناء جلست فيها القيان يغنين، بينما تصب الخمر لشاربيها المتمايلين طربا، يقول[٣]:

ومجلـس أنـسٍ يفْـسِح الطَـرفَ مِلـؤُه	قِيـان تُغنـي وسـطَه وشـروب

وفي مجلس غناء، طلب أبو الحسن علي بن الحسين الموفقي الكرجي، إلى مغنٍ أن يطربه بذكر حبيبٍ هو سبب مرض الشاعر وبرئه، وفي هذا ما يشي إلى أن ثمة بواعث نفسية كانت تعتمل

---

(1) ديوان ابن الخياط، ص١٩٥-١٩٦.
(2) ديوان صردر، ص١٩١.
(3) ديوان الأرجاني، ج١، ص١٣٤

في نفوس بعض الشعراء، تحفزهم على حضور مجالس اللهو، يقول[(١)]:

فــإذا مــا توســطَ الــسكْر قلبــي ... والتــواطي تَبــبن بــين عِظــامي
فَأجِــد ضــربك المثــاني وعَــرد ... لــي بيبــتٍ يطيــب للمــستَهامِ
يــا نــسيم الجنــوبِ بلــغْ ســلامي ... مــن يكفيــهِ صِــحتي وســقامي

وخرج الشعراء ممن واظبوا على حضور هذه المجالس، بتجارب شـعرية رقيقـة المعـاني وصفوا بها القيان والمغنين، فهذا أبو منصور الخوافي يصف قينة غيداء دقيقة الخصر كانت تـرقص للندامى، وتغني عازفة بالعود، يقول[(٢)]:

غيـداء ناعمـةُ الأطـرافِ لـو عقَـدتْ ... يــد المــصافح منهــا أنمــلاً قــدرا
مجاذب فــي التهـادي خـصرها كفـلٌ ... يــؤود متنًــا فلــولا اللــين لانْبتــرا
عِطْــفٌ تَــرق قلــوب العاشــقين لــه ... عطفًـا عليـهِ إذا مـا اهتـز أو خَطَـرا
يـضرج الـوهم خَـديها فلـو خَطَـرتْ ... بالقلبِ فـي خطـراتِ الـشوقِ لانفطـرا
قامتْ علـى طَـربِ النـدمان راقـصةً ... بالعودِ تـرمح فـضلَ الـذيل والخُمـرا
فحركــتْ كــل قلــبٍ ســاكنٍ طربــا ... وقيـدتْ كـل طَـرفٍ يرجـع البـصرا
لم تَلْقَ عين امـرئٍ مـن قبـل رؤيتهـا ... شمس النهار أقلّـت فـي الـدجى قمـرا
غنتْ علـى مقتـضى الإيقـاع يـشفَعه ... صــوتٌ كنغمــةِ برصــوما إذا زمــرا
يــا مــسكِرا قبــلَ أن ذقنــاه أســكرنا ... ودرةً نثــرتْ فــي نطقِهــا دررا

وشبه ظافر الحداد قينة عوادة بأم مرضعةٍ، العود رضيعها الذي ينام في حجرها[(٣)]:

ومليحــةِ النغَمــاتِ تَحــسب عودهــا ... طِفْــلاً وتَحــسبها عليــهِ مرضِــعا
أبــدا تَــراه مقَمطًــا فــي حِجرهــا ... حــاز المعــالي قبــلَ أن يتَرعرعــا
ولربمــا ضــربتْه ضــربا موجِعــا ... فَــسمِعتَه مِــن ضــربِها متَوجعــا
غنــتْ فَأغْنَــتْ والغنــاء غناؤهــا ... ثــم انثنــتْ كيمــا تقــولَ فَتُــسمِعا

بيد أن أكثر من تغنّى بهم شعراء القرن الخامس الهجري- على ما يبدو- هـم الغلمـان؛ إذ يسجل كثير من الشعراء أوصافًا لهم فاقت ما وجِد من أوصافٍ للقيان، وكان يعجبهم في المغني ملاحة وجهه، وطرافة أغانيه، وتعدد ألحانه، يقول الشريف العقيلي[(٤)]:

ألا رب ملْــــهٍ لــــه قامــــةٌ ... تُقــيم قِيامــةَ هِيــفِ الغُــصون
يتيــه بِــردفٍ كثيــر الحــراكِ ... ويزهــى بِخَــصرٍ كثيــر الــسكُون

(1) دمية القصر، ج١، ص٣٧٥.
(2) المصدر نفسه، ج٢، ص٣٤١.
(3) ديوان ظافر الحداد، ص٢٠٨.
(4) ديوان العقيلي، ج٢، ص٢٨٧- ٢٨٨.

مليح البنان فصيح اللسان   غريب الأغاني عجيب اللحون
دعوناه يوما إلى عِنْدِنا   لِنَلْتَذَّ منه بتلك الفنون
فلما تَبَدّى لنا وجهه   نَهبنا محاسِنَه بالعيون

وأكثر الشريف العقيلي من وصف المغنين، يقول في مغنٍ حسن الوجه كالغصن يتمايل، ما إن يغني حتى ينهي القوم أحاديثهم ويغنون معه متناسين همومهم[1]:

بدا فَحَسِبناه بدرا منيرا   ومالَ فَخِلْناه غُصنًا نضيرا
مغَنٍّ عوائد عيدانه   تزيلُ الهموم وتُبدي السرورا
ترانا إذا ضمّنا مجلس   نُميتُ الحديثَ ونُحيي النعيرا
ولا عُذْر للأسْدِ في غابِها   إذا نَعِمَ الظبي ألا تزيرا

ولعل ما جعل العقيلي مكثرا وصفَ المغنين، كثرةُ شهود مجالس الغناء؛ إذ كان يشهدها يوميا، فإن أجاد المغنى انتشى (العقيلي) ورفاقه وسمعت أصوات أقداحهم[٢]:

وفي كل يومٍ لنا مسمِع   رخيم الغناءِ رخيم الوتَر
إذا ما تَغَنّى على صب غدا   ومغْنَى صبابتِهِ قد دثَر
فإن كان زاهِره حاذِقًا   زمرنا بأقداحنا إن زمر

وله في مغنٍ يزمر بتيهٍ، مفرقًا هموم مستمعيه، كلما ضرب مثاني العود[٣] ابتهجت على ألحانه أقداح الخمر[٤]:

ولنا زاهِر يتيه بزمرٍ   لاجتماع الهموم منه افتراقُ
ومغَنٍّ له طِراز عِذارٍ   فوقَ خَدٍّ له حواشٍ رقاقُ
كلّما أرعدتْ مثانيهِ أضحى   للأباريق بيننا إبراقُ

وفي مغن أهيف حلو الحركات، حسن الأداء، يقول[5]:

لقد تكاملَ فيهِ اللين والهيفُ   لراقصٍ كل ما يأتي به طُرفُ
إيقاعه كمعانٍ غير ناقصةٍ   وحثه كقَوافٍ ليس تَخْتَلِفُ
يبدي لنا حركاتٍ في تَخَلعِهِ   كأنها رجز ما فيهِ مُنْزحِفُ

ويبدو أن ملامح الوجه لا تزال مقدمة على جمال الصوت، يقول العقيلي في مغن مهذّب لا يغتر بجمال شدوه[٦]:

---

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص١٣٨.
(2) المصدر نفسه، ج١، ص١٧٤.
(3) المثاني: جمع مثْنى، وهو الوتر. لسان العرب، مادة (ثنى).
(4) ديوان العقيلي، ج٢، ص٢١٦
(5) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٠٩.
(6) المصدر نفسه، ج١، ص٦٣.

وعِنْـدنا مـسمِع تُغْنيـك طَلْعتُـه | عـن شَـدوِه ولَـه فـي نفـسِهِ أدب
يـشدو فَينْتَهـب الألبـاب مـن طَـربٍ | ولا يداخِلُـه زهـو ولا عجـب

وفي مغن آخر، مهذّبِ الخلق، يقول[١]:

وزاهِـر يكـذب فيـهِ عائبـه | تعجبنـي فـي زمـرِهِ عجائبـه
مهـذب أخلاقُـه مناقِبـه | يحجـب صـبر المـرءِ عنـه حاجِبـه
ويـسكِر الـشارب منـه شـاربه | كأنمـا ناياتُـه ذوائِبـه

٢- آلات الغناء

كان للهو نصيب الأسد في أشعار الغناء في القرن الخامس الهجري؛ إذ ورد كثيرا في أشعار العقيلي، والطغرائي، وأبي المحاسن، وظافر الحداد، وغيرهم. وللعود اسم آخر ورد في بعـض هـذه الأشعار وهو المزهر، وسميت أوتاره أحيانًا بالمثاني ولا أدلّ على شيوع الضرب على العود مـن أن ظافرا الحداد، طُلِب إليه نظم أبيات تنقش على العيدان، فقال في مرة[٢]:

انْظُر إلى حِكَـمِ الـصنّاع فـي عملـي | وانْظُـر بـدائِع مـا يأتيـك مِـن قِبلـي
إنـي لأُطْـرب سـمعا لَـيس يطْربـه | إلا صـليلُ القَنـا فـي مهجـةِ البطَـل

وقال في ثانية واصفًا العود بأنه مفتاح لهوٍ يضرب أوتاره مغن مليح جواد ذو مناقب[٣]:

أنـا مِفْتـاح الملاهـي والطـرب | هيئَتـي ظَـرفٌ وأحـوالي عجـب
أنـا فـي مجلِـسِ ملْـكٍ قـد حـوى | شَخْـصه حـسنًا وجـودا وأدب

والبربطاني اسم من أسماء العود، يقول العقيلي في واصفًا [٤]:

وبربطـاني غـدا | مـستحكما وسواسـه
يرفـع عينيـهِ إلـى | كـل مكـانٍ راسـه
فُـوه لـه خَريطـةٌ | كمخَتُهـا أضراسـه
فـإن رمـى فإنّمـا | بنْدقُـه أنفاسـه

ولعلّ العود يكتسب قيمة أعلى إذا ما حمله مغن مجيد حملاً دالاً على إتقانه الضرب والغنـاء، يقول، في هذا، أبو سليمان رحمة بن غانم الأسدي[٥]:

---

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص ٧٠-٧١.
(2) ديوان ظافر الحداد، ص ٢٤٦.
(3) المصدر نفسه، ص ١٢.
(4) ديوان العقيلي، ج٢، ص ١٨٥-١٨٦.
(5) دمية القصر، ج١، ص ٨٧.

وعـــودٍ تُغَنّـــي بـــهِ طَفلـــةٌ سَـــــديد الغنـــــاءِ باتّـــــساقِها
قَـــشَبهتُ فـــي كفهـــا عودهـــا بِفَخْـــذِ الجـــرادةِ مـــع سَـــاقِها

ويبكي أسعد بن علي البارع فتيات كواعب من بينهن قينة حسنة ألحانها، خفيفة حركاتها على أوتار العود[1]:

لآلـئُ دمعـي مـن فِـراق الكواعـبِ فَلِـم هـي فـي أفواههـا والترائـبِ؟
وفـيهن طـاووس الحِـسان بِحـسنها وألحانِهـا تُـزري بلحـن العنـادِبِ
إذا جـستِ الأوتـار مـستْ بأنْمـل لِطـافٍ حكَـتْ عقـدا أنامـلَ حاسِـبِ

ويبدو أن أجمل ليالي السمر كان للعود فيها حضور ملحوظ، يقول الشيخ أبو نصر الحسين بن أسد الفارقي[2]:

أيـــا ليلـــةً زار فيهـــا الحبيـــب أعيـدي لنـا منـكِ وصـلاً وعـودي
فـــــإنّي شَـــــهدتُكِ مـــــستَمِتعا بـــهِ بـــين رنـــةِ نـــاي وعـــودٍ
وطِيـــبِ حـــديثٍ كزهـــر الريـــاضِ تَـــضوع مـــا بـــين مِـــسكٍ وعـــودِ

واستبشر الطغرائي بانقضاء ليالي رمضان وقدوم العيد، فوجه دعوة إلى لهو تدور فيه الخمر، وتُضرب العيدان، يقول[3]:

قومـــوا إلـــى لـــذاتِكُم يـــا نِيـــام ونَبهـــوا العـــود وصـــفوا المـــدام
هـــذا هـــلالُ الفِطْـــرِ قـــد جاءنـــا يِمِنْجـــلٍ يحـــصد شـــهر الـــصيام

وللعقيلي في وصف مغن فصيح حلو الصوت يضرب على العود[4]:

عنـــدي تِبـــر عِنَيـــي المعـــدِن مرصـــــع بالحبـــــبِ المـــــسفن
ومـــــسمِع مِزهـــــره كـــــالأرعَن يطْربنـــا منـــه بـــصوتٍ أرعـــن
إن مـــرَ فِـــي الحانـــةِ لـــم يلْحـــن محاســـن مـــا اجتمعـــتْ لِمحـــسِن

وانتشرت الآلات الهوائية (آلات النفخ) إلى جانب الآلة الوترية (العود)، فالمزمار عنـد محمد بن أبي نصر ابن عبد ا ثالث ثلاثة لا رابع لها (بعد الخمر والنديم) تجلب لـه المـسرة والتباشير، يقول[5]:

ثلاثـــــةٌ لـــــيس لهـــــا رابـــــع عنـــدي إذا رمـــتُ تباشـــيري:
راح كمـــا أرضـــى وروح كمـــا أهـــوى وريـــح فـــي المزاميـــر

---

(1) دمية القصر، ج٢، ص٤٥٣.
(2) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٤٢٣.
(3) ديوان الطغرائي، ص٣٦٤.
(4) ديوان العقيلي، ج٢، ص١٧١.
(5) دمية القصر، ج٢، ص٤٠٥.

ووصف الشريف أبو الحسين علي بن حيدرة زامرا مجيدا جميلاً متقنًا صنعتَه، وكأن ناياته التي ينفخ فيها خصال شعره[١]:

وزامــرٍ يكْــذِب فيــهِ عائِبُــه   تكْثُــرُ فِــي صنْعتِهِ عجائِبُــه
يحجُب صبر المـرءِ عنـه حاجِبُـه   ويُسكِر الـشارب منــه شـاربه
كـأنّمـا نـأيـاتُـه ذوائِبُـه

وللعقيلي في نافخةِ ناي تسد نغمات زمرها عن الغناء[٢]:

نــاي كأنّــون النــاي   لِغــادةٍ غيــداءِ
لِزمرهــا نَغَمــاتٌ   هــن الغِنــى لِلغِنــاءِ
كأنمــا نفخُهــا فــي   ذُؤابــةٍ ســوداءِ

وينضاف إلى العود والناي والمزمار، الطبولُ، فقد ورد ذكرها في قول الطغرائي[٣]:

خَفْــقُ الطبــول وزمــرةُ النــدمان   وهتــوفُ أطيــارٍ وعــزفُ قِيــان

وإن كان ثمة ما يقال في خاتمة الحديث عن الغناء وآلاته، فهو إن العصر العباسي انماز بكثرة الرقيق والجواري، حتى إن قصور كثير من الخلفاء والوزراء وعلية القوم اكتظت بهم. ولما كان هؤلاء الرقيق والجواري من أجناس وثقافات وحضارات مختلفة، وكان منهم من يجيد الغناء والضرب على آلاته، وكان للغناء –أيضا- أثر في مجتمع العصر العباسي؛ إذ ملأ حياة كثير منهم، واستأثر بقلوبهم؛ فقد شاع الغناء آنذاك وكثرت مجالسه، واقترن بهذا الظرف شيوع مجالس الخمر، والتغزل بالغلمان، وكان لذلك كلّه كبير الأثر في الشعر والشعراء، وقد امتد هذا التأثير حتى وصل إلى القرن الخامس الهجري، الذي كانت فيه الجواري والقِيان والغلمان من العوامل الفاعلة في انتشار الظرف والرقة، كما تبين في الصفحات الفائتة.

ج- الشغف بالغلمان

تنبئ أشعار القرن الخامس الهجري عن حالة من الشغف بالغلمان تذكّر بتلك التي كانت في القرن الذي سبقه. بيد أن من الشعراء من تغزل بالغلمان على نحو فاق كثيرا غيره، وتشي الدواوين المستقراة بأسماء كَلِفَ أصحابها بالغلمان، ويقف على رأس هؤلاء: الشريف العقيلي، والفقيه أبو المجد، وأبو يعلى بن الهبارية، والصوري، والأرجاني.

---

(1) خريدة القصر، قسم شعراء مصر، ج٢، ص٦٣
(2) ديوان العقيلي، ج١، ص٣٩.
(3) ديوان الطغرائي، ص٤٠٥.

وحقيقة الأمر، أن التغزل بالغلمان كان إبان القرن الخامس الهجري ظاهرة مستفحلة، ارتبطت بمظاهر الترف والبذخ اللذين ميزا - على نحو لافت - الحياة الاجتماعية في هذا القرن، نقـول هـذا مسلّمين أن هذه الظاهرة لم تكن من ابتداع شعراء القرن الخامس، الذين تغزلـوا بالغلمـان مجـاراة لشعراء عباسيين سبقوهم، وتقليدا لهم، وإظهارا لمقدراتهم الشعرية وتمكّنهم.

ولقد ظلت هذه الظاهرة موجودة في القرون اللاحقة؛ إذ خرج شهاب الدين أحمد بن يوسـف التيفاشي القيسي (ت٦٥١هـ) بكتاب جمع فيه الكثير من ملح الأشعار التي تغزل أصحابها بالغلمـان؛ على نحو حيي تارة، وعلى نحو سافر ماجن تارة أخرى.

ولم يسِر الشعراء في ولعهم بالغلمان على نسق ثابت ومنهج واحد؛ إذ اختص بعضهم غلاما، وتغزل بعضهم بكلّ غلام أو أمرد أعجبه حسنه، فالشريف العقيلي - مثلاً - نظم، فأكثر، فـي غـلام اسمه بركات، كما تغزل بغيره من الغلمان. وبركات هذا غلام عذب أدعج الطرف، يتثنّى في مـشيه ويتيه كالغصن، يقول العقيلي فيه[(1)]:

إذا مـا زارنـي بركـاتُ يومـا ... فـذاك أبـرك الأيـامِ عنـدي
رشَـأٌ مـن ريقِـه راحـي إذا مـا ... ظفـرتُ بـهِ ومـن خَديـهِ وردِي
لـه صـدغٌ كـصد بعـد وصـلِ ... علـى خَـد كوصـلٍ بعـد صـد
يتيـه علـى الغـصون إذا تثنّـى ... بِلـين معـاطِفٍ وبِحـسن قـد
إذا مـا كـان عِـشْقُ فتًـى لِـنَحسٍ ... فمـا عِـشقي لـه إلا لِـسعدي

لقد كان يوم زيارة بركات الشريفَ العقيلي يوما مباركًا؛ فهو غزال كأن ريقه خمـر، وخـداه متوردان، إذا مشى تاه وتثنّى. ويكره الشريف العقيلي كلّ من يصده عن بركات أو يلومه فـي حبـه، يقول[(٢)]:

لا بـارك اُ فـيمن ... يـصد عـن بركـاتِ
غـصن أذاقَ لِحـاظي ... حـلاوةَ الحركـاتِ
لـه صـحيفةُ وجـهٍ ... خَلاّبـةِ الألفـاتِ
ولائـمٍ لِـي فيـهِ ... علـى الحبيـبِ المـواتي
سـاررتُه بحيـاتي ... إن لُمتَنـي فـي حيـاتي
مـا يحـسن الـصبر عمـن ... هـواه مِـن حـسناتي

---

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص١٣٠.
(2) المصدر نفسه، ج١، ص٨٧.

بل إن بركات، عند الشريف العقيلي، له من اسمه حظ وافر؛ فهو زكي رائحة الفم، جمعت له خلائق وفيرة لو كانت قطنًا لصنعت منها الحلاّت الحريرية، يقول في هذا المعنى[(1)]:

بركـــاتُ عنـــدي كاســـمِهِ بركـــاتُ ظَبْـــي طرائـــفُ طَرْفِـــهِ اللحظـــاتُ
إن جـــاء مِـــن فمـــهِ إليـــك بجونَـــةٍ جاءَتْـــك مـــن كافورهـــا النفَحـــاتُ
غُـــصن إذا مـــا قـــام يجلـــو قـــده كانـــتْ جـــلا أعطافِـــهِ الحركـــاتُ
متَخَـــصص بِخَلائـــقٍ لـــو أنهـــا قُطْـــن غَـــدتْ منهـــا لنـــا حِبـــراتُ[(٢)]
لـــو لـــم يكُـــن حبـــي لـــه ريحـــا لَمـــا كثُـــرتْ بموســـمِ حبـــهِ المهجـــاتُ

وأسهر بركاتُ الشريفَ العقيلي وأسهده، وأتعبه غنجه وسحره، وما كان صبر العقيلي ليخف لولا أنه كان يجد من بركات بعض الوصال، يقول[(٣)]:

تُـــرى بركـــاتُ، بـــورك فيـــهِ، بـــدري بمـــا ألقـــاه مـــن ســـهرٍ وفِكْـــر
غـــزالٌ إن لحـــاني فيـــهِ لاحٍ يقـــوم عِـــذاره عنّـــي بعـــذري
رنـــا فَرمـــى فـــؤادي منـــه طَـــرفٌ لـــه ســـهمان مِـــن غَـــنْجٍ وسِـــحرِ
فلـــولا رنـــةٌ فـــي فيـــهِ خَفَـــتْ علـــى ســـمعي إذًا مـــا خَـــف صـــبري

وتغزل الشريف العقيلي بغلام، قائلاً [(٤)]:

شـــــاربه فيـــــــروزج وحاجبـــــــاه ســـــبج
ظَبْـــي لـــه مرتَـــشَفٌ عـــذْب وطَـــرفٌ أدعـــج
كأنمـــــا عارضـــــه وصـــــدغُه المنْعـــــرج
غِلالـــةٌ مـــن سوســـنٍ طِرازهـــا بنَفْـــسج

فالشاعر يصف الغلام مشبها حاجبيه بالميزان، وقائلاً إنه ظبي أدعج عذب الفم، تدلّى شعره ما بين عينيه وأذنيه، فغدا وجهه كالسوسنة المحاطة بالبنفسج

وراق له غلام فارسي غَنِج جميل الطرف أصهب الشعر، في مشيته تيه وتثن، كأن ما سال على خده زعفران[(5)]:

صـــاد قلبـــي بِغُـــنْجِ طَـــرفٍ ســـحورِ أَصـــهب الـــشعر مـــن بنـــي ســـابورِ
يتثنّـــى كأنـــه غُـــصن بـــانٍ هـــز عِطْفَيـــهِ فـــي ثـــرى ممطـــورِ
وكـــأن العِـــذار فـــي الخَـــد منـــه زعفَـــران غَـــض علـــى كـــافورِ

---

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص٨٦-٨٧.
(2) جمع حبرة، وهي الحلّة من الحرير. لسان العرب، مادة (حبر).
(3) ديوان العقيلي ، ج١، ص١٧٧.
(4) المصدر نفسه، ج١، ص٩٣.
(5) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٦.

وقال يصف أمرد رآه في الحمام، بعد أن بزغ الصبح وصحا من سكره[1]:

ولما تبدى الصبح في أثر الفجر ... وسار الدجى عنّا بأنْجمِهِ الزهر
عدلْتُ إلى الحمام عن منْهج الكرى ... وجئتُ إليهِ هارباً من يدِ السكْرِ
فأبصرتُ فيهِ شادناً كان جسمه ... أرق من الماءِ الذي فوقه يجري
له عرقٌ في وجنَتَيهِ كأنه ... ندى فوق وردٍ أو حباب على خمر
فكنتُ كأنّي في السماءِ أتيتُها ... وقد نُثِرتْ منها النجوم على البدر

فجسم هذا الفتى رقيق طري، ووجنتاه كما الورد، وحبات الماء على هاتين الوجنتين تظهر مثل الندى فوق الورد، أو مثل الحباب على الخمر، وكأن حبات الماء تلك على وجنتيه نجوم نُثرت على البدر.

وقال يصف خالاً على خد غلام، فكأنه سواد العين وسط احمرار الرمد[2]:

وشاربٍ مثل نِصفِ الصادِ صاد بهِ ... قلبي رشاً ثغره أنقى من البردِ
كأنما خالُه من فوق وجنَتِهِ ... سواد عينٍ بدا في حمرةِ الرمدِ

وتعلّق قلب أبي يعلى ابن الهبارية بالغلمان على نحوٍ شبيه بما كان عليه الشريف العقيلي، فلقد تغزل بغلام هندي ذي شفة سمراء، ضامر البطن، دقيق الخصر، حسن القوام، قليل اللحم، ينسال شعره بين عينيهِ وأذنيه، ويطره على جبهته مصفّفًا، يقول[3]:

أخضر هندي لمى[4] كلُّه ... والصارم الهندي ذو خُضره
مهفْهفُ الأعطافِ ممشوقُها ... مبلْبلُ الأصداغ والطره

ووصف ابن الهبارية غلاما منشرا شعره، متثنيا في نعومته، يميد بمشيته لابسا زنارا على وسطه، وخده أسيل به استطالة، يقول[5]:

يبلْبِلُ مني العقلَ صدغ مبلْبلٌ ... ويملك مني القلب أغيد أسمر
وقد كغصن البان يهتز مائدا ... وخصر على الردفِ الثقيل مزنر
وخَد أسيلٌ تحتَ صدغٍ مشَوشٍ ... على طِرسِهِ سطْر من الحسن أخضر

ويبدو أن لابن الهبارية معاييره الذوقية الشخصية في الغلام؛ إذ يميل إلى من به هيفٌ، يقول في غلام جميل كالبدر في تمامه، حتى لكأن جماله مصدر عذاب للناس؛ إذ يرتج عجزه كقطعةٍ من الرمل مستديرةٌ، ويسدل شعره على وجهه[6]:

---

(1) ديوان العقيلي، ج١، ص١٤٢.
(2) المصدر نفسه، ج١، ص١٢٠.
(3) خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص٩٨.
(4) اللمى: سمرةٌ في الشّفة تُستحسن. لسان العرب، مادة (لمى).
(5) خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص١٠٢.
(6) خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص١٠٩.

وأهيـــفُ كالبـــدر فـــي تِمـــهِ | علـــى عـــذابِ النـــاسِ قـــد وصـــي
قامتُـــه كالغُـــصن مهتَـــزةٌ | فـــي كفَـــلٍ يـــرتَج كالـــدعص
طُرتُـــه ليـــلٌ علـــى غُـــرةٍ | نُوريـــةٌ تَلْمـــع كـــالقُرص

ويتمنّى الوصال من غلام أهيف حسن[١]:

يـــا حبـــذا أهيـــفُ، خَـــط | حـــسنِهِ حلْـــو الـــنمطْ
حلْـــو الـــصبا، فـــي خَـــدِهِ | بالمـــسكِ والعنبـــر خَـــطّ

ويؤكّد أبو يعلى ابن الهبارية صورة نمطية درج على التسليم بها، وهي اقتران التغزل بالغلمان بمجالس الخمر؛ إذ يدعو غلاما ليناوله الخمر، عاقدا بينهما مقارنة لطيفة، فالخمر في شدة احمرارهـا تشبه خد الغلام، وهي ما تمزج به كالبدر رسمت له الأفلاك زردا من الدروع، كأن كفّ الغـلام قـد اصطبغ بلون الشاعر وتعصفر به[٢]:

قُـــم يـــا غـــلام، فَهاتِهـــا | حمـــراء، فالتفـــاح أحمـــر
قـــانٍ كخَـــدك، بـــين ريـــ | ـــحانِ كعارضِـــك المـــسطر
فكأنهـــا، والمـــزج يلْـــ | ـــبِس رأســـها إكليـــلَ جـــوهر
بـــدر الـــدجى، صـــاغَتْ لـــه الـــ | أفـــلاك نجـــم الجـــو مِغْفَـــر
وكـــأن كـــف مـــديرها | مـــن لـــوني القـــاني معـــصفَر

والصورة النمطية هذه (اقتران التغزل بالغلمان بمجالس الخمر) أكّدها شـاعر آخـر شـغف بالغلمان، وهو عبد المحسن الصوري؛ إذ ذكر مجلسا فيه غـلام يهـواه، ومغـن اسـمه فـرج، رآه الصوري- لشدة إعجابه به- مفرج الغم والهم[٣]:

يـــا رب يـــومٍ ظَلْـــتُ فيـــهِ | ينَعمـــةٍ فـــي دار نِعمـــه
لمـــا غـــدا فَـــرج بِـــسا | حتِهـــا يفـــرج كـــل هِمـــه
ومدامـــةٍ صـــفراء لَـــم | يتـــرك لهـــا فـــي الهـــم هِمـــه
يـــسعى بهـــا مـــن مهجتـــي | مِـــن مقْلتيـــهِ مـــستَزِمه
كـــان الملِمـــةَ ثـــم صـــا | ر حـــضوره دفْـــع الملِمـــه

ورغم بكائه من غلام أمرد من أهل صور، فإن الصوري يرى أن هذا الغلام هـو مـن أذاع سرهما؛ لأنه كان سببا في بكائه، يقول[٤]:

خَـــل عينـــي والكَـــرى | مـــا كـــذا كـــان بينَنـــا

---

(1) خريدة القصر، قسم العراق، ج٢، ص١١١.
(2) المصدر السابق نفسه، قسم شعراء العراق، ج٢، ص ٩٨.
(3) ديوان الصوري، ج٢، ص٦-٧.
(4) خريدة القصر، ج٢، ص ٤٨.

أو فـ ـ ـ ـ ـ ـإن لاح منهمـ ـ ـ ـ ـ ـا   فـ ـــي البكـ ــا بعـ ــض بـ ــرنا
مـ ـ ـ ـن يكـ ـ ـ ـون الـ ـ ـذي أذا   ع الهـ ـ ــوى أنـ ـ ــتَ أم أنـ ـ ــا؟

ولقي الصوري غلاما، فسأله عن اسمه، فقال: صعلوك، فشُغف به، ورجـاه أن يكـون لـه مملوكًا وأن يغير اسمه بعد ما سحرته جفونه، فهو أولى منه بهذا الاسم[1]:

ازجر جفونَكَ عـن قلبـي فقـد ظَفِـرتْ   واسـتَبِقني لـك دون النـاسِ مملوكـا
ولا تَعـد تَتَسمى بعـد مـا ملَكَـتْ   قلبـي جفونُـك يـا صـعلوك صـعلوكا

ووصف غلاما اسمه مقاتل قائلاً إن جفونه تُغني عن السيوف الصوارم[2]:

قاتِـلْ فقـد وجـب الجهـا   د علـى جفونِـك يـا مقاتِـلْ
وسـ ـ ـ ـ ـ ـهامها نَفّـ ـ ـ ـ ـ ـاذَةٌ   فـ ـ ـي الـ ـ ـسامرياتِ القَواصِـلْ
تُغْنيـك عـن بـيضِ الـسيو   فِ وشَـرعِك الـسمر الـذّوابِلْ
ناضِـلْ بهـا أرمـى الرمـاةِ   فأنـتَ تَنْـضلُ مـن تُناضِـلْ
واتـ ـ ـرك منازلـ ـ ـةَ القلـ ـ ـو   بِ فلـيس فيهـا مـن تُنـازِلْ

وقال في غلام صده وهجره، اشتهر بجمال شعره المنسدل وبحسن خديه[3]:

ما كان يـدري كيـفَ يـصبح هـاجرا   والغِـر تجعلُـه التجـارب مـاهرا
رشـأٌ سـمعتُ لـصدغِهِ ولخـدِهِ   فـي هـذِهِ الـدنيا حـديثًا سـائرا
فـإذا رأيـتَ عليـهِ طِرفًـا واقعـا   فـاعلم بـأن هنـاك قلبـا طـائرا

وللأرجاني قصيدة متعددة القوافي، يتمنّى فيها معاقرة الخمر المجلوبة من القُفْص[4]، ويتمنـى أن يسقيه الخمر فتًى يافثي (نسبة إلى يافث بن نوح) ذو طرف، بابلي ساحر، ذو ثغر جميل إن لثمـه روي كما تروي الخمر شاربها، وهو أغيد ذو شعر مسترسل، وخدين أحمرين متوردين، يكشف عنـد ضحكه عن ثنايا بيضاء أشبه باللؤلؤ، ويمشي بتيه ودلال وتمايل، يقول[5]:

هلْ لـك فـي حمـراء مثـل الحـص   ياقوتـةٍ قـد شُـربتْ بِـرخْصِ
مجلوبـةٍ مـن معـدِنٍ فـي القُفْـصِ   تلـوح فـي الإصـبع مثـلَ الفَـص
يـسعى بهـا عليـك يـافِثي   وطَرفُـه الـساحِر بـابِلي
وثغـ ـ ـره كَكأسِـ ـ ـهِ روي   وورده كخـ ـ ـ ـ ـدِه جنِـ ـ ـي

---

(1) ديوان الصوري، ج١، ص٣٤٢.
(2) المصدر نفسه، ج١، ص٣٩٥.
(3) المصدر نفسه، ج١، ص١٤٥.
(4) القُفْص: بالضم ثم السكون، وآخره صاد مهملة، قرية مشهورة قريبة من بغداد، وكانت من مواطن اللهو ومجالس الفرح، تُنسب إليها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة. انظر: معجم البلدان، ج٥، ص ٣٨٢.
(5) ديوان الأرجاني، ج٣، ص١٥٨٧-١٥٨٨.

أَغْيدُ يومَ وصلِهِ تأريجُ ... لِصدغِهِ من نَفْسِهِ تَضميخُ
والجمرُ في خَدّيهِ لا يبوخُ ... كما يحِلُ العقْربَ المريخُ
يضحكُ من تشبيبِ عاشقيهِ ... عن لؤلؤٍ نَظْمُهم شَبيهِ
فلا يزالُ مظهرا للتيهِ ... يدر فيهِ أو يدر فيهِ

وافتتن الأرجاني بغلام تتمايل أعطافه، شعره أسود كالليل، وخده كأنه المصباح نورا وضياء، وهما (أي الشاعر والغلام) نديمان يثملان من غير خمر، ويختلي أحدهما إلى الآخر متعفّفَين(١):

ومرنحِ الأعطافِ تَحسب صدغَه ... ليلاً، وتَحسب خَدّه مِصباحا
صلِفٌ له سلطان حسنٍ قاهرٍ ... يأبى، إذا ملَكَ الفتى، إسجاحا
بِتنا نَديمي خَلْوةٍ في عِفّةٍ ... متَساقِيين، ولا زجاجةَ، راحا
راحا تعاطاها السقاةُ نفوسها ... منّا، ولم تُمدِد إليها راحا

ووصف غلاما تركيا يضرب بالدبوق، قائلا(٢):

وطالعٍ من مشرق القَباءِ ... في ليلةٍ من صدغِهِ ليلاءِ
مثل طلوع البدر في الظلماءِ ... ينظر من صادقةٍ دعجاءِ
كشَقةٍ في شعرةٍ سوداءِ ... لقيتُه في غِلْمةٍ أَكفاءِ
تلاعبوا في عرصةٍ فيحاءِ ... فثار مثلَ الظبيةِ الأدماءِ
منْفَلِتاً بقامةٍ ميلاءِ ... وعابثًا بكُرةٍ شَعراءِ
عجيبةٍ تُضرب في الهواءِ ... بصولَجانٍ صادق الإيماءِ
يصان للإعزاز في الغشاءِ ... لم يبر من أيكتِهِ الخضراءِ
كلا، ولم يعر من اللحاءِ ... فينثني يبسا بلا انثناءِ
بلْ هو رطب كلسان الماءِ ... أنعم ساقي بانةٍ غنّاء
يخْتَلِس الخطفةَ في وحاءِ ... مثلَ اختلاسِ العين للإغضاءِ
يسرقُ من شمائل الظباءِ ... نقرا يواليهِ على أنْحاءِ

فهو غلام شديد سواد الشعر، أدعج العينين، يلعب مع أترابه فينفلت منهم بقامته المتهادية التي تتلوى كما يتلوى الغصن إذ يواجه عاصفة هوجاء.

وللفقيه أبي المجد قعدان بن كثير البالسي نظم في غلام غدت ثناياه صفراء رعبا من القِصاص؛ إذ هو سافك دم الشاعر، يقول(٣):

ومشهرٍ غضتْ محاسنُه ... عنه العيون فصار محتَجِبا

(1) ديوان الأرجاني، ج١، ص٣١٢.
(2) المصدر نفسه، ج١، ص ٩-١٤.
(3) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٢٣٠.

خافَـتْ ثنايـاه القِـصاص وقـد ... سفكتْ دمي فتَـصفرتْ رعبـا
فكأنّمـا رصـافُ مبـسِمِهِ ... حقَـر اللجـين فـصاغه ذَهبـا

ويغبط أبو المجد قيّم غلام دلّكه في حمام قائلاً[1]:

بـشرى لِقَيمـهِ إذا باشَـرتْ يـده ... جـسما تَولـد بـين المـاءِ والنـور
مـا زالَ يظهـر لطفًـا مـن صـناعتِهِ ... حتى جنى الِمـسك مـن تمثـال كـافور

يتضح مما سبق، أن التغزل بالغلمان ضرب من الشعر تبارى الشعراء فيه[2]، ولسنا نعلم إن كان ما سبق من مقطوعات غزلية في المذكر قد جاءت تقليدا أو إظهارا لقدرة شعرية حرص عليها الشعراء، أم أنها كانت تمثل جوانب سوء أو انغماس في المجون حسب. بيد أن اندراج اسم الفقيه أبي المجد في قائمة الشعراء المتغزلين بالمذكر يشي بأن الرأي الأول هو الأقرب إلى الصواب؛ إذ لا يستقيم في عقل أن يكون مثل هذا الفقيه قد انحدر إلى درك ذي شبهةٍ.

إذن، لا نستطيع أن نذهب إلى أن هذه المقطوعات الغزلية في المذكّر كانت تمثّل السوء والشر، وأغلب الظن أنها كانت تُقال تقليدا أو تظرفًا [3].

د- الرياضات الذهنية والجسدية

١- الرياضات الذهنية

مارس العباسيون في القرن الخامس الهجر رياضات ذهنية عدة؛ بهدف اللهو والتسلية، وكانت رياضتا: الشطرنج والنرد من أبرز تلك الرياضات.

أ- الشطرنج : الشطرنج لعبة كان أناس هذا العصر يتلهون بها، وقد عرفها المسلمون في عهد الرشيد، ثم انتشرت بين العرب، وكانوا يلعبون على قطعة مربعة حمراء من أدم، والمشهور أنها اختراع هندي[4].

ولهذه الرياضات العقلية قواعد خاصة بها ومسميات أقرب ما يكون إلى مسميات آلة الحرب والقتال، ولعل ذلك راجع إلى أن هذه اللعبة تمثل ساحة حرب يتقاتل فيها جيشان. ولما كان لا بد في الحرب من منتصر يقابله مهزوم، فإن طرفي لعبة الشطرنج كذلك رابح وخاسر.

---

(1) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج٢، ص٢٢٩-٢٣٠.

(2) للاستزادة انظر: ديوان ابن الخياط، ص٢٢٠، ٣٠٠، وديوان الأبيوردي، ج٢، ص٢٨، وخريدة القصر، قسم شعراء الشام، ج١، ص٢٢٢، والمصدر والقسم نفسهما، ج٢، ص١٢٦، ١٧٨-١٧٩، ٤٤٥، والمصدر نفسه، قسم شعراء العراق، ج١، ص١٢٧، والمصدر نفسه، قسم شعراء مصر، ج٢، ص٢٠٤، ودمية القصر، ج١، ص٢٠٦، ٣٦١.

(3) عبد المهدي، عبد الجليل، (١٩٧٧م)، الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري، ط١، عمان، مكتبة الأقصى، ص٩٩.

(4) حسن، تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٤٦٠.

وقد مارس هذه اللعبة أناس يمثلون طبقات المجتمع العباسي كلها، فمنهم العامة ومـنهم الخاصة، حتى إن لاعبها كان يوصف بالأدب والفضل، وفي ذلك يقول الغزي[1].

انظـر إلـى الـشطْرنْج كـان كُماتُهـا خَـشَبا وميـدان الطـرادِ أديمـا
هـي عنـدنا أدب وقولُـك حجـةٌ وإليـك فـي كُـل الفـضائل يومـا
فمتـى تَفَـرزن بيـذَقٌ لـم يعتَـرك هِـن دونـهِ زِنْـج يكـافح رومـا

فالشاعر إذ يخاطب ممدوحه قائلاً إنه يشار إليه في الفضائل جميعها، فإنه يؤكد أن لعبة الشطرنج إحدى تلك الفضائل؛ فهي لعبة يتمثل فيها الأدب على نحو واضح. والشاعر في أبياتـه يذكر أسماء بعض أجزاء هذه اللعبة، مثل الكلمات والبيذق، المصنوعة من الخشب، كما يذكر أن الجلد ميدانها، وساحاتها التي يقابل فيها الجند البيض والسود بعضهم بعضـا.

أما أبو يعلى ابن الهبارية، فيصف الشطرنج في غير موضع، ومن ذلك قوله [٢]:

وإذا البياذقُ[٣] في الدسـوتِ[٤] تَفَرزنَـتْ فـالرأي أن يتَبيـذَقَ الفِـرزان [٥]

وفي موضع آخر يستثمر هذا الشاعر لعبة الشطرنج واصـطلاحاتها وأسـماء أجزائهـا وأحداثها في التشبيه بمواقف حياتية، يقول [٦]:

إن اعتـضاد الـشاهِ بـالفرزان موعظـةٌ فـي الـسر للـسلْطان
ليتّقـي فـي الخَطْـبِ بـالوزير مفَوضـاً إليـه فـي الأمـور
وكـل إنـسانٍ فـلا بـد لَـه مِـن صـاحبٍ يحمـلُ مـا أَثْقَلَـه
وصـاحبٍ للـسر ذي كِتْمـان مخـالصٍ فـي الـسر والإعـلان

والشطرنج لعبة تتطلب الانتباه والتحرز والتفكير قبل التصرف. لذا، يوظفها ابن الهبارية في نصح أخيه الإنسان، قائلاً [٧]:

يـا أَيهـا الإنـسان كُـن فـي الـدنيا كلاعـبِ الـشطْرنج وانْـح المعنـى

---

[1] ديوان الغزي، ص ٥٤٥.
[2] خريدة القصر، قسم شعراء العراق، ج٢، ص ٧٢.
[٣] البيذق: الجندي الراجل.
[٤] الدسوت: جمع الدست، وهو صدر المجالس.
[٥] الفرزان: ما يلي البيذق في اصطلاح الشّطْرنج. لسان العرب، مادة (فرز).
[٦] ديوان الصادح والباغم، ص ١٧.
(٧) المصدر نفسه، ص ١٤.

محتـرزا مـن العـدو محتـرس تَـنْج وتـسلم مـن أذاه وتَكِـس
فـالحين فـي الأهـوان والتجـوز والحـزم كـل الحـزمِ فـي التحـرز

فالاحتياط واجب، والاحتراس سبب في نجاة صاحبه، ومتى يكون المرء محتـرزا يـنج ويسلم ويكون كيسـا عاقلاً.

ولابن الهبارية أرجوزة يصف فيها لعبة الشطرنج، وكيف أن على لاعبيهـا أن يحـذر أحدهما من الآخر، ويحتاط لحركاته وسكناته، ويتوقع ما سيقدم عليه من تصرفات، وهـذا كلـه يقابل الحياة وكيف ينبغي للإنسان فيها أن يتصرف، وأن يحتاط من كيد الآخرين، ويدفع إساءات المعتدين ويرد كيدهم، يقول(١):

وقـد رأينـا أمـسِ فـي زمانِنـا وحـسبنا المـدرك فـي عيانِنـا
لمـا أتـى طغرلنـك بغـذاذا ولـم يجـد منـه امـرؤٌ معـاذا
جـاء إليـهِ الملـك الـرحيم مـستقبلاً فقـالَ لا تـريم
واستحـضر الـشطرنج للملاعبـه إشـارةً منـه إلـى المحاربـه
حتـى إذا توسـطا فِـي اللعِـبِ جـاء ابـن ميكـالِ بـأمرٍ عجـبِ
صـافح عمـدا شـاهه بـشاهِهِ لِلُطْفِـهِ فِـي الكيـدِ وانتباهِـهِ
فـرد ذاك ابـن بويـهٍ منْكِـرا فَلَـج طغرلنـك حتـى أكثـرا

وما اعتناء أناس القرن الخامس الهجري بهذه اللعبة الذهنية، وممارستهم لها على نحـو واسع، إلا دليل على تفاعلهم مع حضارة عصرهم العقلية تفاعلاً توقف عنده الشعراء في غيـر موضع؛ فوصفوه وصفًـا تمثل فيه إبداعهم، واتضحت مـن خـلال مـشاركتهم فـي أحـداث عصرهم.

ب- النرد

أما النرد، فيستعمل في اللعب به ثلاثون حجرا وفصان، على رقعة رسم عليها اثنا عشر منزلاً أو أربعة وعشرون. وقد شبه بعض الحكماء النرد بالأرض الممهـدة لـساكنها، ومنـازل الرقعة بساعات الليل والنهار، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل، وما يخـرج من الفصين إذا رمى بهما القضاء الجاري على العباد. والمشهور أن النرد من اختراع الفرس(٢).

---

(1) ديوان الصادح والباغم، ص ١٤- ١٥.
(2) حسن، تاريخ الإسلام، ج٤، ص ٤٦٠.

وقد اعتنى شعراء القرن الخامس الهجري بالنرد اعتناءهم بالشطرنج؛ فذكروه في قصائدهم. يقول الأرجاني في سياق قصيدة مدحية[١]:

وغنّى حمام الأيكِ والغُصن منْتَشٍ بكأسِ الصبا، والغُدر تلعب بالنّردِ

وفي هذا دلالة على انتشار هذه اللعبة؛ إذ جعل ماء الغدير يمارسها.

وكما هي الحال في استثمار لعبة الشطرنج في مواقف حياتية، فقد استثمر الشعراء لعبة النرد أيضا في مواقف حياتية مشابهة، ومن ذلك قول ابن الهبارية[٢]:

فِي النردِ أيضا حكمةٌ عظيمه تدركُها الخواطر السليمه
في الناسِ من تُسعِده الأقدار وفعلُه جميعه إدبار
كمِثْل من تُسعِده الفُصوص وفعلُه مزيفٌ مغْمُوص

ففصوص النرد قد تسعد من فعله محتقر معاب، مثلها في ذلك مثل الأقدار التي قد تسعد من فعله جميعه إدبار. وما ذلك إلا هذه اللعبة تعتمد على الحظ، وهي بذلك تختلف عن لعبة الشطرنج التي للفكر فيها دور رئيس.

ويعد ابن الخياط من أشهر الشعراء الذين وصفوا هذا المظهر الاجتماعي الحضاري، حتى إنه أنشأ فيها قصيدة، وكان سبب إنشائه لها أنه كان يلعب النرد مع أبي المرجي الخلاطي بين يدي عضد الدولة، فغُلب مرات عدة، ما جعله يستهلّ قصيدته بالشكوى من خطوب الأيام، ويندب سوء حظه في هذه اللعبة، التي يشبهها بساحة الوغى. وفي ثنايا القصيدة يصور ابن الخياط فصوص النرد التي يلعبان بها تصويراً حسناً، واصفاً إياها بأنها محيرة للألباب بجولاتها وصولاتها، كما يصورها ناصحة لأبي المرجي تجيبه وهي خرساء، وتستمع إليه وهي صماء، وهي بذلك تغش، وتنحاز في غشّها إلى غريمه؛ فيزداد غيظه ويكبر حنقه؛ إذ يرى جنود خصمه تثُل عرشَه، وتَشُن عليه الغارة تلو الأخرى مستخدمة أقوى الأسلحة وأفتكها، متمثلة في أصابع يده أبي المرجي التي يصورها أفاعي مرعبة أكولة تنهش قلبه ويده، يقول[٣]:

قاتلَها اللهُ فلا بنوجها ترقَّع بي رأسا ولا شُوشُها
أُرسِلُها بيضا إذا أَرسلْتُها كأنها قد مجِيت نُقُوشُها
كأنني أقرأُ منها أسطُرا من الزبور درست رقُوشُها
تُطيع قوما عمهم نُصوصها وتَعصِني من بينِهم غشُوشُها
يجيبهم متى دعوا أَخْرسها وإن يقولوا يستَمِع أُطْروشُها
مذبذبين دأبهم غيظِي فما تَسلم منهم عِيشَةٌ أعيشُها

---

[١] ديوان الأرجاني، ج٢، ص ٤٨٢.
[٢] ديوان الصادح والباغم، ص ١٩.
[٣] ديوان ابن الخياط، ص ٢٨٥-٢٨٦.

كــأن روحــي بيــنهم أيكيــةٌ ... راحــتْ وكــف أجــدلٍ تَنُوشُــها
يبثُــك منهــا لحمهــا وتــارةً ... تكــاد تنجــو فيطــار ريــشُها
إذا احتَبــى أبــو المرجــي فــيهم ... فهامنــا مائلــةٌ عروشُهــا
كأنمــا شَــنتْ فُــشَيــر غــارةً ... عجلانُهــا الخُــراب أو حريــشُها
كــأن تلــك الخمــس منــه قُطِعــتْ ... خَمــس أفــاعٍ مرعِــب كشيــشُها
أَظْفارهــا أنيابهــا قَطالمــا ... نَيــب قلبــي ويــدِي نَهوشُــها

وهكذا، تتّضح دقّة ابن الخياط في وصفه أحداث اللعبة، حتى إنه يتجاوز الوصف المادي إلى وصف اللاعبين وصفًا نفسيا، ومن هذا وصفُه نفسيتَه وما حل به من غــيظ. "ولعــلّ هــذا الوصف الدقيق الذي يستقصي فيه الشاعر كثيرا من المعاني المتصلة بلعبة النرد، لعلّه يــذكّرنا بوصف ابن الرومي للعبة الشطرنج مع أبي القاسم الشطرنجي؛ إذ قد يكون ابن الخيــاط متــأثرا بابن الرومي في تفصيله واستقصائه ودقّته وبعض أوصافه، ولعلّ هذا الوصف يمثل نمطــًا من الحياة الاجتماعية آنذاك، فيبين كيف كان يقضي بعض القوم أوقاتهم. ويتّسم هذا الوصف بالكثير من الطرافة والفكاهة، كما يتسم باستحياء الشاعر بعض أوصافه من ميدان الفروسية"[(١)].

٢- الرياضات الجسدية

مارس العباسيون في القرن الخامس الهجري أنواعا من الرياضات وفنون اللهو بقصد التسلية، ومن هذه الرياضات اللعب بالحمام، والمقامرة عليه، وسباق الخيل، حتى إن أهل الشام كانوا يحارشون أحيانًا بين الكباش والكلاب[(٢)].

غير أن رياضة الصيد (الطرد) كانت أكثر الرياضات متعة عند العباسيين؛ إذ كانت تجلب إلى الذي يمارسها لذة وابتهاجا كبيرين. وقد كانت ممارسة هذه الرياضة محصورة في فئة قليلة من المجتمع العباسي، وهي الفئة التي تتجلى فيها مظاهر الترف الحضاري. ولما كان الأمر كذلك، والشعر – كما نعلم – تعبير عما تثيره مشاهد البيئة وأحداثها في نفس الشاعر من أحاسيس وخوالج وآراء، فإن الباحث لم يعثر، خلال استقرائه شعر القرن الخامس الهجري، إلا على نماذج قليلة جدا تصف الصيد، فضلاً عن أن شاعرا بعينه استأثر بهذه المقطوعات، هو ابن أبي حصينة، باستثناء واحدة منها قالها الأرجاني، ولعلّ في هذه دلالة على ما تقدم من أن ممارسة هذه الرياضة كانت مقتصرة على فئة قليلة من مجتمع القرن الخامس الهجري.

---

(1) عبد المهدي، الحياة الأدبية في الشام، ص ١٢٤.
(2) انظر: ضيف، شوقي، (١٩٨٤م)، عصر الدول والإمارات: مصر – الشام، (د. ط)، مصر، دار المعارف، ص٥٢٦.

يقول ابن أبي حصينة[(١)]:

بينمـا نحـن بالمِتـان وقَـرن الـشْـ ـ ـشَمسِ فيـهِ عـن اليمـين إيـاء
عن سِـرب لنـا يفـيض بـهِ الفَجـ ـ ـج ويرمـي بنـا إليـهِ الفـضاء
فَـشَنَنّا المـضرباتِ كمـا شُنْـ ـنَتْ علـى الحـي غـارةٌ شَـعواء
فـانبرتْ تكتـب الـدهاس بأيديـ ـهها كمـا تكتـب الـسجِل الإيـاء
فـي قتـامٍ أتُونُـه يحجـب الـسـ ـسِرب كما يحجـب الفَتـاةَ الخِبـاء
وتلاحمـن فـاعتَركْن كمـا تَفْـ ـعلُ يـوم الكريهـةِ الأعـداء
وإذا الحـين حـان لـم ينفـع المحـ ـتالُ حـولٌ ولا الجـري جـراء

فالشاعر يصف رحلة صيد (طَرِديات) بأسلوب قصصي، متابعا في ذلك الصورة التي رسمها الشعراء الجاهليون، يتحدث فيها عن ركب سار للصيد قبل اعتلاء النهار، يمتطون صهوات خيولهم، ومعهم كلاب الصيد المدربة، ثم يصور ظهور سرب من الحمر الوحشية، فتهب وراءها الكلاب تطاردها بعنف، وتدور بينها معركة حامية الوطيس، يحجب قتامها الرؤية، وتسيل فيها الدماء، تكون نتيجتها انتصار الكلاب، ما يجعل الفرسان يحظون بصيد وفير[(٢)].

ولابن أبي حصينة مدحية أخرى يصف فيها أتانًا وحشية عنّت للركب في آخر الليل، وهم يدبون في الصحراء، وقد بدت عليهم آثار التعب وأخذت شدة الجوع منهم كلّ مأخذ، حتى لقد بانت بطونهم خماصا؛ فرأوا في هذه الأتان خلاصهم مما هم فيه من جوع، وقد كانت غليظة القوائم ممتلئة ضخمة، فتبعوها، وكان لهم ما أرادوا؛ إذ أكلوا من شوائها كثيرا، حتى إذا شبعوا واكتفوا أطعموا الوحوش.

يقول ابن أبي حصينة [(٣)]:

فلاحـتْ لنـا عنـد وجـهِ الـصباح حقبـاء مـن تحـتِ عبـل الـشّوى
مِكَـب عليهـا بملمومـةٍ لهـا شُـعلتان كجمـر الغَـضا
وفيهـا نـواجِم بِـيض البطـون مذَربـةٌ مثـلُ روسِ المـدى
فلمـا رآنـا رأى مِثلَـه خِمـاص البطـون لِفَـرطِ الطـوى
فزمجـر حتـى رأيـتَ الوهـاد يزلزلُهـا صوتُـه والربـى
وأقبـلَ يمـشي إلـى فِتْيـةٍ يريعـون منـه ومنهـا العِـدى
فَـشَدوا علـى كهمـس شِـدةً فـبعض وجـاه وبعـض رمـى

---

(1) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص١٢٦-١٢٧.
(2) انظر: عبد المهدي، الحياة الأدبية في الشام، ص ١١٣.
(3) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص٨٣-٨٤.

وأُبنـا يـزادين نحـو الركـابِ: عيـر الغَـلاةِ وليـثِ الـشـرى
وظلْنـا نُلهـوج ذاك القنـيص ونأكُـلُ مِـن عجِـلِ مـا انْـشَوى
فلمـا اتفينـا قرينـا الوحـوشَ مِـن مِثْلِهـا فَـضلاتِ الـشّـوى

ومن الجدير بالقول إننا لا نجد بين شعراء الشام في القرن الخامس الهجري من يصف قصة الصيد على هذا النمط غير ابن أبي حصينة المعري. وهكذا يبدو الشاعر وكأنه يعيد وصف قصة الصيد في الشعر الجاهلي، فيتابع الجاهليين في صورهم وألفاظهم وأساليبهم[(١)]. علماً بأن تلك النتيجة لا تقتصر على الشام فقط، بل تشمل مشرق العالم الإسلامي كله.

وقد تبين للباحث أثناء استقرائه شعر تلك المرحلة، أنموذج آخر للصيد مختلف إلى حد ما في أسلوبه ومضمونه عن نمط الصيد الموروث؛ إذ يصف الشاعر في هذا المشهد ذئبا أعيا الناس، ولم يقدر عليه إلا ممدوحه. يقول ابن أبي حصينة مادحا معز الدولة أبا علوان وواصفًا قتله الذئب[(٢)]:

وأطْلَس مِدلاجٍ إلـى الـرزق سـاغِبٍ يراح إلى ضنْكِ المعِيـشَةِ أو يغْـدى
أَسـن ومـا يـزداد إلاّ جهالـةً وخُرقًا ولا ينْفَـك مـستَرِقًا وغْـدها
غَدا معرضا للجـيش يقْـصِد جنْبـه وما كـان أما للرجـال ولا قَـصـدا
فلمـا رأى خَيـلَ المنايـا معِـزةً إليـهِ تمـطّى كالـشراكين وامتَـدا
فحـين تَحـرى للنّجـاةِ وأيقنَـتْ له نفسه بالخيـر واستأنَـستْ رشْـدا
سما نحوه طَرفُ امرئٍ لـو سـما بـهِ إلى جبـلٍ لانْهـد من خَوفِـه هـدا

فهذا الممدوح يتّصف بالشجاعة والقوة، حتى إنه – كما يذكر الشاعر – معتاد على قتل الأسود، وقد ظهر للذئب معتليا صهوة جواد قوي أعضاؤه ممتلئة مستحكمة، وحاملاً رمحا صلبة ذات مضاء ونفاذ، طعن بها الذئب فخر ميتًا، يقول[(٣)]:

على ظهـر مـدموج المرافـق سـابحٍ على أَربعٍ ملْدٍ تَطـولُ القَنـا الملْـدا
تَعـود أن يرمـي بـهِ كـل مطْلَـبٍ قَصِـي ويكْتَد النَجـاح بـهِ كَـدا
فـأوجره سـمراء لـو مـد باعـه بها طاعنًـا لـلأسد أنْفَـذَتْ الـسـدا
فخـر مكِبـا للجِـران ونفـسـه تُسِـر لِمرديـهِ الـضغينةَ والحِقْـدا
فقلتُ له يـا ذئـب لا تَخْـشَ سبـةً فَمرديك أردى قبلـك الأسـد الـوردا
ومـا هـي مِيتـةٌ قَـل عارهـا إذا أرغَم السيدان من أرغَـم الأُسـدا

ولعلّ ابن أبي حصينة متأثر بالبحتري في وصفه الذئب؛ إذ إن البحر والروي نفسيهما، والأحداث والجو العام للنص تكاد تكون هي نفسها أيضا.

---

(1) عبد المهدي، الحياة الأدبية في الشام، ص ١١٥.
(2) ديوان ابن أبي حصينة، ج١، ص ٩٨.
(3) المصدر نفسه، ج١، ص٩٨-٩٩.

أما الأرجاني، فيصف ركبا سار للصيد وقد امحى الظلام، مصورا الخيلَ، والكنائن الممتلئة سهاما؛ إذ يقول [1]:

ألم تَر غُدوةَ مولى الورى ... إلى الصيدِ بالخيل لما عزم؟
وقد حط وجه الصباح اللثام ... فثاروا إلى خيلهم باللجم
مِلاء كنائنهم والأكُفْ ... فُ قد تَوجوها غُداة اعتَزم
بِزرقٍ جوارح تشكو الظّما ... وزرقٍ جوارح تشكو قَرم
ترى كل سهمٍ وشهمٍ حكا ... في الطير وقعا لعظمِ النهم
خطيب ومنبره ساعد ... يقَلب عينين مثلَ الضرم
له مِنبر عاقد ما يصيد ... وعشرين في طلَق إن هجم
وقد كاد يخرج من جلدِهِ ... وراء الطريدةِ لما اقتحم

وللأرجاني قصيدة أخرى يصف فيها اللعب في معسكر السلطان، يقول[2]:

وعلى جيادِ الخَيل أغْلِمةٌ ... غُر تُصرفُ تَحتَها غُرا
مِن ضاربٍ كُرةً ينَزقُها ... في ملعبٍ، أو رائضٍ مهرا
أو مُردفٍ فَهدا لِيقْنِصه ... أُدم القَلا، أو ممسكٍ صقْرا
وخِلالَ أطْنابِ الخِيامِ تَرى ... رشْقَ الرماةِ سِهامها تَتْرى
نَثَروا لأيديهم وأعينِهم ... ما فِي الكنائن كُلها نَثْرا
مجعولَةً أصداغُها حلَقًا ... مِنها على آذانِها كِبرا
وتَقاطَر الغِلمان راكِضةً ... للخيل تابِعةً له الإثْرا
وكأنّما أضحتْ قَلانِسهم ... مِن عكْسِ ضوءِ خُدودِهم حمرا
حتى إذا أخَذوا صوالِجهم ... جهدوا سوابِقَ خَيلِهم حضرا
وتَنازعوا الآداب وامتَحنوا النْ ... نُشّاب والخَطيةَ السمرا

فمِن هؤلاء الغلمان الغر، الذين يمتطون الخيل في معسكر السلطان، من يلعب بالكرة، ومنهم من يروض مهرا، ومنهم من يتبع فهدا لِيقْنِصه، ومنهم من يمارس الطرد. كما يظهر في هذا المعسكر غلمان يرمون السهام، وآخرون يلبسون عدة الحرب، تبدو عليهم علامات الشجاعة والبطولة والفروسية واضحة.

فهذه السهام قد اعتادت صيد الطير، حتى إنها لا تخطئ هدفها، وما تلك الدقة إلا بسبب تلك الساعد، التي يمتاز صاحبها بالبراعة. ومما يلحظ أن أبيات الأرجاني تلك، تختلف عن أبيات

---

[1] ديوان الأرجاني، ج٣، ص ١٢٦٤-١٢٦٦.
[2] المصدر نفسه، ج٢، ص٦٢٥-٦٢٨.

ابن أبي حصينة في أسلوبها، ما يجعل الثاني منفردا في هذا الباب من الوصف، رغم أن ديوانه لا يحوي إلا أمثلة قليلة على قصة وصف الصيد.

وإن كانت الشواهد الشعرية في القرن الخامس الهجري على وصف قصة الصيد قليلة، إلاّ أنها تؤكد أثر حضارة هذا القرن في حياة المترفين من هواة الصيد، الذين اتّخذوا الطرد وسيلة للمتعة، فالحضارة هي التي وفرت لهؤلاء تلك الأسباب، وأتاحت لهم متّسعا من الوقت لإشباع رغباتهم بممارسة أصناف من اللهو والتسلية.

الخاتمـة

سعت هذه الدراسة، الموسومة بـ "المظاهر الحضارية في الشعر العباسي فـي القـرن الخامس الهجـري"، إلى الكشف عن الواقع الحضاري في ذلك القرن، متّخذة شعر تلك المرحلة مرجعًا أساسا لها، ومصدرا مهما تستجلي به جوانب التقدم والرقي في حـضارة هـذا القـرن، تتعرف من خلاله مقدرة الشعر على مواكبة الحضارة في عصره، وتصوير إنجازاتها، والكشف عن جمالاتها.

لقد حاول الباحث في هذه الدراسة سبر أغوار النصوص الشعرية، والاستـشهاد بهـا؛ لاستجلاء المظاهر الحضارية التي اكتظ بها القرن الخامس الهجري، وكان لها انعكاسها الواضح على المجتمع وأفراده، ومن بينهم الشعراء الذين ما فتئوا يرصدونها بحسٍّ مرهـف، وعاطفـة حضارية كشفت عن مقدرة عالية وكبيرة للشعر على تصوير حضارة عصره ورصد مظاهرها.

وقد خلصت هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج، أهمها:

- تعني الحضارة بمفهومها العام مجموع المنجزات والخبرات الإنسانية من معنوية ومادية لأمة من الأمم منذ فجر تاريخها حتى الزمن الحاضر، وهي كـلّ المعـاني والقـيم الروحيـة والأخلاقية والاجتماعية، وكلّ ما أبدعته عبقرية الأمة في ميادين الفكر والفن. إنها كلمة تطلـق على التقدم والرقي الإنسانيين في مختلف الميادين العلمية والإبداعية والاجتماعية والاقتـصادية والعمرانية، مما ييسر السبيل إلى حياة إنسانية أفضل.

- تتفاعل الحضارات مع بعضها تفاعلاً ينجم عنه إفادة كلّ منها للأخرى بقدر، بحيث ينـتج من هذا التفاعل حضارات جديدة تتسم كلّ منها بسمات وتنماز بخصائص تكاد تكون قريبـة أو بعيدة عمن سواها. وبذا، تشكل كلّ منها لنفسها كيانـًا خاصا، وجوهرا تستمد منـه ازدهارهـا واستمرارها.

- انمازت الحضارة العربية عن الحضارات السابقة في أنها صهرت كل ما اكتـسبته مـن علوم الحضارات الأخرى ومعارفها، ثم صبته في قالب إسلامي. ولعلّ هذا كان سببا رئيسا فـي أن تبقى مزدهرة مدة طويلة.

- لا يختلف اثنان في أن دولة الخلافة العباسية عانت ظروفًـا سياسية صـعبة واضـطرابا أدى إلى تفكّكها وانقسامها، ثم سقوطها في سنة (٦٥٦ هـ). وقد كان اختلال الظروف السياسية سببا في تفكّك المجتمع العباسي، بحيث تعددت فئاته. غير أن ذلك كله لم يحل دون إنتاج حضارة

تضمنت الكثير من الابتكار والتجديد في مناحي الحياة كلها، سواء أكانت علمية أم أدبية أم فكرية أم اجتماعية.

- برع شعراء القرن الخامس الهجري في وصفهم للعمران، الذي انتشر انتـشارا واضـحا، وتعددت أشكاله بحيث شيدت القصور والدور والقِباب والبرك والنواعير والجـسور والقنـاطر والحمامات والقلاع والحصون، وكان ذلك نابعا من شـغف الخلفـاء والأمـراء وذوي اليـسار بالعمران، وناجما عن كثرة الأموال المتدفقة على خزائن الدولة والإمارات آنذاك.

- صور شعراء القرن الخامس الهجري واقعهم الحضاري على نحو حسن، وقد ظهر ذلـك واضحا وجليا في تصويرهم مظاهر الطبيعة ووصفهم ما اشتملت عليـه مـن ريـاض وورود ورياحين وربيع.

- نعمت المرأة القرن الخامس الهجري على نحو عام بخيرات حضارتها، ورفلت في نعيمها بحيث حصلت نصيبا وافرا منه، وتجلّى ذلك في اهتمامها بزينتها وعنايتها بمظهرها؛ إذ لبست ما يتناسب ومستوى مجتمعها الحضاري، واعتنت بجمال شَعرها وزينته متّخـذة لـه التـسريحات المختلفة، وتحلّت بالجواهر والأحجار الكريمة على اخـتلاف أنواعهـا وأشـكالها، واسـتعملت أصنافـًا متنوعة من الطيب والخِضاب.

- ظهر تحلي مجتمع القرن الخامس الهجري بروح التسامح الديني واضحا من خلال علاقة المسلمين بأتباع الديانات الأخرى والعقائد والملل المتنوعة، وتجلى ذلك في مشاركتهم الاحتفـال ببعض أعيادهم، من مثل: النيروز، والمهرجان، و.....، وتبادل الهدايا والتهاني.

- شهدت بعض المناسبات الاجتماعية مظاهر تتفق مع طبيعة المجتمع الحضاري في القـرن الخامس الهجري، وتنسجم مع ما انتشر فيه من ترف وبذخ ظهرا واضحين لدى طبقة الخلفـاء والوزراء والأمراء وأصحاب الجاه والمال.

- تفنّن العباسيون في القرن الخامس الهجري في مآكلهم ومشاربهم تفنّنـًا ظهر أثـره فـي الشعر على نحو واضح وجلي، حتى إن بعض الشعراء نظموا قصائد طويلـة يـصفون فيهـا أصناف الطعام والشراب التي كانت معروفة حينذاك.

- تعددت المظاهر الحضارية في مجالس خمر القرن الخامس الهجـري، حتـى إن بعـض الشعراء وصفوا هذه المجالس وصفـًا يشي باستمتاعهم بها؛ إذ صوروا المدام والكأس والساقي وما يجري في أثناء الشرب تصويرا حسيـا يكاد يكون ناطقـًا بما يدور في تلك المجالس مـن أحداث.

- أثرت حضارة القرن الخامس الهجري في قيم المجتمع وعاداته تأثيرا متفاوتـًا، فانتشرت تبعا لذلك مجالس اللهو والطرب والشرب لدى فئة منه، وقد ساعد ذلك علـى بـروز ظـاهرة الشغف بالغلمان؛ إذ وجد هؤلاء لأنفسهم مكانـًا في تلك المجالس، وكثروا حتى بات التغزل بهم ظاهرة مرتبطة بوصف مجالس اللهو على وجه الخصوص. علما بأن وجود هذه الظاهرة السلبية في مجتمع ذاك القرن لم يكن محض صدفة؛ فهو مجتمع تنعم فئة كبيرة منه بالترف، الـذي أدى إلى انغماس بعض طبقاته في متع الحياة وملذاتها.

- تبع انغماس بعض فئات المجتمع العباسي في القرن الخامس الهجـري بملـذات الحيـاة وتمتعهم بمباهجها، انتشار مجالس اللهو والطرب، تلك المجالس التي حوت غير قليل من المغنين ترافقهم آلاتهم الموسيقية، فراح الشعراء يصفونهم وصفـًا تفوح منه رائحة الحضارة.

- سجل شعراء القرن الخامس الهجري حضورهم أيضا في ميـادين الرياضـيات الذهنيـة والجسدية؛ فوصفوا ما كان يمارسه الخلفاء والأمراء وأهلُ اليسار من لعب بالشطرنج والنـرد، ومن رحلات صيد كانت تحقق المتعة والتسلية.

- تفاعل شعر القرن الخامس الهجري مع تلك النقلة الحضارية تفاعلاً لا يدع مجالاً للشك؛ إذ لبى الشعراء نداءات ذلك المجتمع المتحضر، ودعواته المختلفة، وتفرقوا شيعا وأحزابا يصورون وينافحون ويلهون، كلّ يعمل على شاكلته، حتى أصاب الشعر ما أصاب غيره من تأثر، فلبـست ثوبا حضاريـا، وخالطها كثير من الأخيلة والصور الجديدة تبعا لتطور ذائقة المجتمع الجديد.

وإن كان ثمة ما يقال في هذا المقام، فإن هذه الدراسة ترى ضرورة توجيه النظر نحو شعر تلك المرحلة، ودراسته، وتقديم نماذجه المتميزة للطلبة والدارسين في مختلـف المراحل، سواء أكانت مدرسية أم جامعية.

وآخـــــرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالميــــن

المراجع

١. إبراهيم، بكر يس، (١٩٨٧م)، **الحضارة الإسلامية العائدة**، ط١، القاهرة، مكتبة الآداب.

٢. الأبيوردي، أبو المظفّر محمد بن أحمد بن إسحق، (ت ٥٠٧هـ)، **الديوان**، (تحقيق د. عمر الأسعد)، ٢ج، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٧م.

٣. اشفيستر، ألبيرت، (١٩٩٧م)، **فلسفة الحضارة**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، (د. ط)، بيروت، دار الأندلس للطباعة والنشر.

٤. الأرجاني، ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين، (ت ٥٤٤هـ)، **الديوان**، (تحقيق د. محمد قاسم مصطفى)، ٣ج، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٧٩م.

٥. الأزدي، علي بن ظافر، (ت٦٢٣هـ)، **غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات**، (تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام، والدكتور مصطفى الصاوي)، دار المعارف، مصر، (د.ت).

٦. إسماعيل، د. عز الدين، (١٩٧٥م)، **في الأدب العباسي: الرؤية والفن**، بيروت، دار النهضة العربية.

٧. الأصفهاني، عماد الدين الكاتب، (ت ٥٩٧هـ)، **خريدة القصر وجريدة أهل العصر**:

- قسم شعراء الشام (تحقيق شكري فيصل)، ٢ج، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٩م.
- قسم شعراء العراق، (تحقيق محمد بهجة الأثري)، ج١، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٥٥م.
- ــــــــــــــــ، ج٢، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦٤م.
- قسم شعراء مصر، (تحقيق أحمد أمين، وشوقي ضيف، وإحسان عباس)، ٢ج، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١م.

٨. الأطرقجي، واجدة، (٢٠٠٢م)، **المرأة في أدب العصر العباسي**، ط١، أبوظبي، مركز زايد للتراث والتاريخ.

٩. الباخرزي، أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي طالب، (ت ٤٦٧هـ)، **دمية القصر وعصرة أهل العصر**، (تحقيق سامي مكي العاني)، ط٢، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٨٥م.

١٠. البخاري، أبو عبدا محمد بن إسماعيل، (ت ٢٥٦هـ)، **مختصر صحيح البخاري**، (مختصر: محمد ناصر الدين الألباني)، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٧٩م.

١١. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتـابكي، (ت ٨٧٤هـ)، **النجـوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الـدين)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.

١٢. التهامي، أبو الحسن علي بن محمد، (ت ٤١٦هـ)، **الديوان**، (تحقيـق د. علـي نجيـب عطوي)، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٦م.

١٣. الثعالبي، أبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل، (ت ٤٢٩هـ)، **يتيمة الدهر فـي محاسن أهل العصر**، (تحقيق مفيد محمد قميحة)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

١٤. حاجي خليفة، مصطفى بن عبدا القسطنطيني، (ت ١٠٦٧هـ)، **كـشف الظنـون عـن أسامي الكتب والفنون**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٠م.

١٥. حتي، فيليب، (١٩٧٤م)، **تاريخ العرب**، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع.

١٦. ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي الكناني، (ت٨٥٢ ه)، **فـتح البـاري، كتاب البيوع**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠م.

١٧. حسن، د.حسن إبـراهيم، (١٩٦٥م)، **تـاريخ الإسـلام الـسياسي والـديني والثقـافي والاجتماعي**، ج٣، ٤، ط٧، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.

١٨. ابن أبي حصينة، أبو الفتح الحسن بن عبدا الـسلمي المعـري، (ت ٤٥٦هـ)، ٢ج، **الديوان**، (تحقيق محمد أسعد طلس)، المجمع العلمي العربي، دمشق، (د. ت).

١٩. حقي، ممدوح، (د.ت)، **الأبيوردي**، دار اليقظة العربية، دمشق.

٢٠. الحنبلي الإمام شهاب الدين أبو الفلاح عبدالحي بن أحمد بن محمـد ، (ت ١٠٨٩هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، (دراسة وتحقيق مصطفى عبدالقادر عطـا)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩م.

٢١. ابن حيوس، **الديوان**، ج٢، (د.ط)، (د. ت).

٢٢. الخالديان، (١٩٥٦م)، **التحف والهدايا**، مصر، دار المعارف.

٢٣. خريسات، محمد، وهزايمة، عصام، ومحافظة، محمـد، (١٩٩٩م)، **تـاريخ الحـضارة الإنسانية**، الأردن، دار الكندي.

٢٤. ابن خلدون، ولي الدين عبد الرحمن بن محمد الحضرمي، (٨٠٨ هـ)، المقدمة، (د.ط)، دار الجيل، بيروت، (د. ت).

٢٥. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (ت ٦٨١هـ)، **وفيـات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، (تحقيق د. إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٩٤م.

٢٦. ابن الخياط، أبو عبدا أحمد بن محمد بن علي التغلبي الدمشقي، (ت ٥١٧هـ)، **الديوان**، (تحقيق خليل مردم)، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٥٨م.

٢٧. دوزي، رينهارت، (١٩٧١م)، **المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب**، ترجمة أكرم فاضل، دار الحرية، بغداد.

٢٨. الزبيدي، أبو الفيض محمد مرتضى الحسيني، (١٢٠٥ه)، **تاج العـروس مـن جـواهر القاموس**، (تحقيق عبد الكريم العزباوي، مراجعة أحمد فراج)، ج١١، مطبعة دار حكومة الكويت، دار الجيل، ١٩٧٢م.

٢٩. الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الدمشقي، (ت ١٣٩٦هـ)، **الأعلام**، ط ١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.

٣٠. زريق، قسطنطين، (١٩٨١م)، **في معركة الحضارة**، (ط٤)، بيروت، دار العلم للملايين.

٣١. زيدان، جرجي،(د. ت)، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ج١، بيروت، دار مكتبة الحياة.

٣٢. سالم، السيد عبد العزيز، **القيم الجمالية في فن العمارة الإسـلامية**، محاضـرات للعـام الدراسي (١٩٦٢~١٩٦٣م) في الجامعة العربية، بيروت، مطبعة كريدية.

٣٣. أبو سويلم، د. أنور عليان، (١٩٨٣م)، **الطبيعة في شعر العصر العباسـي الأول**، (ط١)، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر.

٣٤. السيد، عزمي طه وآخرون، (١٩٩٥م)، **الثقافة الإسلامية**، (د. ط)، مصر، دار المناهج.

٣٥. السيوطي الحافظ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، (ت ٩١١هـ)، **بغية الوعاة فـي طبقات اللغويين والنحاة**، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٩م.

٣٦. الشامي، عبد العال، (١٩٨٨م)، **جغرافية العمران عند ابن خلدون**، الكويت.

٣٧. الشرقاوي، عفت، (١٩٨٥م) ، **في فلسفة الحضارة الإسلامية**، ط٤، بيروت، دار النهضة العربية.

٣٨. الشريف، أحمد إبراهيم، (١٩٨١م)، **دراسات في الحضارة الإسلامية**، دار الفكر العربي، القاهرة.

٣٩. شهاب الدين أبو عبدا ياقوت بن عبدا الحموي، (ت ٦٣٦هـ)، **معجم البلـدان**، ط٣، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠م.

٤٠. صابر، محيي الدين، (١٩٦٢م)، **التغير الحضاري وتنمية المجتمع**، سرس اللبان، مركز تنمية المجتمع.

٤١. صردر، أبي منصور علي بن الحسن بن علي بن الفضل، (ت ٤٦٥هـ)، **الديوان**، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م.

٤٢. الصفدي، أبو الصفا خليل بن أيبك، (ت ٧٦٤هـ)، **الوافي بالوفيات**، (تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى)، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠م.

٤٣. الصوري، عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري، (ت ٤١٩هـ)، ٢ج، **الديوان**، (تحقيق مكي السيد جاسم، وشاكر هادي شكر)، دار الرشيد للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ١٩٨٠م.

٤٤. ضيف، شوقي، (١٩٨٤م)، **عصر الدول والإمارات: مصر – الشام**، (د. ط)، مصر، دار المعارف.

٤٥. ضيف، شوقي، **عصر الدول والإمارات: الجزيرة العربية – العراق – إيران**، ط٢، مصر، دار المعارف، ١٩٨٠م.

٤٦. الطبري، الأمام أبو جعفر محمد بن جرير، (ت ٣١٠هـ)، **تاريخ الأمم والملوك**، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، ط٢، دار سويدان، بيروت، ١٩٦٧م.

٤٧. الطغرائي، أبو إسماعيل الحسين بن علي، (ت ٥١٥هـ)، **الديوان**، (تحقيق د. علي جواد الطاهر، ود. يحيى الجبوري)، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٦م.

٤٨. ظافر الحداد، أبو نصر ابن القاسم بن منصور الجذامي الأسكندري، (ت ٥٢٩هـ)، **الديوان**، (تحقيق د. حسين نصار)، دار مصر للطباعة، القاهرة.

٤٩. عبادي، أحمد، مختار، (١٩٧٨م)، **محاضرات في الحضارة الإسلامية**، بيروت، مكتبة كريدية.

٥٠. عبد الكريم، عثمان، (١٩٨٢م)، **معالم الثقافة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥١. عبد المعطي، محمد والعطار، أحمد وعبد الرزاق، أحمد وآخرون، (١٩٩٨م)، **تاريخ العلوم والحضارة الإسلامية**، ط ٤، أبو ظبي، جامعة الإمارات العربية المتحدة.

٥٢. عبد المهدي، عبد الجليل، (١٩٧٧م)، **الحياة الأدبية في الشام في القرن الخامس الهجري**، ط١، عمان، مكتبة الأقصى.

٥٣. العبيدي، صلاح حسين، (١٩٨٠م)، **الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي من المصادر التاريخية والأثرية**، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

٥٤. ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن، (ت ٥٧١ هـ)، **تاريخ مدينة دمشق**، (تحقيق محمد أحمد دهمان)، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٤م.

٥٥. العقيلي، علي بن الحسين بن حيدرة، (ت ٤٥٠هـ)، **الديوان**، (تحقيق د. زكي المحاسني)، ٢ج، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، (د. ت).

٥٦. العكبري، أبو البقاء، **شرح المتنبي**، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وآخرون، (د. ط)، ج١، بيروت، دار المعرفة، (د. ت).

٥٧. علام، عبدا (١٣٠٠هـ)، **مطالع البدور في منازل السرور**، ج٢، القاهرة.

٥٨. العلي، زكية، (١٩٧٦م)، **التزيق والحلي عند المرأة في العصر العباسي**، بغداد، منشورات وزارة الإعلام.

٥٩. عماد الدين، خليل، **مدخل إلى التاريخ والحضارة الإسلامية**، كوالالمبور، الجامعة الإسلامية العالمية.

٦٠. الغزي، أبو إسحق إبراهيم بن عثمان بن محمد الكلبي الأشهبي (ت٥٢٣هـ)،**الديوان**، (تحقيق ودراسة د. عبدالرزاق حسين)، ط١، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، ٢٠٠٨م.

٦١. ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا القزويني، (ت ٣٩٥ه)، **معجم مقاييس اللغة**، (تحقيق عبد السلام هارون)، ط٢، ج٢، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٨١م.

٦٢. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، (ت ١٧٠هـ)، **معجم العين**، (تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي)،(د.ط)، العراق، دار الرشيد للنشر، ١٩٨١م.

٦٣. القيرواني، أبو علي الحسن ابن رشيق (ت٤٥٦هـ)، **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، ج٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٠٧م.

٦٤. كحالة، عمر رضا، **معجم المؤلفين: تراجم مصنفي الكتب العربية**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).

٦٥. لوبون، جوستاف، (١٩٥٦م)، **حضارة العرب**، ط٣، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.

٦٦. مؤنس، حسين، (١٩٧٨م)، عالم المعرفة، الحضارة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة.

٦٧. ماجد، عبدالمنعم، (١٩٦٣م)، **تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٦٨. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، قام بإخراجه إبراهيم أنيس وآخرون، ط٢، بيـروت، دار إحياء التراث العربي.

٦٩. المعري، أبو العلاء أحمد بن عبدا ، (ت ٤٤٩هـ)، **اللزوميات**، (تحقيق عمر الطبـاع)، دار الأرقم، بيروت، ٢٠٠٠م.

٧٠. المقدسي، محمد بن أحمد، (ت٣٨٠ هـ)، **أحسن التقاسيم فـي معرفـة الأقـاليم**، ط١، (تحقيق شاكر العيبي)، دار السويدي للنشر، أبوظبي، ٢٠٠٣م.

٧١. الملقي، هيام، (د. ت)، **ثقافتنا في مواجهة الانفتاح الحضاري**، (د. ط)، الريـاض، دار الشواف.

٧٢. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكـرم،(ت٧١١ه)، **لـسان العـرب**، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨م،

٧٣. نشار، النشار، مصطفى، (٢٠٠٤م)، **فلسفة التاريخ**، القاهرة.

٧٤. نور، محمد عبد المنعم، (د. ت)، **الحضارة والتحضر**، ط٢، القاهرة ، دار المعرفة.

٧٥. هارون، عبدالسلام ، **نوادر المخطوطات**، (تحقيق)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١م.

٧٦. ابن الهبارية محمد بن محمد بن صالح أبو يعلى ، (ت ٥٠٤هـ)، **ديوان الصادح والباغم**، أراجيز قصصية على أسلوب كليلة ودمنة، (نشره وشرح ألفاظه وترجم للمؤلف: عـزت العطار)، ١٩٣٩م.

٧٧. اليوزبكي، توفيق سلطان، (١٩٨٨م)، **دراسات فـي الـنظم العربيـة والإسـلامية**، ط٣، العراق، وزارة التعليم العالي، جامعة الموصل.

Civilization Aspects in Abbasid Poetry in the Fifth Century Hijri

By
Abdullah Mahmood Ahmad Ibrahim

Supervisor
Prof. Abdul Jalil Abdul Mahdi

ABSTRACT

The purpose of this study is to investigate the civilization aspects of the Abbasid poetry in the fifth century Hijri. The study aims to identify civilization status in that century in general, and poetry in particular as considered the main historical resource of the civilization aspects.

This inductive analytical study consisted of four chapters. The introduction discussed broad and specific civilization. In the first chapter the aspects of architecture in poetry of the fifth century Hijri was discussed. Chapter Two focused on aspects of nature in poetry of the fifth century Hijri. The Third Chapter was about women's clothing and accessories in poetry. Chapter Four studied social civilization aspects in poetry of the aforementioned century.

The study concluded that poetry of the fifth century embraced several civilization aspects. Poets of that century excelled in describing the civilization of their time. This was apparently shown in their advanced interaction with their real life civilization. Their peculiar works showed intelligible description of architecture (i.e. cities, palaces, castles, houses, domes, castles, citadels, bathrooms, ponds, waterwheels, norias, fountains, pavilions, bridges, lighthouses). Moreover, poets were distinguished in describing nature (i.e. meadows, roses, sweet basils, spring season. Women's appearance and accessories (i.e. clothing, fashion, hair, jewelry, henna, perfume). Customs and traditions in social aspects were also well-described (i.e. holidays celebrations, and observances, gift exchanges, food and drinks, means of amusement and entertainment as described in wine gatherings, singing, musical instruments, and intellectual and physical exercises.